فضفضة

كتّاب ومفكرين

عماد الغزالي



الدار المصرية اللبنانية

فضفضة

كتاب ومفكرين

الغزالى ، عماد .
فضفضة كتاب ومفكرين / عماد الغزالى
.ـ ط1.ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2008
280 ص ؛ 24 سم
تدمك : 4 ـ 402 ـ 427 ـ 977
1 ـ الأدب العربى ـ تاريخ ونقد .
أ ـ العنوان . 810,9



الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 – ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 15784 / 2008

الطبعة الأولى : محرم 1430هـ ـ يناير 2009م

فضفضة

كتاب ومفكرين

عماد الغزالى

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتــويات

الموضـــوع	الصفحة
إهـداء	9
تنويه	11
تقديم	13
السيد ياسين	29
إسماعيل سراج الدين	51
جلال أمين	60
سلامة أحمد سلامة	72
أدونيس	84
محمد سليم العوا	93
سمير مرقس	107
قاسم عبده قاسم	120
جهاد الخازن	133
وحيد عبد المجيد	144
جابر عصفور	156
نبيل عبد الفتاح	167

الموضـــوع	الصفحة
أنور عبد الملك	181
رياض نعسان أغا	193
محمود أباظة	205
طارق البشرى	221
جمال الغيطانى	230
عبد الرحمن الأبنودى	260

❊ ❊ ❊

إهـداء

إلى طارق البشرى ..

المفكر والإنســان

كـما ينبغى أن يكون

عماد

تنويه

* هذه الحوارات تم نشرها فى عام 2007 ، ونهاية 2006 بجريدة الوفد، باستثناء حوار الأبنودى الذى نشر جزء منه فى عام 2004 ، ورأيت ضرورة إضافته لحوار آخر أجريته معه فى عام 2007 .

تقديم
فى مديح الفذلكة

كنت أفكر فى أحسن طريقة لإغوائك بقراءة هذا الكتاب بعد أن فرغت من إقناع الناشر بنشره . دارت فى ذهنى أفكار عديدة ، منها مثلاً أن أستعرض علاقتى بفن الحوار الصحفى الذى دخلت منه إلى عالم الصحافة الواسع ، والذى أتاح لى فى فترة مبكرة من حياتى المهنية أن ألتقى بباقة من ألمع العقول فى مصر والوطن العربى، أحاورهم وأجادلهم فى قضايا فكرية عميقة أستعد لها قدر استطاعتى ، كى أنقل الحوار من حارات الدردشة إلى ساحات المساجلة .

بهذا الشغف ، رحت أحاور نجيب محفوظ ، ويوسف إدريس ، وسيد عويس ، وغالى شكرى ، وفؤاد زكريا ، ومحمود أمين العالم ، والطاهر وطار ، وغسان سلامة ، وأحمد صدقى الدجانى ، وعلى الراعى ، وجورج طرابيشى ، وفيصل دراج ، وعبد السلام المسدى ، ومحمود درويش ، وسعدى يوسف ، وإميل حبيبى ، وسميح القاسم ، وبلند الحيدرى ، وخلدون النقيب ، ورجاء النقاش ، وعبد الله الغذامى ، وتركى الدخيل ، ومحمد عمارة ، ومحمد الغزالى ، ولويس عوض ، وكمال أبو المجد ، ويوسف القرضاوى ، وغيرهم من أطياف فكرية شتى .

كانت بواعثى دائمًا أسئلة مؤرقة أبحث لها عن إجابات ، وهى الأسباب ذاتها التى دفعتنى لمحاورة الكوكبة التى يضمها هذا الكتاب .

لابد أن أعترف أيضًا أن ميولى نحو إجراء هذه النوعية من الحوارات أنقذتنى من بدايات كنت أتوقعها وأخشاها : أن أصبح مندوبًا فى وزارة خدمية أنقل أخبارها إلى الناس ، وأتابع بشغف وهمة جولات السيد الوزير فى المحافظات وافتتاحه المبهر – ربما للمرة العاشرة – لمشروعات تسهم حتمًا فى خطط التنمية الطموحة، وهو عمل لا أنكر أهميته ، كما لا أخفى عجزى عن القيام به .

فكرت فى أن أحدثكم عن مرشدى الأمين فى فن الحوار ، إنه كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «أحاديث فى آسيا» ، وللكتاب عنوان آخر هو « موعد مع الشمس » ، وهو يضم حوارات أجراها الكاتب الكبير فى آسيا مع عدد من قادتها الكبار : الزعيم الصينى « شواين لاى » ، وزعيمة الهند « أنديرا غاندى » ، والرئيس الكمبودى « نوردوم سيهانوك » ، والبنغالى مجيب الرحمن ، والباكستانى ذو الفقار على بوتو ، وعدد من قادة اليابان المدنيين والعسكريين .

قرأت هذا الكتاب فى سنة أولى إعلام (1981 – 1982) ، وكما كانت كتب الأستاذ جلال الدين الحمامصى « الصحيفة المثالية » و« من الخبر إلى التحقيق الصحفى » بدائل « الكتب المقررة » لدراسة الصحافة فى الكلية ، كان كتاب الأستاذ هيكل هو مرشدى الأمين لكيفية إجراء حوار صحفى ، وكانت القاعدة الذهبية التى خرجت بها منه تقول : ينبغى أن يكون الصحفى على دراية تامة بموضوع حواره ، ينبغى أن يكون قريبًا من ثقافة مصدره واطِّلاعه ، ينبغى أن يكون ندًّا لا سمِّيعًا .

وقد سعيت – قدر الجهد والطاقة – أن أحقق هذه القاعدة وآمل أن أكون قد فلحت .

فكرت أخيرًا أن أتحدث – بقدر لا بأس به من النرجسية – عن الحفاوة التى قابلنى بها نجيب محفوظ حين قابلته لأول مرة على سلالم الأهرام ، وعرضت عليه أن

أجرى معه حوارًا فوافق على الفور ، وأعطانى موعدًا فى الثامنة والنصف من صباح اليوم التالى ، وودعنى وهو يعدد لى حواراتى التى أجريتها مع فلان وفلان وفلان ، ويؤكد ببشاشته الحانية أنه متأكد أن حوارنا سيكون على المستوى نفسه . أو فرحة لويس عوض حين هاتفته أطلب تحديد موعد لنجرى حوارًا ، ورجاءه الدمث أن تتضمن أسئلتى بعضًا مما سألت فيه فلانًا وفلانًا؛ لأن لديه ردودًا على بعض ما قالوه. أو مكالمة لا تنسى من العملاق يوسف إدريس يثنى فيها على ما أكتبه ، ويدعونى للقائه لنتحاور فى الموضوعات التى أراها .

وسأخفى فى هذه الحالة بطبيعة الحال خيبات كثيرة وإحباطات جاثمة واجهتها، ومازلت أواجهها حتى اليوم .

فكرت فى هذه الإغواءات جميعها ، لكننى بقدر معتبر من الرشادة وبإلهام ساطع قاطع ، لم أجد وسيلة لتقديم الكتاب أفضل من « الفذلكة » .. والفذلكة لغة تعنى : مجمل ما فصِّل وخلاصته .. إذًا « لنتفذلك » والله المستعان ..

* * *

فيما يمكن اعتباره مفتتحًا لفذلكات تالية ، أريد أن أقول إننى حاولت أن تكون هذه الحوارات فكرية لا صحفية كى أمنحها عمرًا أطول ، صحيح أن كثيرًا مما ستقرأ وثيق الصلة بما نحياه ، ولكنه لا يتوقف عنده بوصفه عَرَضًا أو مرضًا .

أزعم أننى سعيت حثيثًا أن أعمّق الآنى مستفيدًا من معرفتى بمن أتحاور معهم فهم أساتذتى وشيوخى ، وأشرف أن يكون موقعى منهم موقع التلميذ والمريد ، وبعضهم أصدقائى حتى مع فارق السن والخبرة .

بعض هذه الحوارات بينها قواسم مشتركة ، فقد كان حوارى مع الدكتور قاسم عبده قاسم أستاذ تاريخ العصور الوسطى المرموق هو أول ما تبادر إلى ذهنى ، حين دوت فى الآفاق تصريحات بابا الفاتيكان الجديد ضد رسولنا الكريم .

لم يكن الهدف أن أطلب منه ردًّا على بذاءات « بندكت » ، وإنما أن أفهم دواعيها وأسبابها ، فقد كان لدى شعور أنها سياسية فى الأساس ، وأن ثمة مقايضة بين الفاتيكان وأمريكا ، وهذا ما أكده لى الدكتور قاسم ، وإن أضاف إليه كلامًا علميًّا وتاريخيًّا عن تراث الكنيسة الكاثوليكية القائم على التعصب والعنصرية ، ليس ضد المسلمين فحسب، وإنما ضد مخالفيها من أبناء المذاهب الأخرى ، فقد اعتبرت أن من ليسوا على مذهبها من المسيحيين فى أى مكان فى العالم «هراطقة» .. هكذا نظروا إلى الكنيسة اليونانية الشرقية والكنيسة المصرية ، وأشار الدكتور قاسم فى هذا السياق إلى ملاحظة لافتة ، هى أن أبناء هذه الكنيسة عزلوا البابا الأرثوذكسى أثناء الحروب الصليبية ووضعوا مكانه بابا لاتينى ، واستولوا على الكنائس الأرثوذكسية ، وأقاموا مكانها كنائس كاثوليكية ، وأثناء الاحتلال الفرنسى القصير لمصر ، ثم الاحتلال الإنجليزى الأطول مارست ضغوطًا تبشيرية كبيرة ضد أقباط مصر .

هذا المعنى أيضًا أكده خبير الشئون القبطية والغربية سمير مرقص ، الذى قال إن أقباط مصر يتعرضون لهجمة تبشيرية غير مسبوقة تدعمها أموال ضخمة ، وطالب مسلمى مصر وأقباطها بمواجهة مخطط الغرب التفكيكى ، وعدم الوقوع فى فخ تديين الصراعات ، وكشف مرقص الدوافع السياسية خلف تصريحات البابا الجديد ، الذى شارك فى قوات النازى ودهس معارضى الكنيسة الكاثوليكية فى أمريكا اللاتينية من أعضاء جماعة لاهوت التحرير ، وعقد لأعضائها محاكمات لا تقل قسوة وشراسة عن محاكم التفتيش ، واعتبر أن جلوسه على عرش البابوية فى وقت يهيمن فيه بوش - الذى يتصور أنه مكلف من قبل الرب بتنفيذ مشيئته - على عرش العالم ، ليس مجرد مصادفة سعيدة .

ثمة ميزة إضافية ألفت نظرك إليها هى تحليل سمير مرقص للخريطة الداخلية للفاتيكان ، التى هى فى النهاية - بحسب قوله - مؤسسة غربية تخضع للمعايير والآليات ، التى تحكم عمل المؤسسات الغربية ، وكذلك رؤيته للعلاقة التى

يحكمها توافق المصالح بين الفاتيكان والولايات المتحدة الأمريكية ؛ خصوصًا مع بابا له تاريخ طويل من العنف والصلف .

وكان الحوار الثالث فى هذه السلسلة هو أكثرها إثارة للجدل ...

والحقيقة أن حوارى مع الدكتور محمد سليم العوا تجاوز بسرعة تصريحات «بندكت» إلى قضايا أخرى عامة ، ذات صلة بضعف الأداء الحكومى وترهل الأداء السياسى والحزبى ، وغياب الديمقراطية والدعوة إلى عصيان مدنى شامل ، ردًا على تجاهل الحكومة لمطالب الناس .

هذا كله لم يثر مشكلة ، ما أثار المشكلة هو ما قاله العوا عن تخاذل الكنيسة البروتستنتية الإنجيلية والكاثوليكية فى مواجهة هذه الافتراءات ، وكانت الجملة التى أغضبت أبناء الكنيستين وأثارت ردودًا عنيفة ضده فى الصحف والمنتديات الإلكترونية هى: « حين تأتى المحنة ولا نراهم قد وقفوا معنا ، فهذا يثير علامة استفهام كبرى ، والذى يريد أن يبقى فى هذا الوطن ، فلابد أن يبقى الجزء منه مع سائر أجزائه » .

بعض من ردوا على العوا قالوا له : « لن نرحل » ، آخرون ذكروه بما كتبوا فور نشر تصريحات البابا ، واختار فريق ثالث أن يلقى بالتبعة على الصحفى ، الذى قد يكون حرّف ما قاله أو فهمه على غير مقصده !

* * *

حوارى مع الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة السابق له قصة طريفة لا بأس من ذكرها ...

عقب نشر الحوار فى عدد الوفد الأسبوعى (الخميس 8 فبراير 2007) اتصل بى الدكتور جابر فى الثامنة والنصف صباحًا ، طلبت منه أن يمهلنى دقيقة ؛ كى أفرك

عينى المثقلة بالنعاس ، وذهنى الذى طاردته كوابيس ليلية غاشمة لأسباب غير مفهومة .

كنت فى الحقيقة أمنح نفسى فرصة للتفكير فى السبب ، الذى دعا الدكتور جابر لأن يتصل بى فى هذا الوقت المبكر .. قال لى الدكتور جابر عصفور إن الأستاذ محمد حسنين هيكل أيقظه فى الساعة السابعة صباحًا معاتبًا : كيف وأنت ناقد وأستاذ جامعى كبير تخطئ فى الشعر وتشوه ما قاله حافظ إبراهيم ، كان الدكتور جابر عصفور قد استشهد فى سياق كلامه عن شيوع الفساد وغياب الشفافية وضعف الأحزاب ، وتأثير ذلك على الاستقرار ببيت شعر من « عمرية حافظ إبراهيم » ، وهى قصيدة طويلة كتبها عن الفاروق عمر بن الخطاب ، يقول فى بيت الشعر :

أمنت لما أقمت العدل بينهم   فنمت نومًا قرير العين هانيها

ونشر هكذا :

أمنت لما أقمت العدل بينهم   فنمت نومًا قرير العين «هانيًا»

طبعًا لم يكن الخطأ خطأ الدكتور جابر ، لكن خطئى أنا .

نشرت تصويبًا فى اليوم التالى ، لكن بقى فى ذهنى المغزى : ها هو الأستاذ هيكل وقد جاوز الثمانين ، وحقق أقصى ما يتمناه أى صحفى فى العالم ، ما زال يقرأ ويفحص ويتابع ، ويستفزه خطأ فى بيت شعر فلا يهدأ قبل تصويبه .

* * *

القذائف التى أطلقها الدكتور جلال أمين فى حواره كنت أتوقعها ، وأنا فى الحقيقة من معجبيه ، قرأت معظم كتبه ، خصوصًا التى ذات الصلة بالشأن العام ، وهو يمتاز بأسلوب سلس وبحس فكاهى ساحر وصدق يلامس قلبك مباشرة .

ذهبت إليه مسلحًا بقراءتى لكتبه الأخيرة : خرافة التقدم والتأخر ، التنوير الزائف ، عولمة القهر ، عصر الجماهير الغفيرة ، وصف مصر فى نهاية القرن العشرين، كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية .

كنت أريد أن أستوضح منه ما غمض علىَّ فى هذه الكتب ، وكنت أريد ثانيًا أن أعرض على القارئ من خلاله أفكارًا أراها باهرة ، وهو نفس ما أدعوك إليه الآن ، حاول أن تشتبك مع الأفكار التى يطرحها جلال أمين فى حواره ، لا تسلم بصحتها قبل أن تختبرها وتفكر فيها جيدًا ، أعد من جديد طرح أسئلته : هل «هم» متقدمون فعلاً و«نحن» متخلفون ؟ هل ثمة معايير مختلفة للتقدم والتأخر عن تلك التى تكبلنا بها المؤسسات الدولية؟ هل التكنولوجيا أهم لحياتنا أم روابطنا الاجتماعية ؟ هل العولمة قدر لا فكاك منه ؟ هل الاندماج فى السوق العالمى شر مطلق ؟ ما طبيعة العصر الذى نعيشه ، هل هو فعلاً عصر الانتصار الساحق للرأسمالية أم أنه عصر الجماهير الغفيرة ؟ هل يمكن أن نستبدل – فى ظروف بلد مثل مصر – بمعيار ارتفاع مستوى الدخول معيارًا آخر لقياس التنمية كانخفاض معدلات البطالة مثلاً ؟ هل التخطيط بالضرورة ضد الاستثمار والسوق المفتوح ؟

هذه كلها أفكار يطرحها جلال أمين ، أو هى بالأدق استفسارات يجيب عنها بحسم ، وهو الحسم ذاته الذى دفعه إلى القول بأن لدينا سلطة قادرة على تخريب أعظم بلد فى الدنيا .

بالدرجة ذاتها من الوضوح والحسم يتحدث نبيل عبد الفتاح عن انهيار الدولة المصرية ، وهى الفكرة التى يلح عليها منذ سنوات فى كثير مما يكتب .. لا أريد أن أدخل فى تفاصيل حوار ستقرأه بعد لحظات ، وإنما فقط أدعوك إلى القراءة الفاحصة للتحليل السياسى الاجتماعى القانونى ، الذى يقدمه نبيل عبد الفتاح لعديد من الظواهر ، سيقول لك نبيل هنا إن الطبيعة التسلطية للنظام صفَّت منابع الحيوية لدى

المصريين ، وكوَّنت ثقافة ذكورية على المستويين الديني والسياسي ، تحجب جزءًا من طاقات مصر الأساسية ، غابت المبادرة وسادت حالة من الخصاء الممنهج للشخصية المصرية .

سيقول لك أيضًا إن النخبة المصرية الآن تتشكل من العناصر الأضعف من حيث الخبرة والكفاءة ، وحتى من تسربوا إليها ممن لديهم كفاءات ، جاءوا من باب السمع والطاعة والولاء المطلق .

سيقول لك إن التداخل بين الدينى والسياسى صار مروعًا ، وأن الدولة محرك رئيسى لهذا التداخل..

سيقول لك إن الكيان المصرى صار مثل السلعوة ، كيان هجين مجهول الهوية .

سيقول لك إن النسيج المصرى يتفكك ، وإن هناك صحوة لسياسة الأعراق وتفجير للخلافات ذات الطبيعة المذهبية والدينية .

سيقول لك إن القول بثبات المجتمع المصرى واستقراره رغم كل هذا الانهيار ، هو نوع من خداع النفس ، فالفوضى تدب فى كل اتجاه .. أما الدكتور « أنور عبد الملك » فينقلنا إلى فضاءات أخرى ...

ذهبت إليه أسأله عما تبقى من « ريح الشرق » ، فكرته التى طرحها فى كتاب حمل هذا العنوان قبل ربع قرن تقريبًا ، فإذا به يقول إننا أحوج إلى ريح الشرق اليوم أكثر من أى وقت آخر .

لكن هذا ليس كل شىء ، سيتحدث المفكر الكبير عن أوهام الدولة الدينية وخطايا كامب ديفيد ، والآثام التى ارتكبتها النخبة من الحكومة والمعارضة فى حق البلد .

* * *

فى شؤون الصحافة لديك خياران « إجباريان » ، فلا أظن أنك يمكن أن تستبدل سلامة أحمد سلامة بجهاد الخازن أو العكس .. أما الأول فعلاقتى به بدأت منذ عشر سنوات تقريبًا ، حين دعانى لمقابلته فى «الأهرام» ؛ ليعرض علىَّ الانضمام إلى مجلس تحرير مجلة « الكتب .. وجهات نظر » ، ولم أعرف حتى الآن إن كان هو صاحب الاختيار أم أن واحدًا ممن يحسنون الظن بى أرشده إلىَّ .

حين جلست معه تكلمنا فى مسائل عديدة ، ولاحظت أن الكاتب الكبير مازالت لديه بقايا من لكنة فلاحية ، تظهر فى بعض تعبيراته برغم أنه يقرأ بثلاث لغات على الأقل ، لاحظت أيضًا أن وجهه ذا التقاسيم الجادة الصارمة يخفى طيبة لافتة ؛ خصوصًا حين يضحك أو يعلق ساخرًا على موضوع ما .

لاحظت أخيرًا بسعادة لم أستطع أن أخفيها أنه يقرأ ما أكتب ويناقشنى فى بعضه، وحين بدأت العمل فى «وجهات نظر» توثقت علاقتنا وتأكدت محبتى له كاتبًا، وإنسانًا وهى مسألة نادرة ؛ إذ كثيرًا ما تتكسر صورة من نحب حين نلقاهم ونتمنى لو بقيت محبتنا لهم على البعد ، ولم تتجاوز معرفتنا بهم ما يصلنا منهم من إبداع ، لكن ذلك لم يحدث مع سلامة أحمد سلامة الذى يكتب معارضًا أكبر رأس فى البلد بذوق وثقة واحتراف ، ودون كلمة عيب واحدة .

الملمح الأهم فى شخصية سلامة أنه كاتب ليبرالى حتى النخاع ، ليبرالية «صناعة محلية» ؛ إذ يبدو أن جذوره الفلاحية منحته قدرًا كبيرًا من الاعتداد بالذات ونبذ منطق القطيع .. مواقفه واختياراته مستقلة بعكس بعض الليبراليين الجدد ، الذين يتصورون أن مغازلة أمريكا والثناء على أنظمة الحكم التى تدور فى فلكها شرط ضرورى لاعتماد أفكارهم المعولمة ورؤاهم المنفتحة على السوق .

أما جهاد الخازن ، فصحفى بارع لاذع « حَويط » ، لديه ارتباطات وحسابات ، ولديه أيضًا منطق ودأب وعناية كبيرة بما يكتب ، حتى أن مقاله اليومى يستأهل أحيانًا أسبوعًا لقراءته .

قبل اللقاء الذى ستطالعه هنا مع الأستاذ جهاد الخازن ، جمعنى به عشاء فى فندق الكونتننتال فى جدة ، أقامه المدير الإقليمى لجريدة الحياة اللندنية ، التى كنت أعمل فى مكتبها .. هناك محرر ديسك فى الفترة من 1991 حتى 1994 ، وكان هو وقتها رئيسًا للتحرير .

تصورت أننى سأرى رئيسًا للتحرير يشبه محمود المليجى فى فيلم « يوم من عمرى » ، رجل عصبى المزاج ، منكووش ، مرووش ، لا وقت عنده حتى لرد تحية الصباح ، وكلما جاءته ورقة من محرر دفع بها بسرعة إلى المطبعة !

لكننى وجدت شخصًا نحيفًا هادئًا ، ويا للغرابة .. شديد الخجل !

بعد اللقاء الأول بنحو خمسة عشر عامًا ذهبت لمقابلته فى مكتب « الحياة » بالقاهرة ، وبدا لى أنه مازال على حاله ، وهو أمر أيضًا غريب !

* * *

حوارى مع الأستاذ السيد ياسين والأديب جمال الغيطانى ، كانت لهما مناسبة خاصة ، فقد حصل الأول على جائزة مبارك فى العلوم الاجتماعية ، وحصل الثانى على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام 2007 .

لهذا السبب هناك تركيز على السيرة الذاتية لكليهما بهدف الكشف عن أسباب النبوغ والاستحقاق ، وللتدليل على أن الفشل فى مرحلة ما من مراحل حياة الإنسان ليس نهاية المطاف ، يمكنه أن يحاول من جديد ، يمكنه أن يعلو فوق إحباطاته وآلامه وعثراته ، ويصنع منها أسبابًا للنجاح . السيد ياسين مثلاً رسب عامين فى الثانوية العامة ، وحين حصل عليها فى السنة الثالثة كان مجموعه يؤهله فقط لدراسة الحقوق، خيّب أمل أبيه ، لكنه صنع مجدًا يستحقه .

أما جمال الغيطانى فابن لساعٍ بسيط فى مصلحة حكومية ، قروى جاء من الصعيد يبحث له عن موطأ قدم فى مدينة شاسعة عاصفة ، تسكن الأسرة فى غرفة

ضيقة فوق سطوح مسكن عتيق بحى الجمالية ، تنفر من الضيوف ولا تتمناهم ، ليس لأنهم بخلاء أو شرسو الطباع ، بل لأنه لا يوجد مكان للضيوف فى حجرة تضم زوجًا وزوجة وعددًا وافرًا من الأبناء .

من هذه الحجرة سيخرج أديب يشار له بالبنان .

تجربة السيد ياسين كما ستتبين من الحوار بالغة الثراء، فما بالك بواحد يقول لك: فى السادسة عشرة من عمرى كنت قد مسحت الفكر المصرى المعاصر كله ، وبدأت دراسات عميقة فى الفلسفة وعلم النفس ، ثم ترجمت عدة دواوين من الشعر الإنجليزى .

وحين وصل إلى المرحلة الثانوية ، تم تجنيده فى شعبة العطارين بجماعة من الإخوان المسلمين ، وبعد شهور أمضاها فى مدرستهم لإعداد الدعاة وقف يخطب الجمعة فى أحد مساجدهم الكبرى .. غادر السيد ياسين الجماعة بعد ذلك لأسباب ستجدها فى الحوار ، وانهمك فى قراءة ماركس ، كان يبحث عن حلول لمشاكل الظلم الاجتماعى ، بعدها عمل لسنوات باحثًا فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ثم يؤسس مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية ؛ قضية حياته كما قال لى هى العدل الاجتماعى ، الذى من دونه لن تتحقق الديمقراطية ، ولن تفلح التعددية ولن تثمر التعديلات الدستورية .

* * *

لقائى مع وزير ثقافة سوريا « رياض نعسان أغا » فى القاهرة جاء بعد رحلة عمل قمت بها إلى بيروت استغرقت عشرة أيام (ديسمبر 2006) .. كان قد مضى على اعتصام المعارضة اللبنانية فى ساحة رياض الصلح شهر تقريبًا ، وقدّر لى خلال الرحلة أن ألتقى أطياف الفسيفساء اللبنانية جميعها ، فى الحكومة والمعارضة ، وأن أفهم عن قرب بعض ما يجرى فى مجتمع شديد التعقيد والتنوع ! (قال لى الكاتب

الراحل جوزيف سماحة : فى لبنان أنت بحاجة لأن تخترع كل يوم شكلاً للدولـة) .. المهم أننى سمعت كثيرًا عن الوجود السورى فى لبنان ، بعضهم يدينه ويعتبره سـبب ما حل بالبلد من كوارث وأهوال .. آخرون لا يتصورون انسحاب سوريا من الشأن اللبنانى ، فعلاقة لبنان بسوريا أشبه بالزواج الكاثوليكى لا تنفصم عراه إلا بالموت .

لهذا السبب كان لقائى بالوزير السورى سياسـيًّا بامتيـاز ، خـصوصًا أنـه كـان مستشارًا سياسيًّا للأسد الأب ، وعمل سفيرًا لبلاده فى عـدة عواصـم .. تطرقنـا إلى مسألة المحكمة الدولية المقرر عقدها لمعاقبة قتلة رئـيس وزراء لبنـان الـسابق رفيـق الحريرى ، وهى المحكمة التى تلح أمريكا فى عقدها كى تجعل منها مناسـبة لمحاكمـة النظام السورى ، وترفضها سوريا بطبيعة الحال لشكها فى حيادها .

وبشكل واضح اتهم وزير الثقافة السورى الموساد الإسرائيلى بقتـل الحريـرى ، ونفى عن سوريا سعيها لزعزعة الاسـتقرار فى لبنـان وتـشجيع الخلافـات المذهبيـة والطائفية على طريقة « فرق تسد » ، وردد قول أبى فراس الحمدانى :

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم وفى الليلة الظلمـاء يفتقـد البـدر

وحين أتيح لى بعد ذلك أن أزور حلب فى إطار الاحتفال بهـا عاصـمة للثقافـة الإسلامية ، التقيت الوزير السورى واكتشفت تحت جلباب السياسى شاعرًا ومثقفًا كبيرًا ، ومطربًا يحفظ كل أغانى عبد الوهاب وعدد كبير من أغنيات أم كلثوم وعبـد الحليم حافظ ، وبالمناسبة ، فابنه « مجد » درس الموسيقى العربية فى مصر ، وهـو الآن قائد الأوركسترا الشرقى فى سوريا .

فى ختام الحوار سألت الوزير السورى عن احتمالات حرب مقبلة بـين العـرب وإسرائيل ، فقـال إن التجربـة علمـت إسرائيـل أنهـا لا تـستطيع أن تحقـق أهـدافها بالحرب .

قبله بأسبوع سألت الدكتور « وحيد عبد المجيد » السؤال نفسه ، فقال إن المنطقة على أبواب حرب مدمرة ربما يكون قد فات أوان منعها ، وحدد صيف 2007 موعدًا لاندلاع هذه الحرب .

والحقيقة أن ما قاله الدكتور وحيد كان الأقرب للحدوث بتداعيات الأحداث ودخول أطراف إقليمية ودولية حلبة الصراع على منطقة الشرق الأوسط : إيران ، أمريكا ، بريطانيا ، فرنسا . لكن – نحمد الله – تدخلت عوامل جديدة لنزع فتيل الحرب .

ويبقى كثير مما قاله وحيد عبد المجيد فى الحوار يستحق التأمل : مشروع الهيمنة الأمريكية ، ومشروع المقاومة العربية الإسلامية انتحاريان وصدامهما حتمى ، القوى العربية المعتدلة فشلت فى أن تقدم مشروعًا بديلاً للمشروعين المتنازعين ، وغرقت فى أوهامها ، مصر وسيط يفتقد الثقة بين الأطراف المتنازعة .

* * *

حوارى مع محمود أباظة ليس اختيارًا تعسفيًّا ولا مجاملة ، بوصفه رئيس حزب الوفد الذى أعمل فى جريدته ، فللحوار مناسبة ...

كانت المناسبة هى ملف أشرفت عليه فى الجريدة بمناسبة 40 عامًا على هزيمة يونية 1967 ، وكان لدى أباظة ما يقوله ، فقد كان فى هذا الوقت طالبًا فى كلية الحقوق ، وكما قال فإن النكسة تركت آثارًا غائرة على جيله كله ، وبالنسبة له فقد أخرجته الهزيمة من دنيا الشعر والخيال إلى عالم السياسة ، فقد كان يعد نفسه لوراثة عمه الشاعر « عزيز أباظة » ، فإذا بالهزيمة تلقى به فى أتون السياسة وأمواج بحورها المتلاطمة .

وهكذا جاوزنا هزيمة يونيو إلى أوضاعنا الحالية التى نرجو صلاحها .. وبمناسبة الإصلاح ، فقد كان هذا هو محور حوارى مع الدكتور إسماعيل سراج

الدين مدير مكتبة الإسكندرية ، وقد حاولت أن أستفيد من تنوع اهتماماته وتجاربه ليطرح صيغًا للإصلاح يمكن أن تفيد .

* * *

من ذروة الحداثة إلى طين الأرض ...

هنا حواران مع « أدونيس » شاعر الحداثة الأول أو شيطانها الأكبر كما يسميه البعض ، وحوار آخر مع شاعر الناس الغلابة « عبد الرحمن الأبنودى » .

فى حواره يحمل أدونيس على الأنظمة العربية وسياساتها ومثقفيها ، ويصحح مفاهيم حول عدائه للدين والتراث الصوفى شعره ونثره ، مؤكدًا أنه وكثيرين غيره من شعراء الحداثة استفادوا من هذا التراث .

« الأبنودى » سيتناول موضوعات أخرى مهمة وحيوية لكنها قريبة الشبه بنا ، سيتحدث عن علاقته بثورة يوليو ومثقفيها ومؤسساتها ، وسيبدى آراء موجعة فى النظام والثقافة والمثقفين ، لكننى لا أريد أن «أحرق» متعة القراءة بكثير من التفاصيل ، أريد فقط – بعد الدعاء للأبنودى بتمام الصحة والشفاء – أن أحكى واقعة جرت قبل 6 أعوام تقريبًا .

ذات صباح من ربيع 2002 ، فوجئت باتصال هاتفى من الأبنودى يقول لى بلهجته المحببة : إزَّيك يا دودو – هكذا يحب أن ينادينى – ثم يشخط فىَّ : هو انت حتفضل كده زيط ومعيط عمّالين يطلعوا كتب وانت واقف تتفرج ؟

طيب أعمل إيه يا خال ؟

بكره الصبح تجيب مقالاتك وتقابلنى فى مكتب سمير سرحان فى هيئة الكتاب.

بكره ما ينفعش .

طيب بعد بكره تقابلنى الساعة واحدة .

ذهبت فى الموعد المحدد أقدم رجلاً وأؤخر رجلاً ، فكثيرًا ما انتقدت سمير سرحان ، ولم يسبق لنا أن التقينا فى أى مناسبة .

بعد لحظات من جلوسى ، أخذ الأبنودى ملف المقالات منى ، وقلّبه بين يديه بسرعة واختار من عناوين المقالات ما جعله عنوانًا لها جميعًا ، أعطى الملف لسمير سرحان وهو يقول : عماد بيكتب أحسن من كل اللى انت بتنشر لهم ، خد .

ابتسم سمير سرحان وأخذ الملف ، وفى الصيف كان كتابى ضمن إصدارات مكتبة الأسرة تحت عنوان «نهاية المطاف» .

* * *

وبعد عزيزى القارئ ....

هل نجحت هذه الفذلكات فى إقناعك بقراءة الحوارات ؟

أتمنى ..

عماد الغزالى

* * *

حوارات

السيد ياسين

العدالة الاجتماعية هى قضية حياتى ومازلت أجاهد فيها

كيف أمكن لمحطات الفشل أن تتحول إلى منصات لإطلاق قاذفات النجاح فى عدة مسارات؟ .. كيف استطاع طالب الثانوية العامة الذى رسب عامين متتاليين قبل أن يحصل على الشهادة بمجموع 52٪ .. أن يصبح واحدًا من كبار المفكرين والباحثين فى الاجتماع والسياسة .. وأن يحصل على جائزة مبارك أخيرًا فى تقدير مستحق ..

هذه هى الخلاصة التى تقدمها لنا المسيرة الفكرية والإنسانية للأستاذ / السيد ياسين .. مستشار مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام .. والمحلل السياسى المرموق .

عدة مفاجآت بانتظارك فى هذا الحوار .. منها أن المفكر الليبرالى ذا النزعة الإنسانية .. الذى انشغل كثيرًا وطويلاً بفكرة العدالة الاجتماعية والفروق بين الطبقات .. كان عضوًا بارزًا فى فرع الإخوان المسلمين بالإسكندرية «شعبة العطارين ومحرم بك» .. واعتبر كادرًا مبشرًا ضمن مجموعته ؛ ولذا عهد إليه بإلقاء خطب الجمعة فى بعض مساجد الإسكندرية قبل أن يتجاوز عمره العشرين عامًا !
منها أيضًا أنه دخل كلية الحقوق مصادفة .. بعد أن فشل لعامين متتاليين فى اجتياز

امتحانات الشهادة الثانوية ، وقد خيّب بالتحاقه بالحقوق أمل والده الذى تمنى أن يلتحق ابنه بكلية العلوم ، أو أن يصير طبيبًا نابهًا .

منها أيضًا أنه كان مغرما بالشعر والأدب أكثر من أى شىء آخر .. وكان مقدرًا له أن يصير أديبًا وشاعرًا لولا أن جذبته الدراسات النفسية والاجتماعية فى وقت مبكر .

ليس هذا حوارًا بالمعنى التقليدى .. يمكن اعتباره استعراضًا لمسيرة حياة حافلة وجادة ومختلفة فى آن معًا .. عنوانها الرئيسى هو : كيف يصبح الفشل باعثًا وسببًا رئيسيًّا للنجاح ؟ هنا محاولة للإجابة عن هذا السؤال :

عن البدايات يقول السيد ياسين :

« أنا من أسرة عسكرية وولدت فى موقع حربى، كان والدى أركان حرب قسم سواحل الأساس فى المكس بالإسكندرية، وهذا القسم كان مختصًّا بتدريب الضباط والجنود الجدد، وكان بيتنا داخل المعسكر الذى كان يشبه قلعة قديمة، وقد ولدت وعشت بداخل هذا المعسكر لمدة 15 سنة، واعتدت يوميًّا أن أرى والدى يمتطى صهوة حصانه ويقود الطابور العسكرى على أنغام موسيقى المارش، ولهذا فإن الموسيقى العسكرية تجرى فى دمى ...

أنا من أسرة كبيرة العدد، 8 إخوة بين أولاد وبنات، مررنا بما يشبه الدراما العائلية 1943 ، حين اختلف والدى مع قائد المعسكر، واتهمه بالفساد، وكان هذا القائد صديقًا لمدير مصلحة السواحل فأمر بمحاكمة عسكرية لوالدى، وبمقتضاها عزل من رتبته وصدر أمر بنقله إلى سواحل دمياط وانتقلنا معه إلى عزبة البرج .. هذه الدراما العائلية أثرت فىَّ حتي اليوم، والدرس الذى استخلصته منها هو أهمية الحفاظ على الكرامة والكبرياء والنقد الشجاع فى مواجهة الأخطاء ، مهما كان الثمن..

بعد دمياط التى مكثنا فيها حوالى ثلاث سنوات انتقلنا إلى بورسعيد ، ثم عدنا إلى الإسكندرية مرة أخرى، وبين إخوتى ، فإن الأخ الثانى فى الترتيب «فؤاد» هو الذى سلك مسلك الوالد العسكرى، وتدرج فى المناصب حتى صار مساعدًا لقائد حرس الحدود، والغريب أن يحدث له ما حدث لأبى، فقد تخرج بعد ثورة يوليو 1952، ولأمر ما اختلف مع قائد السلاح، وكان وقتها تتم تصفية الجيش من العناصر المشاغبة ، فاعتبروه كذلك ، وصدر قرار بفصله من القوات المسلحة دون أن يحصل على معاش أو مكافأة، وقد كان محظوظًا لأن أستاذه فى الكلية الحربية كان اللواء حمدى عاشور الذى صار محافظًا فيما بعد وهو من الضباط الأحرار، فذهب إليه مع زملائه الذين فصلوا تعسفيًا، وباستثناء نادر أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارًا بعودتهم إلى الخدمة بعد ستة أشهر » .

*** النشأة بالإسكندرية وهى مدينة كوزموبوليتانية(*) بامتياز ومفتوحة على العالم كله، أتصور أنها تمنح من ينشأ بها طابعًا مميزًا وسمات من شخصيتها تلك .**

« الحقيقة نحن كنا فى قرية المكس وهى قرية صيادين منعزلة، وكنا أكثر انعزالاً لأننا كنا داخل معسكر حرس الحدود، وقد حكمت علىَّ هذه النشأة بالعزلة ؛ لأننى كنت محبًّا للقراءة، وقد ساعدتنى هذه العزلة كثيرًا فى تنمية هذه الهواية، التى كانت أصيلة بدرجة ما فى عائلتنا، فقد كان الأخ الأكبر «رشاد» عبقريًا فى اللغة الإنجليزية، وكان يكتب الشعر بالإنجليزية ، ويترأس جمعية الأدب الإنجليزى فى مدرسته الثانوية، وكان أخى «فؤاد» قارئًا ممتازًا ومثقفًا كبيرًا، ومتابعًا دقيقًا للأحداث، أبى كان مهتمًا بالسياسة العالمية، وكثيرًا ما كان يطلب منى أن أقرأ له موضوعات سياسية فى الصحف، وكانت الحرب العالمية الثانية آنذاك مازالت مستمرة، فدخلت مبكرًا، فى سن العاشرة أو الحادية عشرة إلى عالم السياسة، وأذكر حتى الآن سجالاً جرى بينى وبينه حول حزب العمال وحزب المحافظين فى بريطانيا، وقد قلت لأبى وأنا

(*) كوزموبوليتانية : عالمية .

أقرأ كلامًا عن هذا الحزب «العمال»، أنه حزب فقير بها أنه حزب للعمال، فبدأ يشرح لى الفرق بين الحزبين، وجرى ذلك فى موضوعات سياسية كثيرة فى ذلك الوقت، ما منحنى رؤية أعمق فى القضايا السياسية، ومازلت أذكر أننا كنا ندخل فى شجار عمن يقرأ الصحف قبل الآخرين ..

وقد ساعدنى كثيرًا فى مرحلة التكوين، الكتب التى حصلت عليها من مكتبة البلدية بالإسكندرية، اشتركت فيها وصرت أستعير منها كتبًا بانتظام، وجعلت لنفسى نوتة صغيرة أسجل فيها عناوين الكتب التى أريد قراءتها وأستعيرها وأجلس معها ساعات فى عزلتى المفضلة، ومن 1946 وحتى 1950 ، كنت تقريبًا «مسحت» الفكر المصرى المعاصر من طه حسين للعقاد لأحمد أمين وغيرهم، وفى هذا الوقت المبكر أيضًا قرأت موسوعة علم النفس التكاملى التى كان يصدرها أستاذى الدكتور يوسف مراد ، الذى تتلمذت على يديه فيها بعد حين جئت إلى القاهرة، وفى هذا الوقت أيضًا قرأت رسالة الماجستير التى أعدها الدكتور مصطفى سويف، وهى رسالة شهيرة كان عنوانها : «الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة»، وقد أثارت ضجة كبيرة بين النقاد والأدباء وقتها، وقرأت بعد ذلك رسالته للدكتوراه التى كان عنوانها : «الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى» ولم أفهمها وقتها ؛ لأنها كانت تتطلب دراسة علم النفس العام أولاً، وفى ذلك الوقت تشكل عندى حبٌّ شديد لعلم النفس والفلسفة والشعر الإنجليزى » .

*** أعرف أن لك اهتمامات قديمة بالشعر وأنك حاولت أن تكون شاعرًا ، لكن التجربة لم يكتب لها النجاح، كما أنك قرأت مبكرًا ت. س. إليوت .**

- اهتمامى بالشعر فى الحقيقة بدأ بالشعر الإنجليزى، كانت هناك مكتبة فى حى العطارين بالإسكندرية اسمها مكتبة : «إخوان الصفا وخلان الوفا»، صاحبها الحاج إبراهيم، وكان يجيد اللغة الإنجليزية، ومكتبته حافلة بالكتب الأجنبية ؛ لأن الإسكندرية كانت بها جالية أجنبية كبيرة، والأجانب يهوون البيع والشراء

فيما يتعلق بالكتب القديمة، وقد ساعدتنى مكتبة الحاج إبراهيم على تكوين مكتبة نادرة من دواوين الشعر الإنجليزى، كان لدى 40 ديوانًا أصليًّا لهؤلاء الشعراء، وفى هذه المرحلة ترجمت قصائد من الشعر الإنجليزى، فقد أعجبت بشاعر اسمه لورد «دينيسون» وكان شاعر الملك، وهو شاعر رومانسى رقيق أحببته جدًّا، وترجمت عدة قصائد له، وأذكر له قصيدة لطيفة كان عنوانها الفرقة العسكرية الحقيقية، أعجبتنى هذه القصيدة ولم أنسها، وبعد 30 سنة شاهدت فيلمًا يتضمن هذه القصيدة مغناة .

*** أعرف أن أحد الكتب التى أثارت انتباهك وأثرت فى تكوينك فى هذه المرحلة كان كتاب : «مغامرات فكرية» لهوايتهيد .**

– هذا الكتاب أعجبنى جدًّا وقتها، وهوايتهيد إنجليزى فى الأساس، لكن أمريكا كانت قد فقدت فيلسوفها الكبير جون ديوى فاستوردت هوايتهيد من إنجلترا، عاش فى أمريكا وصار من كبار فلاسفتها، وقد أثر فىَّ الكتاب من عنوانه، وفى هذه المرحلة أيضًا تأثرت بكتاب لفيلسوف ألمانى اسمه «إرنست كسلر» وكان عنوانه : «مقال عن الإنسان» ، وهو كتاب عبقرى ومبسط بدرجة كبيرة، فيه فصول منوعة من اللغة والأدب والسياسة، وقد قرأته بالإنجليزية وإن كان ترجم بعد ذلك بنحو عشرين عامًا، وتصادف أن هذا المؤلف الذى قرأته وأنا طالب فى كلية الحقوق، ظل محفورًا بذاكرتى حتى الآن، كان محور جدل رائع بينى وبين الدكتور زكى نجيب محمود، حين كنت أعمل بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ؛ إذ عقد المركز مؤتمرًا عن ابن خلدون، وكلفت أن أصطحب وفود الباحثين فى زيارة لمنطقة الأهرامات، وأثناء الجولة أتيح لى أن أتحدث إلى الدكتور زكى نجيب محمود وسألته : لماذا لا يقوم بترجمة كتاب «كسلر» العمدة «نظرية الأشكال الرمزية»؟

- فكان رده : ومن لديه الجرأة على أن يهجم على هذا الكتاب، فتأملت معنى الكلمة، كيف لهذا المفكر الكبير أن يكون على هذه الدرجة من التواضع والهيبة أمام نص فلسفي كبير، وحين تقارن هذا بالجرائم التى يرتكبها بعض المترجمين الآن ممن يشوهون النصوص بمنتهى الجرأة والصفاقة، تعرف إلى أى حد وصلنا.

*** كما قلت ، فإنك قرأت الفكر المصرى المعاصر كله، مَن مِن رواد الفكر المصرى كان الأكثر تأثيرًا وجاذبية بالنسبة لك؟**

- أنا أعجبت جدًّا بطه حسين، كان هو نموذجى المفضل، وأقول لك لماذا ؟ .. حين كنت فى الثانوية العامة كانت تعقد مسابقات فى اللغة العربية والعلوم وغيرها، والطالب الذى ينجح فى المسابقة يحصل على 20 درجة تضاف إلى المجموع، دخلت مسابقة اللغة العربية، وكان الامتحان التحريرى فيها يشتمل على ديوان حافظ إبراهيم كله، ومسرحية «مصرع كليوباترا» لأحمد شوقى، وكتاب طه حسين «مع المتنبى»، ومازلت أذكر إعجابى الشديد بشرح طه حسين لواحدة من قصائد المتنبى ، كان كمن يعزف سيمفونية ، عشقت طه حسين منذ هذه اللحظة..

المهم أننى نجحت فى الامتحان، وأرسلت لى وزارة التربية والتعليم تذكرة سفر للحضور إلى القاهرة للامتحان الشفهى، وكان جزءًا من الامتحان أن تكون حافظًا لقصيدة تقوم بتسميعها أمام اللجنة، وسألنى الممتحن عن القصيدة التى أريد أن أسمعها ؟ فقلت : قصيدة من مسرحية مصرع كليوباترا، فسألنى : ما رأيك فى هذه المسرحية؟ قلت له : إنها ليست مسرحية، إنها مجموعة من المونولوجات المتجاورة، ليس بها صراع درامى، فقال لى : لكنى رأيتها ولاحظت أنها ناجحة! فقلت له : أنت من النخبة، وحكم النخبة لا يصلح فى هذه الأمور، فقال : قم يا بنى ، بارك الله فيك..

ومن المهم هنا أن أذكر أن رئيس اللجنة كان الأستاذ أحمد خلف الله عميد آداب الإسكندرية، يعنى عميد الآداب يترأس لجنة لامتحانات شفهية يؤديها طلاب ثانوى !!

المهم أننى نجحت فى المسابقة ورسبت فى الثانوية العامة، فلم أستفد من العشرين درجة، وسبب رسوبى أننى لم أكن أهتم كثيرًا بمواد الدراسة، وهى فى معظمها مواد علمية لا أحبها، بينما كان الوالد مصرًّا على أن أدرس العلوم وألتحق بكلية الطب، وحتى تعرف حجم معاناتى، ينبغى أن تعرف أن أبى كان صورة من السيد أحمد عبد الجواد، بطل نجيب محفوظ فى الثلاثية، إذا دخل البيت ترتعد الفرائص، ولا يمكن أن نتبادل الضحكات فى وجوده، كانت له هيبة عظيمة .

*** والأم ؟**

- الأم لم تكن متعلمة، لكنها كانت بالغة الذكاء، هى صعيدية من إدفا ، مركز سوهاج، وكان مذهلاً أن تتكيف هذه الأم بسرعة مع الحياة الحضرية فى الإسكندرية، وكانت لديها قدرة مبهرة على أن تتعامل مع كل واحد من أبنائها، كل حسب شخصيته ..

وكنت أرى كيف يتعامل الأب مع أبنائه، ولكى أتجنب عقوباته، ادعيت أننى مصاب بحالة عصبية، وتمكنت بهذه الطريقة أن أفر من غضبه وعقابه ..

المهم أننى حصلت بعد عامين من الرسوب فى الثانوية العامة على الشهادة بمجموع 52٪ ولم أجد لى مكانًا إلا فى كلية الحقوق، وأعجبتنى دراستها فنجحت فيها بتقدير جيد طوال سنوات الدراسة .

*** قبل المرحلة الجامعية، كانت لك تجربة مهمة مع جماعة الإخوان المسلمين، أظن أنها تركت فيك تأثيرًا واضحًا .**

- أثناء المرحلة الثانوية، جندنى صديق من الإخوان المسلمين، وكنت ضمن شعبة محرم بك والعطارين، توسموا فىَّ خيرًا وألحقونى بمدرسة الدعاة لمدة سنتين ، فى

هذه المدرسة درسنا الفقه والقرآن والحديث ومذاهب اقتصادية، وعلموني الخطابة، وبعد سنتين تصبح خطيبًا معتمدًا، وتبدأ في الزوايا الصغيرة .

والإخوان المسلمون نجحوا في دعوتهم آنذاك بسبب الخطابة العصرية ، التي اعتمدوها مقارنة بالخطابة الأزهرية التي كانت سائدة، يرتدون لباسًا عصريًا وخطابهم مختلف عن المألوف، يتحدثون في قضايا الساعة، وكانت لديهم كوادر علمية على أعلى مستوى، معيدون في كليات العلوم والهندسة وغيرها، وكانت لديهم خريطة بمساجد الإسكندرية جميعها، ووفقًا لنظرية الاحتمالات، فإنهم يتوقعون أن 3٪ من خطباء الجمعة لن يحضروا للخطبة في مساجدهم، ويجهزون بدلاء لهؤلاء الخطباء، إنقاذًا للموقف، وكانت التعليمات الموجهة إلينا كخطباء، أن نتوضأ ونعد أنفسنا للصلاة، لكن لا نتوجه للصلاة إلا قبل الأذان بربع ساعة؛ لأنك قد تستدعي، وقد حدث معي ذلك مرة حين استدعوني لإلقاء الخطبة بمسجد الحامدية الشاذلية بمحرم بك ، وهو من أكبر مساجد المحافظة، وألقيت خطبة عن الاستعمار الفرنسي في الجزائر وحركة التحرير، ودعمت الخطاب بآيات قرآنية وأحاديث .

*** لكن قراءاتك المبكرة وأكثرها ينحو اتجاهًا نقديًّا، لم تكن تنبئ بإمكانية قبولك فكرًا قائمًا على السمع والطاعة .**

- مسألة السمع والطاعة لم تكن واردة آنذاك، فكر الإخوان في الخمسينيات كان يتمتع بمرونة شديدة، لم ندخل أبدًا في التفسيرات الخرافية والعبث، الذي سمعنا عنه بعد ذلك ..

والحقيقة أنني كنت آنذاك قد قرأت «العدالة الاجتماعية في الإسلام» لسيد قطب، و«من هنا نبدأ» لخالد محمد خالد، وأذكر أنني حضرت بنفسي محاضرة لسيد قطب في محرم بك وكان انطباعي عنها ممتازًا، وحين طلبت منه أن يحضر إلينا مرة أخرى قال : لا أنا ملتزم بالأوامر، كان سعيدًا بأنه ضمن نظام عام ملزم ..

والتأثير الحقيقي عليَّ كان لناظر مدرسة الدعاة ، واسمه الشيخ مصطفى، وكان كفيفًا ومدرسًا بالمعهد الأزهرى، أراد أن يقلد طه حسين فانتسب إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، صرت من قرائه وارتبطت به جدًّا، وكنت أقرأ له ما يدرسه فى كلية الآداب من سنة أولى حتى الليسانس ، ومن هنا عرفت ت. س. إليوت ؛ لأن الدكتور محمد مصطفى بدوى أستاذ اللغة الإنجليزية فى كلية الآداب، كان يدرس قصائد إليوت الأساسية فى قسم اللغة العربية : الرجال الجوق، أربعاء الرماد، الأرض الخراب، درستها مع الشيخ مصطفى، وترجمت «الرجال الجوق» قبل أن يترجمها لويس عوض بثلاثين عامًا، لكن لم أنشرها .

*** لم تجب عن السؤال : لماذا دخلت الإخوان المسلمين؟**

- أنا عشت قبل 1952 بوعى شديد، كنت متتبعًا لكل جرائد المعارضة والخلافات الفكرية التى كانت موجودة آنذاك، وشغلنى جدًّا الظلم الاجتماعى وفكرة العدالة الاجتماعية، والمجتمع فى ظل الملكية كان مجتمعًا طبقيًّا ظالمًا، الطبقة الوسطى محاصرة، والبؤس شديد فى أوساط العمال والفلاحين، ولا تنس فى هذا الوقت أنه خرج إلى النور «مشروع الحفاة» ؛ أى توفير أحذية لفئات عريضة من المصريين غير القادرين، وكان هذا دليلاً على البؤس الشديد ..

شغلنى موضوع العدل الاجتماعى بشدة، خصوصًا مع تأثرى بتشيكوف، الذى تكلم كثيرًا فى قصصه عن بؤس الفلاح الروسى، ووجدت تشابها بين بؤس الفلاح الروسى والفلاح المصرى، ودخلت الإخوان بحثًا عن مخرج لمعضلة العدل الاجتماعى، ربما تحت تأثير كتاب سيد قطب الذى كان يمثل رؤية يسارية للإسلام فى ذلك الوقت، خصوصًا مع تركيزه على أبى ذر الغفارى الذى كان مضطهدًا وسط الصحابة ..

ووجدتنى بعد فترة غير مقتنع بالفكرة التى يطرحها المفكرون والفقهاء الإسلاميون حلاً لمشكلة العدل الاجتماعى، والتى كانت تقوم أساسًا على الزكاة،

ولم أجد أنها يمكن أن تنهى المشكلة ، التى كنت أرى حلها الجذرى هو مسئولية الدولة، وقرأت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن ما يخرجه المسلمون للزكاة ، كان يتجمع فى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان بين ما يجمع التمر ، فأراد أحد أبنائه أن يأكل تمرة ، فنهاه الرسول، وقال له : هذا نتن الناس ؛ أى أن الناس يزكون بأسوأ ما لديهم .

كان سعيى هو محاولة لفهم سر الغنى والفقر فى المجتمع، ومن أين تأتى الفروق الطبقية ، لكن الخلاف الأكبر بينى وبين الإخوان كان بعد أن أنشأت ثورة يوليو هيئة التحرير، وطلب منى الإخوان أن أهاجم من فوق المنبر هيئة التحرير، لكننى رفضت، وقلت لهم : أنا ابن من أبناء الثورة ولن أهاجمها، وبعد سنة قدمت استقالتى، من يومها لم أدخل أى تنظيم سياسى ، وبقيت محافظًا على استقلاليتى بعيدًا عن كل التنظيمات ..

وأذكر أننى فى عام 1987 دعانى الأستاذ إبراهيم نافع ، رئيس تحرير الأهرام ، لحضور اجتماع مع ثلاثة من الإخوان ، الذين جاءوا للأهرام لشرح وجهة نظر الإخوان فى موضوع معين، وكان عصام العريان وعبد المنعم أبو الفتوح اثنين من الثلاثة، وحين بدأ تعارفنا قلت لهم إننى ربيت فى الإخوان المسلمين، فسألونى مباشرة عن الشعبة التى انتميت إليها ؟ فقلت لهم : شعبة محرم بك والعطارين، بعد ذلك دخل عصام العريان السجن، وحين خرج جاء ليقول لى إن فلانًا يبلغك السلام، واتضح لى أن فلانًا هذا كان هو رقم واحد فى شعبة محرم بك والعطارين، وكنت أنا رقم اثنين، والشاهد أن ذاكرة الجماعة وتنظيمها تحتفظ بكل الأسماء والأسرار .

*** لعلك مدين لهم أيضًا بفضل إخراجك من عزلتك التى فرضتها على نفسك للقراءة؟**

– هذا صحيح ؛ فقد كنت شخصًا خجولاً وانطوائيًا بدرجة كبيرة، وقد أعاد الإخوان صياغة شخصيتى وأخرجونى من حالة العزلة التى عشت فيها،

وجعلونى أتجرأ على أن أخطب الجمعة فى مسجد يضم ألف شخص، وأن أرتجل خطبًا دون تحضير ..

هذه القدرة على الارتجال أفادتنى حين صرت أستاذًا جامعيًّا بعد ذلك، وأصبحت أرتجل محاضرات باللغة الإنجليزية فى أرقى الجامعات الأمريكية .

*** وحين تألف الاتحاد الاشتراكى ، هل دعيت إليه؟**

- نعم، لكنى رفضت، وحين عدت من فرنسا عقب البعثة ، أرادوا أن يضمونى إلى التنظيم الطليعى لكننى أيضًا رفضت ؛ إذ لم يكن مفهومًا بالنسبة لى وجود تنظيم سرى للسلطة، ووجدت فى ذلك تناقضًا .

*** من الذى دعاك للتنظيم الطليعى ؟**

- أحد زملائى بالبعثة ممن كانت لهم صلة بشعراوى جمعة، وحين رفضت، قالوا لى إن شعراوى جمعة يريد رؤيتك، وكان وقتها نائب رئيس مجلس الوزراء، ووزير الداخلية، وأمين التنظيم، وهو برأيى من أفضل وأطيب من رأيت، وليس لديه أفكار تآمرية، كما هى حالة السياسيين المحترفين، المهم أنه طلب منى، باعتبارى متخصصًا فى القانون، أن أدرس تشريعًا يعدونه عن عمال التراحيل وأقدم فيه الرأى الفنى، وبالفعل درست المشروع ورفضت القانون .

*** ثمة محطة أخرى مهمة فى حياتك المهنية ومسيرتك الفكرية تتعلق بالتحاقك بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية الذى كان يعرف آنذاك بالمعهد القومى .. كيف بدأت هذه المحطة؟**

- قبل الولوج إلى فكرة المركز لابد أن أذكر فضل أستاذى أحمد خليفة ، أول مدير للمركز، الذى صار صديقًا عزيزًا فيما بعد، وهو صاحب فضل على أجيال كاملة من الباحثين المصريين، وهو الذى ابتدع فى مصر وظيفة الباحث العلمى المتفرغ، وغير ذلك حياتى وحياتنا جميعًا، فقد أخضعنا لتدريب نادر المثال، وكان منطقه أن

هناك علمًا اجتماعيًا واحدًا وتخصصات مختلفة، وبدأنا فيه باحثين مساعدين، أخضعنا لدورة تدريبية لمدة سنة كاملة، كنا فيها تحت الاختبار، درسنا فيها أنثروبولوجيا وعلم اجتماع وعلم نفس وفلسفة وقانون وحتى كيمياء، ودرس لنا فى هذه الفروع علماء أفذاذ، سنة كاملة من الدراسة المكثفة ، تنتهى بأن يعد الباحث رسالة ماجستير مصغرة تتم مناقشتها مناقشة علنية .

*** هل كان هدف المركز علميًا بحتًا، أم كانت له صلة ما بصناعة القرار السياسى؟**

- المعهد القومى كان به ثلاثة أقسام فى بداية إنشائه، قسم بحوث الجريمة برئاسة الدكتور سيد عويس العالم الكبير - رحمه الله - وقسم بحوث العقاب برئاسة اللواء ياسين الرفاعى ، وكان مساعد مدير السجون ، ومنتدبًا لرئاسة القسم، وقسم المباحث الجنائية وكان يرأسه اللواء محمود السباعى، وفى قسم بحوث الجريمة كان معنا ليلى تكلا وآمال عثمان، وكان لكل قسم خطة، وأوجد الدكتور خليفة تقليد المشاريع الكبيرة، وكانت هناك مشاريع كبرى: مشروع عن البغاء فى مصر، ومشروع تعاطى المخدرات، ومشروع عن السرقة عند الأحداث، وتم توزيع الباحثين على هذه المشروعات، وكان حظى أن أعمل بمشروع المخدرات ، وأعمل فيه تحت رئاسة الدكتور مصطفى زيور العالم النفسانى الشهير، فتعلمت فى هذه المرحلة مناهج البحث المختلفة ، وكيفية إدارة فريق بحث تحترم فيه كل الآراء بما فيها ما يبديه الباحثون الصغار، وهى خبرات جربتها جميعًا حين أنشئ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، وهذه خبرة نادرة كان من حظى أن أتيحت لى مبكرًا .

*** نتصور أيضًا أن عملك فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية قرَّبك من طبقات لم يكن ليتاح لك الاقتراب منها بهذا الشكل لولا عملك بالمركز، وهو ما يدعم اهتمامك بفكرة العدالة الاجتماعية، والفروق بين الطبقات؟**

- بكل تأكيد، فأنا عملت فى بحث عن المناطق المختلفة، وأقمنا عيادة طبية فى منطقة القللى ودرسنا حالات، وكان معنا فى هذا البحث الدكتور أنور المفتى- رحمه الله- وكان هذا البحث عن المناطق المختلفة عملاً مبكرًا جدًّا، أيضًا عملت فى بحوث ميدانية بالقرى، سمحت لى أن أدخل فى أحشاء المجتمع فى المدن والريف، حتى إننا عملنا بحوثًا فى النوبة قبل السد العالى، وقد بلورت لدى هذه البحوث الميدانية معنى العدالة الاجتماعية .

*** يبدو أن فكرة العدالة الاجتماعية هى الفكرة الرئيسية لديك؟**

- هى قضية حياتى، ورأيى أنه لا ديمقراطية دون عدالة اجتماعية، لا يمكن تحقيق تعددية أو تعديلات دستورية مثمرة أو انتخابات حرة دون عدالة اجتماعية المواطن لن يأكل انتخابات .. كيف يمكن أن نحقق العدالة الاجتماعية والحريات السياسية، هذه مسألة تحتاج إلى نقاش .

*** أنت ممن يرون أنه لا ديمقراطية دون عدالة اجتماعية ..**

- طبعًا لا ديمقراطية بغير عدالة اجتماعية، تجرى انتخابات أم لا، تغير الدستور أو تبقيه على حاله ، هذا أمر لا يهم المواطن، أكثر ما يهمه تلبية حاجاته الأساسية، هذه مسائل مهمة وتختلف تطبيقاتها من مكان إلى آخر ، ومن زمان إلى آخر، فإذا كانت الصيغة الناصرية الآن غير صالحة ، علينا أن نتجاوزها ، ونسعى إلى ابتداع صيغة جديدة .

*** يعنى قضية العدل الاجتماعى شغلتك ولم تشغلك قضية الحرية والديمقراطية .**

- شغلتنى فى أواخر العهد الناصرى ؛ لأنه كان هناك عقد اجتماعى بيننا وبين عبد الناصر، يتضمن توفير الحاجات الأساسية للمواطنين وإشباعها ، وقد حدث هذا فى الغذاء والتعليم والصحة والسكن .. إلخ، لكننى بدأت أشعر أن الأمور لن تستقيم على هذا النحو فقط منذ عام 1966 ، وحين عقد مؤتمر المبعوثين فى

الإسكندرية، كان شعورنا أن القمح زاد ، فقلنا المقايضة لم تعد صالحة، وهذه هى الخبرة التاريخية التى أخذناها من المرحلة الناصرية ومن القرن العشرين كله، لا يجوز التضحية بأحد الجناحين فى سبيل الآخر، حرية سياسية وعدالة اجتماعية، لا يمكن التضحية بأيهما .

*** طوال مسيرتك لا يبدو أنك اقتربت من السلطة أو سعيت إلى هذا ..**

- إطلاقًا، لم أسع أبدًا إلى السلطة، ربما تسعى السلطة إلىَّ حين تكون بحاجة إلى رأى علمى فى موضوع ما، وهذا ما سعيت إلى التأكيد عليه مع زملائى وتلاميذى فى مؤسسة الأهرام، أن يبقوا بعيدين عن السلطة، وأن تظل هناك مسافة دائمًا بين الطرفين .

*** حدثنا عن مؤتمر المبعوثين ، الذى كان بداية الصدام مع الثورة ونظامها ..**

- أثناء دراستى فى حقوق الإسكندرية ، كنت عضوًا فى جمعية الأبحاث الجنائية التى تم تأسيسها بالكلية ، أنشأها أستاذى الدكتور حسن المرصفاوى - رحمه الله - ومن خلالها كنا نجرى بحوثا ميدانية ونزور السجون لنعرف الفرق بين النظرية والواقع ، وقد تعلمنا باكرًا أن هناك فجوة بين النص والواقع، وكانت زميلتى فى الجمعية الدكتورة عفاف مراد، وقد كانت أيضًا زميلتى فى جمعية الفكر الإسلامى، ذهبت إلى فرنسا فى عام 64 لدراسة الدكتوراه، وذهبت إلى مدير البعثات أطلب منه أن تكون بعثتى فى بلد ليس به مصريون ؛ لأننى سمعت كثيرًا عن خلافاتهم ولم يكن لدى وقت لأصبح طرفًا فى هذه الخلافات، فاختار لى بلدًا على بعد 200 كيلو متر من باريس، فى هذه الأثناء زار المشير عبدالحكيم عامر باريس والتقى بالطلبة، الذين قابلوه باحتجاجات وانتقادات عديدة ، فاقترح عليهم أن يقيم لهم مؤتمرًا فى مصر يطرحون فيه انتقاداتهم تلك ..

وبالفعل عقد المؤتمر بمدينة الإسكندرية سنة 1966 ، قبل ذلك كتبت مقالاً فى جريدة المبعوثين تحت عنوان : «المبعوثون والثورة والاشتراكية»، وكانت مقالة نقدية مطولة، وقد قرأت هذه المقالة بإمعان بين المبعوثين النشطين فى باريس، وبينهم الدكتور حسن حنفى ، والدكتور حسام عيسى ، والدكتور رشدى راشد، وأرسلوا إلىَّ دعوة لحضور ندواتهم ، وإعداد بحث عن الطبقة الجديدة فى مصر، وطلبوا منى الانتظام فى ندواتهم، وبعدها حضرت مؤتمر المبعوثين الذى يمكن اعتباره أول محاكمة علنية للناصرية، وقد حضرها عدد كبير من قيادات مجلس قيادة الثورة، ووجهت انتقادات حادة لعبد الناصر والمشير عامر شخصيًا، ومحاضر الاجتماع نشرت فى الجرائد المصرية، وأمر عبد الناصر بعدم حذف أى كلمة منها.. كنا خائفين على التجربة ونريدها أن تتطور ؛ لأننا ضد القمع الذى يحدث وضد غياب الديمقراطية .

*** إلى هذا الوقت لم يكن قد تشكل لديك ما يمكن اعتباره نسقًا فكريًا واضحًا ..**

- لا، بعد أن غادرت الإخوان، أعجبت بالماركسية كنظرية ومنهج للتحليل ؛ فالماركسية نظرية شاملة تسمح لك بتحليل القانون والقيم والمجتمع، ومازالت الماركسية حتى الآن منهجًا علميًا صحيحًا، بصرف النظر عن سقوط الشيوعية والاتحاد السوفيتى، ولذلك يقول عالم الاجتماع السياسى الأمريكى «أرنسون» فى كتابه «ما بعد الماركسية» الذى ينتقد فيه تجربته مع الماركسية، قال لم تسقط الماركسية ولكن سقط مشروعها الراديكالى لتغيير العالم، والمطلوب الآن صياغة مشروع جديد لتغيير العالم ..

وأنا واحد ممن انتقدوا التجربة الماركسية والشمولية السوفيتية فى « عِزِّها »، وتنبأت بانهيارها ؛ لأننى درست المراسيم الأولى للدولة البلشفية، وكان مرسومها الأول يدعو إلى مصادرة الملكية الخاصة، ويدعو المرسوم الثانى إلى مصادرة حرية الصحافة، وقيل إن هذا وضع مؤقت ؛ لأن هذه الصحف ضد التجربة الجديدة، واستمر هذا الوضع المؤقت 70 عامًا ..

درست كل ما كتب فى نقد الشيوعية، واطلعت على الإجرام الذى ارتكبه ستالين بإعدامه النخبة والجنرالات، والمحاكمات دون قوانين، وغزو المجر فى سنة 1956 ، وإجبار المثقفين على النقد الذاتى قسريًّا، وقد كانت عوامل الخلل فى التجربة كما رأيتها واضحة جدًّا .

*** هل كان انتقادك للتجربة الناصرية يتركز فقط فى مسألة غياب الحريات والديمقراطية؟**

- كان هذا هو الملمح الأساسى، ومازلت أذكر أننى بعد عودتى من باريس كانت سيارة تتبعنى أينما ذهبت، وانتهيت إلى أن بعضهم كان يتجسس علينا فى باريس .. المهم أننى لاحظت بعد عودتى أن قبضة المباحث اشتدت على الناس بدرجة كبيرة، كان هناك خوف من الكلام، كانت هناك خشية كبيرة، وهذا خلل فادح، كانت هناك حالات قمع غير مبررة للإخوان المسلمين والشيوعيين، وأنا نزعتى إنسانية تمامًا لا يمكنها أن تقبل بهذا، كنا نؤيد مشروع عبد الناصر ؛ لأننا كنا نرى تعطش الشعب المصرى للعدالة الاجتماعية ، الطبقة الوسطى كانت محاصرة ، هذا ما عبرت عنه بصدق رواية نجيب محفوظ «القاهرة 30»، وشخصية محجوب عبد الدايم شخصية حقيقية تمامًا، الدرجة التاسعة الكتابية كانت تحتاج إلى واسطة كبيرة، دخول الجيش والبوليس تلزمه واسطة كبيرة ، وهى حكر لأبناء البكوات والباشاوات، دفعة 1936 كانت أول دفعة شعبية تدخل الكلية الحربية، ومن هذه الدفعة قامت الثورة ..

والوطنية المصرية فى هذه الفترة كانت مشتعلة ، والطلبة كانوا متابعين لكل التطورات بدقة، وكما قلت لك فإن موضوع العدالة الاجتماعية كان هو الأكثر أهمية بالنسبة لنا، خصوصًا أن 5000 طالب ذهبوا إلى بعثات تعليمية فى أوروبا وأمريكا، لم يكن ممكنا أن يتاح لهم ذلك لولا الثورة، وهذا يفسر التفويض الذى أعطاه الشعب لعبد الناصر، وينبغى هنا أن نشير إلى أنه حدثت خيانة للنظام الليبرالى قبل الثورة ؛

لأن أحزاب الأقليات تآمرت مع النظام الملكى والإنجليز لإقصاء حزب الوفد وهو حزب الأغلبية آنذاك، لكنه لم يقدر له أن يحكم سوى 8 سنوات فى الفترة من 1923 وحتى 1952 ؛ لذلك فقدت الأحزاب مصداقيتها لدى الشعب المصرى ..

قبل 1952 قدمت ثلاثة مشاريع للإصلاح الزراعى رفضت جميعًا : مشروع جماعة النهضة القومية للدكتور إبراهيم بيومى مدكور، ومشروع خطاب، ومشروع إبراهيم شكرى، وقد رفضت هذه المشاريع ؛ لأن كبار الملاك كانوا هم أعضاء المجالس، وبالتالى لم يكن متصورًا أن يقبلوا بتحديد الملكية، وحين جاء عبد الناصر كان لسان حالنا يقول : ما الذى فعلته لنا الديمقراطية؟ لكننا فى مرحلة تاريخية أدركنا أن هذا خطأ تاريخى .. لا يمكن أن تقايض الحريات بالعدالة الاجتماعية ، ولا يمكن أن تحقق العدالة الاجتماعية فى ظل القمع والخوف وهذا خطأ تاريخى، وأيضًا لا يمكن أن تجرى انتخابات نزيهة وتعددية حقيقية ، فى ظل فروق واسعة بين الأغنياء والفقراء ، وارتفاع رهيب فى نسبة البطالة وحصار مميت للطبقة الوسطى والعشوائيات تنتشر، لا يمكن، لابد أن تمنح الناس شيئًا ملموسًا، مطلوب نظام متوازن لا يضحى بالعدالة الاجتماعية باسم الحرية أو العكس ؛ لهذا كان لدينا شعور فى مؤتمر المبعوثين عام 1966 ، أنه ما لم يحدث إصلاح فإننا سنكون مقبلين على كارثة، كان ما يجرى إرهاصًا بالهزيمة .

*** كيف كان وقعها عليكم كطلبة مبعوثين فى باريس؟**

- دار جدل شديد فى النادى المصرى والسفارة المصرية حول الحرب وما جرى، كنا قبلها نقول إنه لا يمكن أن يتخذ عبد الناصر الخطوات الاستفزازية التى سبقت الحرب دون أن يكون جاهزًا لها، وقبل 5 يونيو مباشرة حضرنا ندوة فى النادى المصرى، وقتها كان أخو سامى شرف مستشارًا فى السفارة، وأثناء الندوة قام مبعوث مصرى يسأله : هل يمكن ألا ننتصر فى هذه الحرب؟

فإذا بالمستشار ينغمس فى خطبة عصماء ، يتخللها بكاء ونشيج حول قدرات الجيش المصرى والشعب المصرى ورثة صلاح الدين، ولا يمكن أن تكون الهزيمة واردة .

فى 5 يونيو كنا بالحى اللاتينى، وإذا بنا نقرأ فى عناوين الصحف الفرنسية ضرب سلاح الجو المصرى على الأرض، ذهلنا، كنا قبلها قرأنا خبرًا عن أن سيارة جيب يقودها عميد تاهت فى صحراء سيناء، وقلت فى نفسى إذا كان صاحب الأرض تاه قبل الحرب ، فما الذى يمكن أن يحدث أثناءها ؟!

قبل الحرب أيضًا التقينا بوفد مصرى ، كان فى الجزائر ومرّ «ترانزيت» بباريس، يضم أحمد بهاء الدين ، ولطفى الخولى ، ومحمود أمين العالم، وقال لنا أحدهم إنه صدرت الأوامر بضرب تل أبيب من البحر، وقال لنا مستشار السفارة : إن الأوامر صدرت للقوات بـ«النوم» استعدادًا للهجوم المضاد، أوهام فى أوهام !!

بعد يومين من الحرب كنا على يقين من الهزيمة الكاملة، وكان رد فعلنا المباشر هو أننا امتنعنا عن الذهاب إلى مطعم المدينة الجامعية، حتى لا نلتقى بالطلبة اليهود الذين كانوا يتحرشون بنا ومشتاقين للشماتة فينا، واستمررنا ثلاثة أسابيع على هذه الحال ، وأذكر أننا قبل الهزيمة كنا ندخل فى مساجلات حامية بين اليمين واليسار، فلما وقعت الهزيمة بكينا جميعًا، اليمين واليسار، وأدركنا أن ما قلناه فى مؤتمر المبعوثين عن الفساد وغياب الديمقراطية تحقق ..

كانت هزيمة 1967م ، زلزالاً أصاب الوعى العربى كله من المحيط إلى الخليج، ومازالت مرارتها فى حلوقنا جميعًا .

*** أريد أن نتوقف عند محطة مهمة فى مسيرتك الفكرية ، وهى انتقالك للأهرام ، وعملك بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ..**

– فى ندوات السفارة قابلت عفاف مراد ، وكانت زميلتى بحقوق الإسكندرية، وكانت متزوجة من الدكتور القشيرى ، الذى كان مستشارًا فى مجلس الدولة، وقد

عدت قبلها إلى مصر ، وكنت عضوًا فى الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والتشريع، وفى إحدى الندوات تناقشت مع المحاضر، ففوجئت بالدكتور جمال العطيفى يسعى للتعرف علىَّ، وكنت وقتها أعمل بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وطلب منى أن أجهز نفسى لإلقاء محاضرة فى الجمعية، وكان هو مستشارًا للأهرام ودعانى لزيارته هناك ، حيث التقيت عفاف مراد ، وكانت قد تم تعيينها بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، وكان مدير المركز آنذاك حاتم صادق، وكان المركز ناشئًا واسمه فى هذه الفترة مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية، وأعجبنى الجو العام فى المركز وفى مؤسسة الأهرام، فبدأت أدخل فى مناقشات معهم، واقترحت عليهم إنشاء وحدة لدراسة المجتمع الإسرائيلى، وبدأت فى قراءة المجتمع الإسرائيلى من خلال دراسات وبحوث معمقة، وبدأت أتردد على المركز بصفتى باحثًا منتدبًا لبعض الوقت ، واقترحت عليهم تقسيم المركز إلى وحدات، وبدأت أنقل خبرتى فى المركز القومى للبحوث إليهم ..

وفى سنة 1975 شعرت أن مرحلتى فى المركز القومى للبحوث انتهت خصوصًا، وأننى لم أحصل على الدكتوراه وتوقفت ترقياتى عند هذا الحد ..

فى هذه السنة كان حاتم صادق قد ترك المركز وذهب للعمل فى جامعة الدولة العربية، وطلبت أن أنقل إلى المركز فوافقوا على الفور، وتحمس لتعيينى على حمدى الجمال مدير التحرير ، الذى يبدو أننى أثرت انتباهه حين تجادلت مع العقيد معمر القذافى فى زيارة له للقاهرة، وهاجمته هجومًا عنيفًا على خلفية سجنه للمخالفين له فى الرأى ، وسعيه لإقامة دولة دينية فى ليبيا، وحين صار الجمال رئيسًا لتحرير الأهرام، رحب جدًّا بتعيينى فى المركز فى أغسطس سنة 75 ، وفوجئت بتعيينى مديرًا للمركز ولست رئيسًا لوحدة، رغم أن أحدًا لم يفاتحنى فى هذه المسألة .

*** ما القيمة الأساسية التى سعيت إلى ترسيخها منذ توليت مهمة إدارة المركز؟**

- احترام الخلاف والاختلاف حول كل القضايا، وكان لدينا تقليد عقد «سيمنار» أسبوعى ، تطرح فيه كل القضايا بمنتهى الحرية، كما كنت أشجع الباحثين على الكتابة باستمرار، وإذا لم يكتب أسأله لماذا، وأنشر لهم مقالات بأسمائهم، وهذا تقليد لم يكن معمولاً به فى الأهرام ..

أذكر مثلاً أن الدكتور محمد السيد سعيد بعد شهور من تعيينه ، نشر كتابًا عن الشركات دولية النشاط ، وكان كتابًا أكثر من رائع، لم يكتبه أساتذة كبار، كنت أرحب بالموهبة وأشجعها ، وكنا نضع ضوابط لتبقى الخلافات فى إطارها الموضوعى.. فى السنوات الأخيرة حدثت اختلافات فى مصر وفى العالم كله، وهى خلافات أكبر من أن يتم التعامل معها ببساطة كما كان الأمر من قبل، أهمها أن الشيوعية سقطت، وتفكك الاتحاد السوفيتى وانتهى .. كل هذا أدى إلى تحولات فكرية أتفهمها جيدًا ؛ لأنه ليس من المفترض أن يتبنى الباحث أو المفكر فكرة معينة ويظل عائشًا عليها للأبد، من حقه أن يغير، مع الاعتراف بوجود فرق مهم بين التغيير الأصيل والتغيير الانتهازى، ودائمًا ما أضرب مثلاً بالتغيير الأصيل بما فعله المستشار طارق البشرى، وهو نموذج لمثقف مصرى تعتز به الجماعة المصرية كلها ..

كتب كتابا عن «الحركة السياسية المصرية 45 - 52»، وكان وقتها منحازًا إلى اليسار وضد الإخوان المسلمين، بعد سنوات تغيرت أفكاره فما الذى فعله، لم يغير الكتاب لكنه كتب مقدمة فى أكثر من 70 صفحة فيها نقد ذاتى ، ويعلن عن أفكاره الجديدة، هذا نموذج للاحترام والتحول الفكرى الموضوعى غير الانتهازى .

*** هل لاحظت أن بعض «المتحولين» أخيرًا كانت دوافعهم انتهازية؟**

- طبعًا ، كثير من هذه التحولات دافعها الرغبة الشديدة فى الارتباط بالسلطة والسعى للاقتراب منها التماسًا لمزاياها، يعنى مركز الدراسات السياسية

والاستراتيجية الآن به أعضاء فى لجنة السياسات ، الأوضاع تغيرت وحدثت خصخصة للبحث العلمى ، أصبح هناك لهاث خلف المنح الأجنبية والتمويل .. إلخ، والمسألة زادت جدًّا وصار من الصعب أن تحكمها، كما أن الناس تسيسوا ، وكنت أنا ضد هذه المسألة دائمًا، كنت دائمًا ضد أن يعمل الباحثون بالسياسة العملية، كنت أقول لهم : من يرد العمل بالسياسة فليذهب إلى الأحزاب ويترك المركز، لكننى ينبغى أن أؤكد أن من تقاليد المركز ليبرالية المدير ؛ أى استعداده لقبول المختلفين معه، وأن يبقى الخلاف غير مؤثر على علاقات العمل، ومازال الدكتور عبد المنعم سعيد يسير على هذا المبدأ، فمهما كان الخلاف مع بعض الباحثين، فإنه يعطى الفرصة للجميع بنزاهة وموضوعية، هناك قواعد معلنة يتم تطبيقها على الجميع، وأرى أن المركز تطور كثيرًا فى السنوات الأخيرة، وأضيفت إليه إصدارات مهمة على مستوى العالم العربى كله، والباحثون فى المركز من أرقى وأهم الباحثين فى العالم العربى كله فى مجالاتهم .

*** برأيك ، ما أبرز الأزمات التى تعانيها مصر حاليًا، والتى تلقى بظلالها على المستقبل ؟**

- أتصور أن أبرز الأزمات التى تعانيها مصر هى أزمة متعلقة بالحزب الوطنى الديمقراطى، وهى الإصرار على أن يبقى هو التنظيم السياسى الأوحد ، دون الاستماع إلى وجهات النظر المخالفة، وعدم الاستخدام لمنطق الشفافية الكاملة للمعلومات، والاتجاه للهيمنة الكاملة على مجمل الفضاء السياسى المصرى، بما يتنافى مع فكرة التعددية كما ينبغى أن تمارس .. ثم أزمة الأحزاب السياسية المصرية، والتى تتمثل فى العجز عن التجدد السياسى سواء فى البرامج المدروسة أو فى تجديد القيادات، أو ابتداع طرق جديدة لإدارة الأحزاب .. وأزمة المثقفين المصريين المتمثلة فى العجز عن التجدد المعرفى، وعدم الإحاطة النقدية بالمتغيرات الجسيمة التى حدثت فى المجتمع العالمى ..

وفى رأيى، فإن المثقفين المصريين لا يبذلون جهدًا كبيرًا فى التجدد المعرفى، ولا يغفر فى عصر المعلومات والإنترنت لمثقف مصرى أن يعيد إنتاج خطابه القديم ، ثم هناك أخيرًا أزمة الوعى الاجتماعى المصرى، وهو وعى متخلف بحكم انتشار الأمية، وبحكم الأمية الثقافية، وبحكم سيادة التفكير الخرافى الذى يلبس أحيانًا لبوسا دينية، وأظن أن انعدام الوعى الجماهيرى مشكلة حقيقية تعوق عملية التنمية ذاتها .

* * *

الدكتور إسماعيل سراج الدين

نظامنا التعليمى قائم على التلقين ولا يمكنه أن يحقق تنمية

تحمل السيرة الذاتية للدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الإسكندرية، قدرًا محيرًا من التنوع ، فهو مهندس معماري متفوق ، واختصاصي في التخطيط الإقليمي، وموضوع رسالته للدكتوراه كان عن الارتباط بين التعليم والتنمية، وحين أنهى دراسته في جامعة «هارفارد» التقطه البنك الدولي ليعمل به أكثر من ربع قرن تقريبًا، حتى وصل إلى منصب نائب الرئيس، وخلال هذه السنوات اشتغل على موضوعات غاية في الأهمية والخطورة والتنوع : التصحر ، الفقر ، الزراعة ، المياه ، وهو ما برر حصوله على نحو ثلاث عشرة دكتوراه فخرية من عديد من جامعات العالم .

لهذا كله .. كان حديثي معه عن هذه الاهتمامات، مع الاقتراب في كل مرة من تجربته الآنية في مكتبة الإسكندرية وإلى تفاصيل الحوار ...

*** رسالتك للحصول على درجة الدكتوراه كان موضوعها التعليم والتنمية، وربما كان أكثر ما يعوق التقدم والتنمية في مصر هو التدهور في مستوى التعليم، إلى أي حد يرتبط التعليم بالتنمية ، وكيف يمكن الإفادة من تجارب دول أخرى في هذا المجال؟**

- لا تنمية جيدة دون تعليم جيد، وأفضل استثمار يمكن أن تحققه دولة فى العالم هو استثمارها فى مجال تنمية مواردها البشرية، ودليلى على ذلك هو التجربة اليابانية، فنحن أمام دولة لا تتوافر لديها موارد طبيعية من أى نوع، لكنها استطاعت بقواها البشرية المدربة القادرة على الابتكار والإبداع أن تصل إلى قمة الدول الصناعية الكبرى فى العالم، وكذلك الحال بالنسبة لكوريا، وهى دولة كانت تعد من بين الدول الأفقر فى العالم، الآن تحتل المرتبة الحادية عشرة من حيث مستوى دخول أفرادها، والحقيقة أننا مقبلون على مرحلة من المنافسة غير مسبوقة، فالاقتصاد الآن قائم على تكنولوجيا المعرفة، وإذا لم نتمكن من تنمية قدرات شبابنا فى هذا المضمار، فلن نستطيع المحافظة على التنافسية فى الساحة الدولية ..

وأنا أعطى اهتمامًا كبيرًا لقيمة التعلم، التعلم فى ذاته وليس بهدف اقتناص وظيفة ؛ لأن العلم ذاته يتغير بدرجة كبيرة جدًّا، ولذلك لابد أن نربى فى النشء منذ مراحل التعليم الأولى قدرات التعلم المستمر من المهد إلى اللحد، لهذا يجب أن تكون المناهج والكتب الدراسية كلها قائمة على هذه الفكرة، فكرة تنمية المهارات الذاتية والقدرات الفعلية وتعميق قبولها لمنهج التعليم المستمر، وليس فقط اكتساب قدر من المعلومات وكفى ..

هذا الأسلوب مختلف كليًّا عن أسلوب التعليم التلقينى الذى يسير عليه نظامنا التعليمى، والذى أساء لأجيال عديدة من أبنائنا وحرمهم من حق التساؤل والاكتشاف ؛ لأن الطفل حين يبدأ فى مرحلة التعليم واكتشاف البيئة المحيطة به ، لا يكون هدفه من المعرفة أن يحجز لنفسه وظيفة فى المستقبل، وإنما فقط أن يعرف، لكننا نصادر على حقه فى المعرفة والاكتشاف بهذا الأسلوب التلقينى الذى يحول المعرفة ذاتها إلى وسيلة لا غاية ، ونحن فى مكتبة الإسكندرية حريصون على تنمية مهارات المعرفة بالمعنى الذى أشرت إليه، ونعقد مؤتمرات وندوات عن الأساليب المبتكرة والحديثة فى التعلم فى العالم كله، ونشجع الإبداع من خلال موقع «اكتشف بنفسك» الذى يعد نموذجًا أمثل للتعليم التفاعلى ..

والحقيقة أن المسألة ليست صعبة كما نتصور، فقط علينا أن نتخلص من فكرة ارتباط التعلم بالشهادة ؛ لأن ما جرى أن حاملى الشهادات العليا عندنا زادت أعدادهم جدًّا، فى الوقت الذى انحدر فيه مستوى الخريجين بدرجة مخيفة، وأظن أن بإمكاننا تحقيق النهضة التعليمية بسرعة لو خلصت النوايا، فلسنا مثل الصين مثلاً التى حطمت الثورة الثقافية نظامها التعليمى كله، ولكنها استطاعت فى أقل من ربع قرن أن تعيد بناءه بالكامل على أسس عصرية، وساهمت فى الجينوم البشرى واكتشافاته بصورة أساسية، ومعدلات التنمية الصينية هى من أعلى المعدلات فى العالم .

*** إذا كانت المسألة بسيطة كما تقول .. فما الذى يعوق تحققها؟**

- هناك أسباب عديدة أهمها أنك يجب أن تقلل من القوى المناهضة للإصلاح وتأثيرها، يعنى هل تتوقع أن يقف المدرسون الذين عاشوا سنوات طويلة على ما يحصلونه من الدروس الخصوصية مكتوفى الأيدى، وأنت تقلب نظام التعليم وتحرمهم من النظام التلقينى ، الذى كان سبب انتشار وباء الدروس الخصوصية؟ هؤلاء منتفعون ولن يصمتوا إزاء هذه الإجراءات الإصلاحية، ويمكن أن نقيس على هذا النموذج أمثلة أخرى عديدة .

*** أريد أن ننتقل إلى مجال آخر لك فيه تجربة ثرية ، وهو عملك فى البنك الدولى الذى شغلت لسنوات موقع نائب الرئيس به، فضلاً عن رئاستك لعديد من اللجان الاستشارية والتنفيذية فى إطاره، والحقيقة أنه لا البنك ولا صندوق النقد الدولى يحظيان بسمعة طيبة بين شعوب العالم الثالث، والانتقاد الأساسى أنهما يقدمان روشتة واحدة للإصلاح لكل الدول النامية ، بصرف النظر عن الاختلافات بين هذه الدول .**

- زملائى فى صندوق النقد الدولى ممتازون فى النواحى المالية، لكنهم بطبيعة الحال لا يرون كل جوانب الصورة، وحين يواجهون بدولة تعانى عجزًا فى الموازنة، فإن تغطية هذا العجز يتم بإحدى طريقتين إما الاقتراض أو الإعانة، وأغلب الدول التى تشكو عجزًا تكون قد استنفدت الأمرين، فلا يبقى سوى أن تقلل المصاريف وترفع الدخل، ومن هنا يبدو للمتابعين أن البنك الدولى والصندوق يقدمان روشتة وحيدة للجميع، والحقيقة أن التشابه فى روشتة الإصلاح مصدره التشابه فى المشكلات بين هذه الدول، فأغلب هذه الدول توسعت فى العمالة بالقطاع العام والحكومة، فسمحت بتوظيف عشرات الآلاف دون أن تكون هناك حاجة حقيقية لوجودهم بالجهاز الإدارى والوظيفى للدولة، وأغلب هذه الدول تنفق ببذخ فى اتجاهات ينبغى تقليص الإنفاق بها، وأغلبها لا يوفر مناخًا جيدًا للاستثمار وتنمية المشروعات ذات الطبيعة الاستثمارية، التى يمكن أن تفتح أبواب رزق وعمل كثيرة، وفى الوقت نفسه تحقق عائدًا يضمن لها الاستمرارية ويضخ دماءً جديدة فى شرايين عملية التنمية ..

والبنك يضع خطة ويتفاهم فيها مع الدول المتعثرة أو النامية، والخطة بالضرورة تتضمن خطوات للإصلاح ، يتم تنفيذها على مراحل لتجاوز الأزمات التى تعانى منها هذه الدول ..

وبرأيى فإن مصر حققت إصلاحًا هيكليًا ممتازًا فى السنوات الأخيرة، كما أن المدخرات زادت بصورة ملموسة، وبرأيى فإن التأخر فى تحقيق هذه الإصلاحات كان خطأ ؛ لأنه أبقى معدلات النمو عند حدودها الضعيفة والتى لم تستطع أن تحقق تنمية حقيقية، وهذا يعنى أننا لا نحارب أهم مشكلة تواجهنا على الإطلاق وهى مشكلة البطالة ؛ إذ لا يمكن مواجهة البطالة إلا برفع معدلات النمو ومضاعفتها، واستمرار هذه الحالة لعدة سنوات متتالية .

*** خلال عملك بالبنك الدولى شغلت مواقع مهمة كرئيس للَّجنة الاستشارية للبحوث الزراعية ، واللجنة الاستشارية لمساعدة الفقراء، واللجنة الكوكبية للمياه وهو ما يلقى ضوءًا على اهتمامات متنوعة بقضايا عالمية وإنسانية فى الوقت نفسه، وجميعها - بالصدفة - مما تحتاج إليه مصر؟**

- لا يمكن تجاوز مشكلة الفقر دون زيادة معدلات التنمية وتحقيق استقرار فى هذه الزيادة لفترة طويلة، الذى سيتواكب معه بالضرورة زيادة فى الاستثمار خصوصًا فى مجالات التعليم والصحة، وأتصور أننا لو وصلنا إلى نسبة 7.2٪ كمعدل للتنمية وحافظنا عليه لمدة 30 سنة، فإن حجم الاقتصاد المصرى سيتضاعف وهو تقريبًا ما جرى فى الصين وكوريا ..

وهناك مسألة أخرى تتعلق بالعنصر البشرى أحب أن أشير إليها، وهى البيروقراطية؛ إذ لابد أن نخفف من وطأتها على حياة الناس لنمكنهم من الانطلاق والإبداع، وأسوأ ما تطرحه البيروقراطية هو فكرة الأقدمية، وأنا من ألد أعداء هذه الفكرة، فأنت حين تقيم أداء شخص ما فإن الأقدمية ليست سوى واحدة من معايير عديدة بينها المهارة والإنجاز والمبادرة، وهذه المعايير هى التى سعيت إلى تطبيقها فى مكتبة الإسكندرية، وكانت المحصلة أكثر من رائعة، شباب فى عمر الزهور ينافسون بكفاءتهم وقدراتهم أرفع المستويات العالمية فى تخصصاتهم، ولدينا تجربة فى أرشيف الإنترنت ، أبهرت كل من عرفها ؛ إذ إننا خلال سنوات سنكون قد انتقلنا إلى مقاعد المصنعين والمصممين لقطع دقيقة كنا نستوردها حتى وقت قريب، وهى أجزاء مهمة فى الأرشيف الإلكترونى .

*** لدى استفسار حول حالة «النخبوية» التى يستشعرها كثيرون إزاء المكتبة، وهو شعور يبدأ من تصميم المكتبة ذاته ويمتد إلى نوعية أنشطتها، وأظن أن أحد شواغلك كانت كيفية ارتباط المكتبة ببيئتها المحيطة؟**

- لا أظن أن هذه النخبوية موجودة، فالمكتبة جسر تواصل مهم بين المثقفين والمفكرين والمبدعين فى جميع المجالات من ناحية، والناس من ناحية ثانية، وبشكل عام .. فإن النخبة هى التى تخطط وتبدع وتقترح من خلال احتياجات الناس ورؤاها وليس بعيدًا عنها، وأما على مستوى التفاعلات الثقافية فإن لدينا احتفاليتين يوميتين، وهذا يؤكد معنى التواصل، هاتان الاحتفاليتان قد تكونان فى مجالات علمية أو أدبية أو فنية، لكن المشكلة التى تواجهنا هى الحضور الإعلامى الذى لا يواكب هذه الأحداث، وينظر لفعاليات المكتبة باعتبارها أخبار محليات، خصوصًا أن المكتبة تقع فى الإسكندرية فيما تتركز أضواء الإعلام على القاهرة وأحداثها ، وهناك مسألة أخرى تتعلق بنوعية النشاط، فقد لاحظنا أن الإقبال يكون أكبر على الندوات ذات العناوين الأدبية أو الفنية أو السياسية، أما الندوات العلمية فلا يكون الإقبال بالدرجة ذاتها ، وهذا أيضًا قصور إعلامى آخر ؛ إذ لا تركز أجهزة الإعلام على تنمية الوعى العلمى عند الجمهور .

*** بين القضايا التى تهتم بها ، وظهرت فى عديد من مؤتمرات وندوات المكتبة قضية العولمة والهوية ، هل تخشى على الهوية من العولمة؟**

- لا أعتقد أن العولمة يمكن أن تؤثر بالسلب على الهوية، فلا بد من الانفتاح على كل التيارات العالمية، انفتاحنا على العالم يثرى حياتنا ويقوى روابطنا ليس مع العالم فقط، وإنما أيضًا مع جذورنا وتراثنا، ونحن فى منطقتنا العربية والإسلامية استفدنا كثيرًا من الترجمات عن اليونانية واخترنا ما يناسبنا منها، وأظن أن تجربة بيت الحكمة الذى أنشأه المأمون ينبغى ألاَّ تغيب عن الأذهان ؛ فهى تؤكد أن تلاحمنا وتفاعلنا مع الثقافات والحضارات الأخرى جزء من تراثنا الفكرى والثقافى ..

ومرة أخرى أعود بك إلى ما تقوم به مكتبة الإسكندرية فى هذا الإطار، فالمكتبة معنية تمامًا بأن يوضع الإبداع المصرى والعربى على الساحة الإلكترونية ليراه العالم كله .

*** طرحت المكتبة منذ ثلاث سنوات تقريبًا وثيقة الإصلاح العربي ، واعتبرت أن العدالة والتنمية والحرية هي مؤشرات الإصلاح التي يمكن القياس عليها في عالمنا العربي، لكن واقعنا العربي اليوم ؛ خصوصًا في لبنان والعراق وفلسطين لا ينبئ بأن ثمة إصلاحًا جرى؟**

- الأمثلة التي ذكرتها جميعًا هي دول واقعة تحت الاحتلال الأجنبي، لكن بوسعنا لو اتجهنا غربًا أو جنوبًا «في السودان» أن نجد مؤشرات أفضل ، ليس كما نرجو بطبيعة الحال، ولكن يمكن أن نرى استجابات بدرجات متفاوتة ..

ومع ذلك فإن مكتبة الإسكندرية ليس مناطًا بها أن تضع هذه الأفكار جميعًا موضع التنفيذ، المكتبة «تشتغل» على قضايا ذات طبيعة استراتيجية، يعني ببساطة يمكنك أن ترى على سطح البحر موجات وأعاصير وعواصف أو ترى هدوءًا، لكن في العمق ينبغي أن تلتفت للتيارات العميقة، وهذا بالضبط ما تشتغل عليه المكتبة، التأثيرات العميقة، وهذه هي وظيفتها الأساسية، نحن معنيون بقضايا مثل «العقلانية» كيف نشيعها وتصبح هي منهجنا الفكري السائد .. نحن نريد أن نستعيد هذا المنهج العقلاني في التفكير، بعيدًا عن تشنجات التخوين والتكفير التي انتشرت هذه الأيام، هل يعقل أن المعركة التي خاضها طه حسين حين صدر كتابه في «الشعر الجاهلي» ، تنتهي دون تكفيره أو إجباره على العزلة، فيما يضطر نصر حامد أبو زيد بعد 70 سنة إلى الهجرة للعيش خارج البلاد؟! بسبب مقولات واجتهادات مشابهة، هل ينكر أحد ما انطوت عليه كتابات أحمد أمين ومحمد عبده من انفتاح واتساع أفق؟! نريد أن نستعيد هذا المناخ الذي هو في حقيقته جزء أصيل من تراثنا العربي والإسلامي، ومن يقرأ تاريخ العرب في الأندلس أو في كل المناطق التي فتحوها، يمكنه أن يرى بسهولة حالة التسامح التي كانت سلوكًا ميز المسلمين مع غيرهم، في الوقت الذي كانت تعاني فيه أوروبا من محاكم التفتيش والقهر الفكري الشديد ..

ولا يمكن تحقيق الإصلاح بهذه الطريقة دون مساندة حقيقية من منظمات المجتمع المدنى ؛ لأن هذه المنظمات هى التى تشجع على الاهتمام بقضايا الإصلاح وتؤازرها ..

*** وما رأيك فيما يجرى من خطوات الإصلاح فى مصر ؛ خصوصًا أن المكتبة عقدت ندوات عن الإصلاح التشريعى والتعليمى والصحى وغيرها؟**

- أتصور أن لا خلاف بين الجميع على أهمية الإصلاح وضرورته، الخلاف فقط هو حول السرعة التى يجب أن تتم بها هذه الخطوات، وأظن أن ظروف المجتمع هى التى ستحدد مدى سرعة هذه الخطوات ، وإذا تذكرنا وثيقة الإسكندرية فإنها تضمنت إصلاحًا سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، كما تضمنت كذلك تركيزًا على قضايا المرأة والإعلام ..

وبرأيى ، فإن الإصلاح السياسى والاقتصادى أقل أهمية من الإصلاح الثقافى ؛ فالثقافة ستؤدى إلى تحولات فى المجتمع تقود معها بقية أوجه الإصلاح، ولو سألتنى عن أولويات الإصلاح فإننى سأضع تعليم المرأة وتمكينها فى المرتبة الأولى والثانية والثالثة، هذا برأى هو الأساسى فى أى إصلاح، وسأضرب لك نموذجًا بما فعله صديقى محمد يونس الذى حاز جائزة نوبل، الذى عرف بأنه اقتصادى الفقراء، والذى أسس بنك جيرامين لهذا الغرض ؛ إذ بدأ يونس بفكرة محاربة الفقر ودعم الفقراء بقروض صغيرة، وانتهى اليوم إلى أن 95٪ من المقترضين من جيرامين بنك هم سيدات، وأنهن نجحن فى استثمار مدخراتهن الصغيرة وغيرن شكل المجتمع كله، ما أود قوله هو أن أشياء كثيرة جدًّا فى التنمية المجتمعية ، تتحقق بتمكين المرأة وتعليم البنات، ويلى ذلك فى الأهمية عندى إشاعة مناخ من التسامح وقبول الآخر وتحديث الخطاب الدينى والإعلامى، لو تحقق ذلك فإننا نكون قد نجحنا فى إحداث تغييرات عميقة ، يمكن أن تقود التغييرات الأخرى .

*** هل يتأثر دور المكتبة وتوجهاتها بالتوجهات العامة للدولة وبدور مصر الإقليمى؟**

- فى الحقيقة أن المكتبة تتمتع باستقلالية كبيرة فى أنشطتها ومجال حركتها واسع جدًّا، ولا توجد قيود عليه، وجزء كبير مما يجرى فيها من أنشطة أو يصدر عن مؤتمراتها من توصيات، يأتى استجابة لآراء المفكرين ورؤاهم، فلا يوجد ارتباط نوعى أو مباشر بين توجهات المكتبة وتوجهات الدولة، وقد كان ذلك واضحًا منذ البداية؛ إذ تم التأكيد على عالمية نشاط مكتبة الإسكندرية .. صحيح أن لها نشاطًا دوليًّا وآخر إقليميًّا مرتبطًا بمصر، لكنها تبقى فى النهاية محتفظة باستقلاليتها .

*** أخيرًا أعرف أن لدى المكتبة مشروعات للتطوير ودعم أنشطتها ، وأن بعض هذه المشروعات يحتاج إلى دعم لا أظن أنه متوافر الآن، ما الذى ستفعلونه للتغلب على هذه الإشكالية ؟**

- نحن لدينا وديعة معقولة تسمح لنا بالإنفاق على مرافق المكتبة وصيانتها والحفاظ على بنيتها الأساسية من التداعى، أما فيما يتعلق بمشروعاتنا المستقبلية، فنحن الآن نقوم بحملة لتوفير دعم للمؤسسات التى تنوى المكتبة إنشاءها ضمن نشاطها العام، ونتوقع أن تحدث استجابة من بعض الدول الخليجية التى دعمت إنشاء المكتبة، ونتمنى دعمها لمؤسساتها، وما نتطلع إليه هو إحداث نوع من التوازن المالى يحقق موارد للمكتبة من عدة جهات : تمويل حكومى، تمويل أهلى، ثم دعم للمؤسسة، وبهذا نضمن الاستدامة المالية للمكتبة .

* * *

د. جلال أمين

الديمقراطية الأمريكية خدعة
ونظامهم الاجتماعى يقهر المرأة

ينتمى الدكتور جلال أمين أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية إلى تيار من المفكرين ، يؤمن بأن الاستقلال الحضارى شرط أساسى لتحقيق النهضة ..

هذا التيار الذى يرفض المقولات الجاهزة القادمة من الضفة الأخرى .. والتى لا تقيم اعتبارًا كبيرًا لمكونات الهوية وتمايزات الخصوصية .. وقد سعى من جانبه .. وفى كتابات عديدة إلى تفنيد هذه المقولات وفضح زيفها .. كاشفًا ادعاءاتها الباطلة .. والضلالات الكامنة خلف بريقها الذى يخطف الأبصار .

فى هذا الحوار مع المفكر الكبير ، الذى يجول فى الأدب والسينما والموسيقى .. بالبراعة ذاتها التى يسبح بها فى فضاء تخصصه الدقيق .. الاقتصاد، تشريح لخرافة التقدم والتأخر .. وتعرية لأوهام العولمة .. وتفكيك لشعارات التنوير الزائفة كما سوَّقوها لنا .. لنكتشف دون دهشة كبيرة بالطبع أن ثمة ما يربط بين ما يجرى هنا .. وما يدبر هناك .. روابط تقترب كثيرًا مما يصب فى خانة التواطؤ .. وتبقى مع كثير من حسن الظن .. فى مربع الغفلة وسوء التقدير .

*** لماذا تقدموا؟ لماذا تخلفنا ؟ هذا هو سؤال المرحلة على ما يبدو، ولكنك فى كتابك الأخير «خرافة التقدم والتأخر»، رفضت المعايير التى يتم بموجبها إقرار تخلفنا**

والتأكيد على تقدمهم ، والتى وضعوها «هم»، والتى ركزت مرة على معدلات التنمية ومستويات الدخول ومعدلات الاستثمار والادخار، ثم وضع تقرير التنمية البشرية معايير ثلاثة أخرى ، هى : متوسط الدخل ، ومتوسط العمر ، وحالة التعليم، واستبدل بها تقرير التنمية الإنسانية ثلاثة مؤشرات هى : الديمقراطية والمعرفة وتمكين المرأة، فيما تراها أنت معايير للتبعية وليست للتقدم؟

- المسألة أعقد من هذا قليلاً، صحيح أن هذه المعايير لم يضعوها لإذلالنا وإن كانوا أذلونا بها فعلاً، لكن دعنا نؤصل لفكرة التقدم والتأخر بالعودة قليلاً إلى الوراء، إلى القرن الثامن عشر ومقدمات الثورة الصناعية والنهضة العلمية والتكنولوجية التى صاحبتها، وما اقترن بها من افتتان شديد بالعقل تحت راية التنوير، وبما يمكن أن ينجزه هذا العقل وما يقود إليه العلم، وكانت الفكرة السائدة أن اكتشافات الإنسان ستؤدى إلى مزيد من التقدم بإخضاع مجال بعد آخر من مجالات الحياة للعلم والعقل، ولننحى جانبًا الدين والأساطير وتقديس القدماء هكذا قالوا ، باختصار دعنا نتحرر من كل هذا ونتبع العقل، هى فكرة كما ترى براقة وترضى الغرور الأوروبى، حتى أن بعض الفتيات تحت وطأة هذه الفكرة كن يفسخن خطبتهن ؛ لأن الخطباء ليست لديهم القدرة على إثبات نظرية هندسية معينة..

ومع ذلك، فقد واجهت هذه الفكرة التى تجزم أن كل عصر تالٍ بالضرورة أحسن من سابقه بعض الانتقادات ، فكتب «شبنجلر» مثلاً بعد نهاية الحرب العالمية الأولى عن انحطاط الغرب، لكن بقى للفكرة بريقها خصوصًا مع اكتشافات داروين وكلامه عن أصل الأنواع، والذى أشار إلى أن نظرية التقدم لا تفسر فقط التاريخ الإنسانى، وإنما التاريخ الطبيعى كذلك وبالاقتراب قليلاً من حالتنا، سنرى أنه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ظهرت موضة التنمية الاقتصادية، وانشغلوا بالعالم الذى ننتمى نحن إليه، واعتبروا أن التسمية المناسبة لنا هى أننا متخلفون، وكنا فى بدايات القرن العشرين «بدائيين» أو «متأخرين»، وحيث وجدوا أننا «نسمع

الكلام» ، ونستجيب لنصائحهم ونتبع ما يقولون ، «أسمونا» الدول النامية لتشجيعنا على الاستمرار فى الطاعة على ما يبدو .

*** لكن كثيرًا مما يصفوننا به حقيقى فعلاً، يعنى غياب الحرية، قهر المرأة وغيرها، فيم اعتراضك إذًا؟**

- الحقيقة أن سبب رفضى لمقولاتهم عن التقدم والتأخر يعود لعاملين جوهريين؛

العامل الأول : أنهم مفتونون بجوانب من الحياة الاجتماعية يرون فيها وحدها وجوه التقدم ، ويتجاهلون جوانب أخرى باعتبارها غير مهمة، وأنا لست مقتنعًا أن الجوانب التى يركزون عليها بالضرورة أهم الجوانب، هم مثلاً مفتونون بالتكنولوجيا، وهى شىء عظيم طبعًا ، لكن يمكن أن تكون لها مساوئ كثيرة جدًّا ، كما نرى فيما فعله «الموبايل» بالناس وما فعله التليفزيون قبله، يعنى لو استخدمت هذا التقدم التكنولوجى فى زيادة كميات الغذاء للناس فهذا شىء عظيم، لكن لو استخدمته فى تقنيات من نوع الموبايل والأطباق اللاقطة (الدش) وما إلى ذلك، فأنا أعتبر أن «توثيق» العلاقات العائلية وتدعيم أواصرها، أفضل ألف مرة من التقدم التكنولوجى على هذه الطريقة ..

هذا المعنى يمكن أن ينسحب على مجالات الحياة كلها، فاللغة العربية عندى مثلاً هى أعظم لغات العالم ، وما تنطوى عليه من إمكانات ، وما تحتويه من درر أدبية أفضل برأيى من كثير مما فى الأدب الغربى الكلاسيكى ، رغم ما يزعمونه عن تقدمهم وتأخرنا، ولا يمكن اعتبار بتهوفن أفضل من زكريا أحمد لمجرد أنه ولد فى ألمانيا فى فترة تقدمها وازدهارها ..

ما أود قوله هو أن التقدم الاقتصادى والتكنولوجى مهم، وإشباع الحاجات الأساسية مهم ، ورفع مستوى الدخل مهم ، لكن ثمة أشياء أخرى لا تقل أهمية لا يلتفتون إليها.

والسبب الثانى لرفضى مقولتهم عن التقدم والتأخر هو : أن كثيرًا من الأشياء التى يزعمون أننا متخلفون فيها، أرفض أصلاً اعتبار المسألة محسومة بشأنها، مثلاً هم يختصرون الحرية فى صناديق الانتخابات، وأنا لا أحترم كثيرًا الديمقراطية الأمريكية ، وليست عندى ثقة كبيرة فيها ؛ لأن الناخب الأمريكى يذهب ليختار فى واقع الأمر بين حزبين لا فرق كبير بينهما ..

وتحضرنى هنا مقالة قيمة لنعوم تشومسكى عن حدود التفكير المسموح به فى أمريكا، أوضح فيها أن هناك أشياء فى أمريكا غير مسموح للمواطنين أن يفكروا فيها من الأساس ؛ لأن السلطة السياسية ووسائل الإعلام جميعها تدفعك للتفكير ضمن إطار معين، وأى خروج عليه يعد تمردًا ..

وحين زرت أمريكا لأول مرة سنة 1978 خطر ببالى أن المجتمع الذى تحدث عنه جورج أورويل فى روايته «1984» هو المجتمع الأمريكى وليس السوفييت ؛ لأن ما كان يشغل أورويل هو أن التقدم التكنولوجى عدو للحرية، والحقيقة أنا لست متأكدًا تمامًا ما إذا كان المواطن البسيط يحظى بحرية أقل أو أكثر من المواطن الأمريكى .. وبالنسبة للمرأة يمكن أن نقول كلامًا مماثلاً دون أن ننكر أن المرأة عندنا مقهورة ، ولكننا ننبه فقط إلى أن قهر المرأة لا يكون فقط بواسطة الرجل وإنما أيضًا بالنظام السياسى والاجتماعى، فالمرأة التى تتحول إلى مجرد موديل يظهر بصورة مهينة فى الإعلانات للترويج لسلعة ما .. هى مقهورة، وحين يضطرها النظام الاجتماعى إلى أن تعمل فى ظروف قاسية لتربية أولادها فهى مقهورة، وهكذا .

*** انتقدت فى كتابك «كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية» نظرية «التساقط» ، كما عبر عنها اقتصاديون ليبراليون، ومؤداها أن ما يجنيه رجال الأعمال والمستثمرون الكبار من أرباح سيتساقط بالضرورة وتلقائيًا على أصحاب الدخول الأقل فيستفيدون هم أيضًا من السوق المفتوح .**

- ثبت تاريخيًّا أن هذه النظرية التى تغنى بها اقتصاديون كلاسيكيون ليست ناجحة دائمًا، ولم تعد لها الجاذبية التى اكتسبتها فى زمن مضى، ونجاحها فى الغرب فى ظرف تاريخى معين لا يعنى بالضرورة إمكانية نجاحها عندنا ..

من ناحية ثانية .. فإن الذى حقق لها بعض النجاح فى فترة سابقة هو الاستعمار.. يعنى الدول التى طبقتها أتيح لها أن تستلب ثروات دول أخرى، وبالتالى صار لدى الطبقات الأغنى فائضًا مكنها من أن تعطى العمال أجورًا أفضل ، دون أن تتنازل هذه الطبقات كثيرًا عن أرباحها ..

طبعًا أنا لا أنكر أنه بالإمكان حدوث بعض التحسن فى دخول ومستويات معيشة الطبقات الأقل .. لكن ذلك يحدث على مدى طويل نسبيًّا فضلاً عن أن تحققه ليس مضمونًا، ولهذا أنا لا أرى لنظرية التساقط أى مستقبل فى بلد مثل مصر .

*** تميز أيضًا بين التنمية والنمو من ناحية والنهضة من ناحية ثانية، وترى أن ما يحتاج إليه بلد مثل مصر هو النهضة وبالشروط التى تحقق قدرًا من العدالة الاجتماعية ، وكفاءة فى توزيع الدخل ، وصحوة فى مجالات الحياة فى عمومها .**

- النمو والتنمية لهما تعريفات متفق عليها، فالنمو يعنى زيادة متوسط الدخل، والتنمية هى زيادة متوسط الدخل المقترن بتغيير هيكل الاقتصاد فى عمومه، وما أراه أن ما نحتاجه هو النهضة فالتنمية ليست شافية، وأحيانًا النهضة قد تتطلب بعض التضحية بالتنمية، مثلاً قد يكون رأيهم أن التنمية يمكن أن تتحقق بالسياحة، وبرأيى .. فإن السياحة إذا زادت عن الحد أو تمت بطريقة معينة ، يمكن أن تكون ضارة بقيم مهمة فى الحياة الاجتماعية، ومسألة توزيع الدخل أيضًا مهمة ، وهى مسألة قد يتجاهلها النمو والتنمية معًا .

*** ما يحدث عندنا فى ربع القرن الأخير فى أى خانة تضعه نمو أم تنمية أم نهضة ؟**

- ما جرى فى الخمسة وعشرين عامًا الأخيرة ، ليس فقط ترديًا فى الأداء فيما يتعلق بالتنمية أو توزيع الدخل، وليس أيضًا أن النهضة لا تتحقق، وإنما حتى أدائنا على مستوى النمو سيىء جدًا، وخصوصًا فى الفترة من 1985م، حتى اليوم، المسئولون يزعمون أن السنوات الثلاث الأخيرة حدث فيها تحسن فى النمو، وأنا مستعد أن أقبل هذا لكن فى المقابل لم تحدث نهضة ، ولم يحدث توزيع جيد للدخل وفى مسألة توزيع الدخل يحيرنى جدًا أن تقام مشروعات فى القاهرة والمدن الكبرى، ويعد المسئولون أن يبنوا مثيلاً لها فى الصعيد لتحقيق التنمية هناك، وأتساءل لماذا لا يقيمون المشروعات هناك مباشرة ويستفيد منها القاطنون فى الصعيد، وتكون الدولة بذلك قد حلت مشكلة تؤرقها سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا ؟! تمامًا كما يقولون للشباب المتعطل إننا نقوم بعملية خصخصة .. الآن وبعد عقد أو عقدين مثلاً سيستفيد أولادك من مشروعات الخصخصة تلك، هذا كلام لا يمكن قبوله، وهو يفاقم المشكلة ولا يحلها ؛ لماذا لا تخلق الدولة وظائف مباشرة لهؤلاء المتعطلين ؟ وفى رأيى إننا إذا كنا نريد مصلحة الناس فيجب أن نعيد التخطيط، التخطيط ليس سيئًا كما يحاولون أن يصوروه .. هم يشوهون معنى التخطيط ؛ لأنه يتدخل فى حرية المستثمر، هم يريدونها «سَداح مَداح» !

*** ربما تكون الحجة أن التخطيط ضد الحريات الاقتصادية والسوق المفتوح؟**

- هذا يتوقف على نوع التخطيط الذى تختاره ، يعنى إذا كان تخطيطًا على الطريقة السوفيتية، فهو طبعًا ضد السوق المفتوح، لكن إذا كان على الطريقة الفرنسية أو الدول الإسكندنافية فلا توجد مشكلة، والحقيقة أن الصينيين بارعون جدًا فى هذه المسألة، فهم يختارون من كل نظام ما يناسبهم دون حساسيات، وجذب الاستثمارات الأجنبية هدف لا يمكن الوقوف ضده، لكنك يجب أن تضع شروطًا وتحدد القطاعات المتاحة للاستثمار الأجنبى ، وبعد سنوات قد تضيف إليها قطاعات أخرى .. وهكذا ..

وأتصور أنه فى بلد مثل مصر، فإن معيار التقدم الاقتصادى ليس هو مستوى الدخل، وإنما بالقدرة على إتاحة فرص عمل ووظائف جديدة وتخفيض عدد العاطلين، والمسألة ليست صعبة، بإمكانك أن تمنح المحافظين سلطات حقيقية وتراقبهم وتقيم أداءهم فى مسألة العمالة .

*** بالمناسبة ، ما تقييمك للخصخصة بالصورة التى تمت بها؟**

- أنا لست ضد الخصخصة فى عمومها، بالعكس أرى أن هناك قطاعات معينة ينبغى ألاَّ تكون مملوكة للدولة، السينما مثلاً، الفنادق، المؤسسات التجارية مثل عمر أفندى وصيدناوى وغيرها، هذه القطاعات يجب أن تكون مخصخصة، ولكن هناك قطاعات لو تم تخصيصها .. فإن ذلك يدخل فى باب الجرم، مثلاً البنوك، المرافق العامة، مجمع الألومنيوم فى نجع حمادى، وجميعها تخدم مشروعات أو قطاعات أخرى وبعضها له طابع استراتيجى ، وليس صحيحًا كما أشاعوا أن القطاع العام كله فاشل وخاسر، وحتى فى الشركة المتعثرة .. امنحها قدرًا أكبر من اللامركزية .. أعطها حوافز لتشجيع العمال والموظفين، يعنى يمكن أن تصلح الفساد فى القطاع العام دون أن تقضى عليه، لكن ما يحدث الآن هو خصخصة طبقًا لتوجيهات خارجية .

*** فى «عصر الجماهير الغفيرة» خرجت بنتيجة غريبة جدًّا أننا فى الواقع لا نعيش عصرًا رأسماليًّا أو اشتراكيًّا، وإنما عصر الجماهير الغفيرة، حيث زاد سكان العالم من 1.5 مليار نسمة فى نهاية القرن التاسع عشر إلى 6.5 مليار نسمة مع بداية القرن الواحد والعشرين، وهذه الجماهير تريد أن تشبع حاجاتها وأن تستمتع بالحياة، وقد صار أمامها نمط وحيد للحياة هو النمط الأمريكى .**

- طبعًا الفكرة فيها كثير من المجاز .. ولكن أيضًا بها كثير من الصحة، وحين يأتى مؤرخ بعد سنة ليؤرخ لعصرنا لن تشغله كثيرًا فكرة أن نمط الاقتصاد الذى كان

متبعًا هو الرأسمالى أو الاشتراكى، وإنما نسبة زيادة السكان وعدد من تخرجوا فى الجامعات والمدارس، ونسبة سكان الريف إلى المدن، والمسألة الأخيرة لها دلالة مهمة فى موضوع الجماهير الغفيرة، يعنى فى النصف الأول من القرن العشرين كانت نسبة سكان المدن إلى الريف 20٪ إلى 80٪ على التوالى، النسبة الآن 50٪ تقريبًا .. هذه الجماهير تريد حياة مترفة، تريد أن تنعم بما تراه حولها من مستحدثات وما تلح به إعلانات التليفزيون على مدار الساعة ، وقد تكون العولمة هى أحد أسباب ظاهرة الجماهير الغفيرة بمعنى أن التقدم التكنولوجى وثورة الاتصالات ساعدت على ربطك بالعالم كله، من ناحية ثانية، فإن الجماهير الغفيرة ذاتها ساعدت على شيوع العولمة، وأيضًا من خلال التكنولوجيا، حيث أمكن لنمط حياة بلد تعداده لا يتجاوز 200 مليون نسمة أن يشيع ويتمدد فى العالم كله.

*** على ذكر العولمة، تناولت فى كتابك «عولمة القهر» النقاط العشر التى طرحها الصحفى الأمريكى توماس فريدمان والتى بموجبها تصبح الدولة «معولمة»، والتى من بينها سرعة الأداء وحجم الاتصال بالعالم الخارجى وما تحصله من معرفة ، وكيفية الاستفادة منها ، واستعداد الدولة لقتل جرحاها ؛ أى التخلص من مشاريعها الخاسرة وشبهت فريدمان بمندوب يروج لسلعة معينة ويبذل قصارى جهده لإقناع المستهلكين بشرائها .**

- أهم اعتراضاتى على ما طرحه «فريدمان» هو أن العنصر الأخلاقى غائب تمامًا، هو يرى أن النموذج الأمريكى هو الأنجح والأجدر بالاتباع، وباعتقاده أن توسيع مساحة الاختيار فيما يتعلق بالسلع والمنتجات يحقق السعادة للمستهلكين، وهذا ليس صحيحًا دائمًا ، فالإنسان يحتاج للحرية وضدها فى الوقت نفسه، وسأضرب لك مثلاً : هب أنك اصطحبت طفلك معك إلى الشاطئ، سيكون سعيدًا فى البداية أن ينطلق بحرية دون أن تقيده أو تفرض عليه الحركة فى مساحة محددة .. لكنه بعد مرور فترة من الوقت سيعود إليك ؛ لأنه يريد أن يشعر

بالأمان والاطمئنان، وهكذا حالة الإنسان ، يريد أن ينطلق لكنه فى الوقت نفسه لا يستغنى عن قيوده.. يعنى الارتباط العائلى ينطوى على قيود لا تستطيع كسرها والعيش سعيدًا بدونها، الحب أيضًا قيد، أن تختار امرأة بعينها وتستغنى بها عن نساء الدنيا، هذا قيد يسعدك فالإنسان لديه هذان البعدان : يريد أن يجرب لكنه أيضًا يحتاج للمألوف، ما تعود عليه وانطبع بداخله، بصرف النظر عما إذا كان هذا المألوف هو الأحسن والأعظم ..

أيضًا مسألة السرعة أو البطء أو التدفق الغزير للمعلومات، فى رأيى أن الإنسان لا يحتاج إلى هذا الكم الكبير من المعلومات، وليس صحيحًا أنك كلما قصرت مدة الحصول على المعلومة ، كان ذلك أفضل ؛ لأن هذا التدفق يحرمك من قدرة التفسير والتأويل والفهم وربط الأحداث ببعضها .

*** هناك مثال مهم أيضًا ذكرته فى «عولمة القهر» عن رواية لأديب أفريقى ، حكى فيها عن قبيلة اعتادت أن تحيا بطريقة معينة، فلما جربت غيرها لأسباب معينة كان مصيرها الفناء، وأظن أن هذه حكاية دالة جدًّا على العلاقة بين العولمة والهوية، خصوصًا أن فريدمان يؤكد أن العولمة لا تلغى الهوية .**

- أريد أن أضرب لك مثلاً فى الفن، عبد الوهاب فى نهاية الأربعينيات بدأ العولمة الموسيقية، ورغم كونه مبدعًا كبيرًا وقدم إسهامات عظيمة للفن والموسيقى، إلا أنه كان يقتبس الموسيقى الغربية ويصب فى قوالبها أغنياته، بعكس ما فعله سيد درويش مثلاً، الذى سافر إلى إيطاليا ، واستمع إلى أوبرات عظيمة وطور الموسيقى عندنا عن طريق هضمه لما تعلمه، لتخرج وفيها من روحه هو دون قهر أو إجبار، يعنى أنا لست ضد التفاعل ، بالعكس التفاعل ضرورى جدًّا للحياة، لكن هناك تفاعلاً صحيًّا وتفاعلاً سامًّا، وبالتالى توجد عولمة صحية وعولمة سامة، والنموذج الذى يحضرنى فى هذا الإطار هو نهرو، الذى كان يقدر أشياء كثيرة فى

الحضارة الغربية ويسعى إلى نقلها للهند، لكنه مع ذلك كان لديه احترام كامل لثقافته وتراثه والحقيقة أن تحقيق هذه المعادلة ؛ أى تحقيق التفاعل الصحى، ليس مسألة صعبة، هى مسألة بسيطة جدًّا، ويمكن تطبيقها بسهولة فى الإعلام والتعليم وكل مجالات الحياة .

*** ربما هذا ما أشرت إليه فى مقال تحدثت فيه عن العلاقة التى جمعت والدك المفكر الكبير أحمد أمين بناظر مدرسة القضاء الشرعى عاطف بركات ، والذى كان منحازًا للفكر الغربى ، فيما كان أحمد أمين منحازًا لكل ما هو شرقى إسلامى؟**

- بالضبط، هذا نموذج مهم جدًّا، ولو صحت النية فى مسألة التعليم مثلاً «يِرْجَعُوا» لكتب المطالعة التى كانت تدرس فى الأربعينيات، «ويروا» النماذج التى كان الطلبة يدرسونها عن كتاب الأغانى للأصفهانى وكتب التراث، وفيها حب للحياة ولغة عربية عظيمة، تحببك فى الحياة وفى اللغة العربية معًا .

*** إذا كانت المسألة بسيطة إلى هذا الحد ، فما الذى يعطلها؟**

- ما يعطلها إننا لدينا سلطة تخرب أعظم بلد ؛ أى إجراء فيه مصلحة يمنعونه ؛ لأنهم فى الحقيقة لا يعرفون مصلحتهم ولا مصلحة البلد !

*** أعرف انحيازك للرئيس عبد الناصر عمن خلفاه، ما الذى يميز عبد الناصر وعهده عن السادات ومبارك؟**

- فى اعتقادى أن عبد الناصر له ميزتان عن السادات ومبارك، **أولهما** : أنه رجل محترم يعنى إذا سفير أو دبلوماسى أجنبى تفوه أمامه بشىء يمس البلد، يطرده دون تردد؛ لأنه لا يقبل إهانته ولا إهانة بلده، أيضًا المحيطون بعبد الناصر من الوزراء ورؤساء الوزراء كانوا فى معظمهم أناسًا محترمين ، وتحضرنى هنا حكايتين ،

حكاهما صلاح الشاهد فى كتاب «ذكرياتى بين عهدين» ، تؤكدان ما أقول ، تقول إحداهما إن الشاهد اشترى لأبناء عبد الناصر كاسيت من الخارج وكان مكلفًا بمهمة دون علم عبد الناصر، فلما عاد عبد الناصر ووجد الكاسيت ألقى به من النافذة. وتقول الحكاية الثانية أنه رفض أن يمسك ملك اليونان بذراع زوجته وفقًا للتقاليد البروتوكولية، واحترم أكثر تقاليد شعبه، هذه مسألة برغم أنها شكلية إلا أنها مهمة ؛ فرئيس الدولة يجب أن يعكس سلوكه احترامًا لتقاليد شعبه وتفضيلاته ..

الميزة الثانية : أن الظروف الدولية ساعدته على تحقيق ما لم يستطع السادات أو مبارك تحقيقه، وبالتالى استطاع خلال 10 سنوات (من 1956 1965) أن يحقق إنجازات عظيمة، فى السياسة والاقتصاد والفن والأدب والمسرح والسينما، وهذا يعطيك مؤشرًا أنه يمكن تحقيق أعمال عظيمة فى فترة زمنية قصيرة إذا خلصت النوايا، وما يدهشنى أن السادات ومبارك من بعده كانا مهيئين للتعامل مع الواقع الردىء والملبد بالغيوم الذى عشناه ومازلنا نعيشه، لكنهما لم يحققا لنا أى مكاسب، وأتصور أن عبد الناصر لو كان عاش حتى هذه الظروف لانسحب أو مات كمدًا، وأظن أن موته بعد الهزيمة والموافقة على مبادرة روجرز له دلالة .

*** لم تقدم تقييمًا لأداء الرؤساء الثلاثة؟**

– الأداء فى الحقيقة كان تابعًا لهاتين الميزتين : يعنى عبد الناصر حقق إنجازات فى الجوانب الاجتماعية مازال الناس يعيشون عليها حتى اليوم، كثيرون ممن دخلوا الجامعات ما كان ممكنًا أن يدخلوها لولاه، التنمية الاقتصادية الرائعة التى حدثت فى السنوات العشر التى أشرت إليها، طبعًا مسألة الحريات كانت غائبة ولم يلتفت إليها إلا بعد هزيمة يونيو ..

لكن أهم ما يجمع بين عهدى السادات ومبارك هو ضعف الدولة .. الدولة صارت أكثر رخاوة، ولعلنا نتذكر هنا قول جمال حمدان نقلاً عن نابليون أن أكثر بلد فى العالم ينهار إذا ضعفت الدولة هو مصر، وأعتقد أن هذا صحيح .

*** أخيرًا يا دكتور جلال دعنى أستعر عنوان أحد كتبك الجميلة على صغر حجمها وأسألك عن «التنوير والتنوير الزائف» فيما تراه حولنا ؟**

- باختصار التنوير الزائف هو أن تظل تكرر ما يقال عن تجربة الغرب فى التنوير متوهمًا أنها تصلح لك، أما التنوير الحقيقى فهو وإن كان أساسه العقل، فيجب أن يكون عقلك أنت وأهواءك أنت ؛ أى أن ترى مصالحك وتحكم عقلك فى تجارب التنوير التى تختارها .

* * *

سلامة احمد سلامة

الحزب الوطنى بلا رؤية سياسية
ولا يمكنه أن يحدث تغيرًا

- انتباه .. نحن الآن فى حضرة النزاهة والاستقامة المهنية والإنسانية .. هنا كاتب محترم ، قلم شريف غير قابل للكسر .. عصىٌّ تمامًا على كل محاولات البيع والشراء .. صحفى من طراز رفيع .. ينتمى إلى قلة من أساتذة المهنة توشك أن تندثر .. تؤمن بأن لديها رسالة .. وأن كلماتها ليست «بين بين» فهى إما ورد تنثره على جبين الشرفاء من أبناء الوطن .. أو شذرات من جمر تلقى بها فى وجوه الظالمين والمفسدين..

سلامة أحمد سلامة ، مدير تحرير الأهرام الأسبق .. ورئيس تحرير مجلة «وجهات نظر» ذات المستوى الثقافى الرفيع .. وصاحب المقال الرصين الرشيق «من قريب» .. من عجينة خاصة .. تحمل قيمًا فلاحية أصيلة .. وخبرات حداثية بالغة الرهافة .. تجعله الأولى بمنأى دائمًا عن مواطن الشبهات .. وتعطيه الثانية سمات عصره ومفرداته ..

عن شجون المهنة والإصلاح والتوريث والفساد والديمقراطية وغياب الدولة.. يحدثنا سلامة أحمد سلامة .. من قريب جدًا .

*** واقعنا الصحفى يشتمل على أنماط ثلاثة من الصحف، وفقا لنمط الملكية؛ حكومية وحزبية ومستقلة، أرجو أن تلقى نظرة على الصحافة فى مصر الآن؟**

- أعتقد أن الصحافة فى مصر الآن تمر بمرحلة مهمة جدًّا، وتغيرت مع تغير الظروف السياسية بطريقة سليمة، ورغم كل العيوب والانتقادات التى توجه إليها، فإن هذه التغيرات ستؤدى فى النهاية إلى أن تخرج بالصحافة المصرية عمومًا من مرحلة الوصاية إلى مرحلة أكثر نضجًا، وأكثر حرية، وأكثر تطابقًا مع احتياجات المجتمع ومع الوضع السياسى الذى يخلق أوضاعًا جديدة، نرجو أن تحقق الأهداف المرجوة منها.

*** هل أنت مع إطلاق إصدار الصحف دون قيود؟**

- أنا مع إطلاق إصدار الصحف بشكل مطلق، ودون حاجة إلى تراخيص مسبقة، ويكتفى بالإخطار فقط، على أن يتضمن القانون قواعد مالية ومهنية تضمن حقوق العاملين واستمرارية الصحيفة، وهنا فى الحقيقة يمكن أن نشير إلى استبدال الغرامة بالحبس، وتكون غرامة ضخمة، بحيث لا يستطيع أحد أن يغامر وينشر أخبارًا كاذبة أو أشياء تتضمن سبًّا وقذفًا؛ لأن هذه الغرامة يمكن أن تغلق الجريدة أو تجعله يفكر ألف مرة قبل الإقدام على خطأ من هذا النوع.

*** أستاذ سلامة، أنت متهم بالدعوة إلى بقاء القيادات الصحفية فى مواقعها رغم أنها أمضت ما يزيد على عشرين عامًا، وصلت فيها مؤسساتها إلى مستويات متدنية ماليا ومهنيا؟**

- هذا اتهام غير صحيح، منذ البداية لم أكن موافقًا على بقاء القيادات الصحفية فى مواقعها لفترات طويلة، وكتبت فى هذا المعنى أكثر من مرة، لكن فجأة وجدت أن الدولة ودون مقدمات بدأت تفكر فى تغيير القيادات الصحفية لأسباب تخصها هى!

*** ما هذه الأسباب؟**

- أتصور أن الحزب الوطنى كان مقدمًا على مرحلة معينة من التغيير، ووجد أن القيادات الموجودة على رأس الصحف الحكومية ، والتى يعتبرها أدوات تعمل لحسابه، لم تعد قادرة على التعبير عن المرحلة الجديدة التى لمع فيها نجم لجنة السياسات، فبدأوا فى عملية التغيير دون دراسة أوضاع الصحف الحكومية ماليًّا وإداريًّا ومهنيًّا، وهذا ما وقفت ضده بالضبط .. لم أقل لهم لا تغيروا، ولكنى طالبتهم بدراسة أوضاع هذه المؤسسات بدقة، على الأقل ليكون معروفًا بالنسبة لهم من هى القيادات التى تستحق أن تتولى مسئولية هذه الصحف ؛ لأن هذه الصحف عندها مشاكل ضخمة مالية وإدارية، وهذا ما اتضح بعد أن تولت القيادات الجديدة المسئولية، حيث وجدوا أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه، ديون بمئات الملايين وأوضاع مالية ومهنية غير سليمة، وجدوا أنفسهم فى «حيص بيص» .

*** فى إطار ما تدعو إليه من إصلاح لأوضاع المؤسسات الصحفية الحكومية، هل ترى أن الخصخصة يمكن أن تكون بداية صحيحة؟**

- أعتقد أن الصحافة الحكومية إذا لم تغير نظام ملكيتها فهى مقدمة على عملية انتحار قريب ؛ لأن النظام الاقتصادى فى البلد كله تغير، دخلت فى إطار اقتصاد حر وسوق مفتوح، خصخصت البنوك وتحللت من كثير من المشاكل الخاصة بالقطاع العام، وتقول إنك مقدم على إصلاح سياسى، هذا الإصلاح السياسى يتطلب أن الصحف المسماة بالقومية لا تكون خاضعة للحكومة أو الدولة؛ لأنك إذا أجريت بالفعل إصلاحًا سياسيًّا ومارست الديمقراطية كما نفهمها، فإنك نظريًّا، تصبح معرضًا لتداول السلطة؛ أى أن تأتى حكومة ليست بالضرورة حكومة الحزب الوطنى، حكومة معارضة أو ائتلافية، ولابد أن تستعد الصحف

الحكومية لهذا، ليس فقط لأسباب اقتصادية ، وإنما أيضًا للسبب السياسى الذى ذكرناه ؛ أى أن تتحرر هذه الصحف من سيطرة الدولة، بحيث تكون قادرة على التواءم مع الإصلاح السياسى المطلوب .

* كيف؟

- هناك اقتراحات كثيرة، وكثير من الدول مرت بتجارب من هذا النوع، يعنى كل دول أوروبا الشرقية وفى روسيا نفسها التى كانت خاضعة لنظام شمولى، الصحف فيه مملوكة للدولة أو للحزب، تغير هذا ونجحوا فى التغلب على هذه المشكلة ووضعوا أسسًا جديدة للتعامل ..

من هذه الحلول مثلاً أن تحول هذه المؤسسات إلى شركات مساهمة ، وتجعل للعاملين الحق فى الحصول على أسهم فيها، ومنها أن تجعل للدولة نسبة معينة من الملكية، وتطرح بقية الأسهم للأفراد بقواعد معينة تحدد ملكية كل فرد أو فئة لتمنع الاحتكار والسيطرة ..

يمكن أن تلجأ للأسلوب التعاونى ، الذى يمثل نمط الملكية فى جريدة «لوموند»، وكانت هذه الفكرة طرحها الأستاذ هيكل بعد أن غاب عن «الأهرام» مالكها الأصلى «سليم تقلا»، فقد اقترح أن تطرح أسهم المؤسسة ليتملكها العاملون، ويكون من حقهم عند الخروج على المعاش الاستفادة من قيمة هذه الأسهم، وهذه الفكرة معمول بها فى شكل صندوق الزمالة أو صندوق العاملين، وبهذه الطريقة أنت تتخلص فى الواقع من فكرة أن الدولة لأنها المالكة فهى التى تعين رئيس التحرير ورئيس مجلس الإدارة ، وهى المسئولة عن كل شىء، وهذا نظام لا يوجد مثيل له فى العالم الآن، وآن الأوان أن ينتهى ..

هذه بعض المقترحات التى تحتاج إلى دراسات جدوى ، يقوم بها قانونيون واقتصاديون قبل أن تطبق، ولابد أن نعرف أن عددًا كبيرًا من الصحفيين فى هذه

المؤسسات ضد خصخصة الصحف؛ لأنهم يخشون إن حدثت خصخصة أن يفقدوا مميزاتهم ووظائفهم، ولكنى أعتقد أن تغيير نمط الملكية على النحو الذى أشرنا إليه سيؤدى إلى التخفيف من أعباء هذه الصحف وينقذها من كم كبير من العمالة ، التى تفرض عليها لأسباب غير مفهومة ولمصالح خاصة فى كثير من الأحيان، يعنى الصحافة دخلت فيها خواطر ومحسوبيات أوجدت فئة غير مؤهلين مهنيًا وغير صالحين للعمل، ولا يمكن أن تلفظهم خارج المؤسسة، وصار هؤلاء هم «الجزء الميت» فى كثير من الصحف الحكومية، هؤلاء يشبهون «ثقالة» تهبط بالمؤسسة إلى أسفل ولا تصعد بهم إلى فوق .

*** ذكرت فى حديثك عن التغيير أن الدولة وجدت أنها بحاجة إلى قيادات صحفية جديدة تعبر عن توجهات جديدة، هل ترى أن القيادات الجديدة عبرت فعلاً عن ظروف جديدة يعيشها المجتمع؟**

- أعتقد أن القيادات الجديدة حاولت بقدر ما تستطيع، لكن «السقف» الذى تعمل فى ظله محدود، لا أريد أن أطعن فى كفاءة أحد، وأعتقد أنه من الممكن أن يقود صحفى صغير السن نسبيًا مؤسسة صحفية ، ويحقق فيها نجاحات كبيرة ما دام جمع الخبرات التى تؤهله لهذا، لكن هذا يستلزم شروطا مختلفة ؛ أولها مثلاً ألا يشعر أنه خاضع لولاية حزب أو جهة سياسية معينة ؛ لأن هذا يكبله ويجعله غير قادر على الإبداع والتجويد بما يتفق مع الظروف الجديدة .

*** إذًا هو يعمل فى ظروف سيئة مثل سابقيه؟**

- وربما أسوأ لأن السابقين بحكم الخبرة والتجربة ربما كانوا أكثر جرأة وأكثر اقترابًا من المستوى المهنى المطلوب، ولكن القيادات الجديدة تشعر أنها فى موضع اختبار، وأنها جاءت وفق إرادة سياسية معينة، وهذه الإرادة هى التى تضمن له

الاستمرار أو الخلع، والمقياس لن يكون مهنيًّا فى هذه الحالة وإنما إلى أى مدى استطاع أن يرضى هذه الإرادة السياسية .

*** بمناسبة الإصلاح، يبدو مما تكتبه أنك لست واثقًا تمامًا من أن الكلام عن الإصلاح جدى ، أو أنه ينطوى على أفعال يمكن رؤيتها فى المستقبل القريب؟**

- يعنى إذا نظرنا إلى مشكلة كالتى تناقش حاليًا، مشكلة تغيير الدستور أو التعديلات المقترحة لبعض مواده، سنجد أن ندوات كثيرة عقدت داخل الأحزاب، وفى مؤسسات المجتمع المدنى، وقُدمت فيها مقترحات مهمة، ويصبح السؤال هو : أين تذهب حصيلة هذه الندوات والمناقشات التى تعبر عن آراء ورؤى سياسية مختلفة؟

وما سيحدث أن مجلس الشعب على أوائل أبريل سيكون انتهى من مناقشة والتصديق على المواد المراد تعديلها فى الدستور لتطرح بعد ذلك للاستفتاء العام، هذا كلام عبث، وهذا ما جعل الناس تشكك فى جدوى الإصلاح وجديته ؛ لأن ما يجرى هو عملية «سلق»، وما يريده الحزب الوطنى سيفعله ؛ لأنه يملك الأغلبية البرلمانية، وهى أغلبية تغيب عنها الرؤى السياسية، لا يمكن أن تتصور أن يأتى التغيير من خلالهم .

*** يعنى الحكومة ذاتها لا تأخذ موضوع الإصلاح بجدية ..**

- كل المؤشرات تؤكد هذا ؛ لأنه لو كانت الحكومة تأخذ الموضوع بجدية فإن الترتيب يجب أن يكون مختلفًا، والحاصل أن «فيه حاجة يتم طبخها» وستخرج إلى الناس فى الوقت المناسب الذى يرونه هم، إلى أى حد ستستجيب هذه الطبخة لشهية أصحاب الشأن، لا أحد يعرف ولا توجد مقاييس أو معايير يمكن أن تدلنا على شىء، وحتى البعض من داخل لجنة السياسات نفسها يبدون مخاوفهم من أن الإصلاحات لن ترقى إلى المستوى المطلوب .

*** هناك «طبخة» أخرى أكثر حساسية أود أن أعرف رأيك فيها، وهي المتعلقة بالتوريث؟**

- في وقت من الأوقات كان هناك ضغط خارجي، أمريكي بالأساس في أن تأخذ عملية الإصلاح مداها، وأن يكون الإصلاح حقيقيًا يؤدى إلى تداول السلطة بطريقة مشروعة، هذه الضغوط تقريبًا توقفت، ولم تعد أمريكا مهتمة وتركت الأمور تجرى وفقًا لظروف كل بلد، وقد يكون هذا من عوامل التشجيع للدفع فى اتجاه التوريث، لكن وضح من ناحية أخرى أن هناك مقاومة لفكرة التوريث، وهذه المقاومة بدت حتى فى خطاب الرئيس الأخير، الذى كانت رسالته الواضحة أن فكرة التوريث فى حياته لم تعد واردة .

*** فى المعادلة السياسية طرف شديد الأهمية بصرف النظر عن الاتفاق أو الاختلاف معه مُبعد قانونيا، لكنه موجود ومؤثر، أعنى الإخوان المسلمين وهى جماعة تنعش لدى قطاعات من الناس آمالا معينة، لكنها تحرك لدى بعض آخر مخاوف من النكوص عن الديمقراطية فى حال تمكنهم؟**

- المخاوف تجاه الإخوان تبقى مشروعة ما لم نتخذ ما يمنعها، وفى ظل أى نظام سياسى ، يجب أن تضع من الضوابط ما يمنع أن ينقلب فريق سياسى على الديمقراطية، فى مرحلة لاحقة، وهى عملية ممكنة وليست صعبة، وأنا أرى أنك لا تستطيع أن تقيم نظامًا ديمقراطيًا صحيحًا وأنت تستبعد جماعة مهمة ، وإن كانت لها صبغة دينية وتتجاهلها وتتعامل معها بمنطق أمنى، لابد هنا من حلول سياسية، وهذه الحلول لن تتحقق إلا إذا مكَّنا هذه الجماعة من أن تقيم حزبًا شرعيًا مثل الأحزاب الأخرى، على غير أساس دينى، بوسع الجماعة أن تقيم حزبها، وأن يكون المحتوى الفكرى لبرنامجها دينيًا .. لكن الجماعة ذاتها لا يقوم حزبها على أساس دينى، ولابد أن تقبل جماعة الإخوان هذا إذا أرادت أن تبقى فى

المسرح السياسى، وضمن النسيج السياسى الموجود، وأعتقد أنهم لا يمانعون، لكنهم يحتجون بأن قانون الأحزاب الموجود يضع قرار إنشاء حزب من عدمه فى يد الحزب الوطنى، ولهم حق فى هذا، ولابد أن يختلف قانون الأحزاب، وفى هذه الحالة لا تكون لهم حجة فى أن يقيموا حزبا على غير أساس دينى، وأعتقد أن هذا الحل ضرورى، وطُبق فى أكثر من دولة، فى المغرب مثلاً يوجد حزب العدالة والتنمية وهو ذو صفة إسلامية، وله ممثلون فى البرلمان وربما يشارك فى الحكومة المقبلة، فى الأردن يوجد للإخوان المسلمين ثلاثة وزراء فى الحكومة القائمة، وتجربة تركيا كذلك أمامنا .

*** قراؤك يدهشهم هذا القدر من الاستقلالية ، الذى يتبدى فى معارضة قوية فى كثير من الأحيان للسياسات الحكومية ، رغم أنك صحفى فى مؤسسة حكومية، كيف نجحت فى الحفاظ على هذه الاستقلالية؟**

- أعتقد أن توفيقى فى الوصول إلى هذه الصيغة، هو التزامى بعدد من **القواعد الذهبية**، منها : ألا يخرج الكاتب عن حدود الأدب فى النقد، فلا يستخدم ألفاظًا تمثل سبابًا أو تجريحًا، والكاتب الشاطر هو الذى يستطيع أن ينتقد بمشرط حاد جدًّا دون أن يسيل دمًا ..

القاعدة الثانية : هى اعتماد الكاتب على معلومات مدققة، وإذا لم تكن لديه معلومات مؤكدة فى الموضوع الذى يكتب فيه، فعليه أن يبين للقارئ أن ما يكتبه هو «ظنيات» أو احتمالات أو ترجيحات، فيضمن لنفسه حق الرجعة إذا ثبت خطؤه، وقد يكون هذا هو السبب فى أن ما أكتبه من نقد لا يمس أشخاصًا بقدر ما يتعرض لسياسات ..

وهناك قاعدة تعلمتها من أستاذنا مصطفى أمين مفادها: أن من يخف فلا يكتب ومن يكتب فلا يخاف .

*** ربما يكون هذا هو الجزء الشخصى فى الموضوع، أن يشعر الكاتب بالاستغناء والترفع عما يجعله فى حالة استجداء من السلطة ومطالبها؟**

- هذا صحيح إلى حد كبير، والحقيقة أن هذا الاستغناء أعطانى أكثر مما كان ممكنًا أن تعطيه لى أية جهة أخرى أو سلطة أخرى، أعطانى قدرًا كبيرًا من ثقة الجمهور والزملاء وحتى من المسئولين، فقد عرفوا أنهم لا يستطيعون شرائى وهذه ثروة فى حد ذاتها .

*** هناك قضية مهنية مهمة أود أن نلقى الضوء عليها تتعلق بالدور المفترض للصحافة فى ظل هيمنة كاملة للفضائيات على السبق الخبرى، هل تراجع الخبر فى الصحيفة؟ وكيف يمكن معالجة هذه المسألة؟**

- أتصور أننا نعيش فى مرحلة تفوقت فيها الفضائيات على الصحافة فى الناحية الخبرية، فلم تعد الصحافة مطالبة بالسبق الصحفى الذى كان يحدد مدى نجاح الصحيفة، صار السبق هنا هو تحليل الخبر، وما وراء الخبر؟ ما (الألعاب) التى جرت قبل صدوره؟ وهذا ما لجأت إليه صحف الغرب ، التى واجهت هذه المشكلة قبلنا بفترة طويلة؛ إذ لم تعد مهمتها هى أن تنشر خبرًا، وإنما أن تحلله وتنقل ما وراءه، هذا ما يجعل هناك فرقًا بين الصحيفة المطبوعة والفضائيات، والنقطة المهمة هنا هى أن القيام بهذا الدور يحتاج إلى درجة أكبر من الشفافية، وإتاحة أوسع للحصول على المعلومات، وهذا غير موجود فى مصر .. لا يوجد قانون يعطى للصحفى الحق فى الحصول على المعلومات، ومازلنا حتى الآن نعانى فى الحصول على المعلومة، من مصادرها، ويكون البديل فى هذه الحالة أن يعتمد الصحفى على حدسه أو افتراضاته، فينشر أشياء قد لا تكون صحيحة مائة بالمائة ، ويدخل بها إلى دائرة المحاسبة .

*** بدأت فى مدرسة أخبار اليوم وانتقلت بعد ذلك إلى الأهرام، وتعاملت عن قرب مع كل من مصطفى أمين وهيكل على ما بينهما من تنافر، ما الذى استفدته من كليهما؟**

- الحقيقة أنه لا يمكن اعتبارهما متنافرين أو مدرستين مختلفتين، فقد بدأ هيكل مشواره الصحفى من مؤسسة أخبار اليوم، وكانت مدرسة صحفية جديدة فى وقتها، مدرسة قائمة على الخبر الصحفى والجمل التلغرافية القصيرة، وتخاطب الطبقات الشعبية فى الأساس، وأعتقد أن مصطفى أمين نجح فى أن يدخل هذه الطريقة فى الكتابة الصحفية، بعد أن كان السائد هو الجمل الطويلة والبلاغة والعبارات الرنانة ذات الطبيعة الخطابية، فهذا هو أهم شىء تعلمته من مدرسة مصطفى أمين، كما أنه كان حريصًا على رعاية المواهب وقادرًا على التواصل مع مختلف الأجيال ، وهذه من ميزاته العظيمة ..

هيكل تعلمت منه أن الصحفى لا يكون صحفيًّا إلا إذا كان لديه من المعلومات ما يوازى ما لدى أكبر رأس فى البلد، وهو عنده من مصادر المعلومات ما يجعله قادرًا على الحصول على أدقها فى أى موضوع، وهى مصادر متنوعة وفى كل الاتجاهات، مصادر الأخبار عنده باستمرار متدفقة ومتجددة، تعامل مع تكنولوجيا الاتصالات والإنترنت فى وقت مبكر جدا، أيضا هو قارئ جيد ومطلع باستمرار على كل ما يجرى فى العالم وما يصدر من كتابات، لغته العربية سليمة وجميلة، وهذه ميزات أكسبته فرادة خاصة، وجعلت المقال السياسى الذى يكتبه قطعة أدبية .

*** عاصرت أجيالاً مختلفة من الصحفيين، ما الذى تراه فى جيل الشباب من الصحفيين، ما الذى يميزه وما الذى ينقصه؟**

- الجيل الحالى لديه إمكانات هائلة، وعاش فى ظروف أفضل من الناحية التكنولوجية، ولكنه لم ينجح فى الاستفادة من هذه الإمكانات كما ينبغى، يعنى

المفروض فى ضوء هذه التطورات فى المعرفة أن يستفيد منها ، وأن يكون أكثر معرفة حتى من المسئولين والوزراء ..

وحتى على المستوى التقنى، فليس هناك اهتمام بالتدريب المستمر، والدورات التى تقيمها النقابة ليست كافية ؛ لأنها تشبه الدراسة النظرية فى كليات الإعلام وهذا غير كاف .

*** لعلك تتابع أحيانًا بعض ما تأتى به «المدونات»، هذا النمط من الصحافة أو الكتابة الحرة التى زاد تأثيرها فى الفترة الأخيرة، حتى إن ما كتب عن موضوع التحرش الجنسى بوسط القاهرة كان مصدره إحدى المدونات؟**

– أهمية المدونات بدأت مع حرب العراق، فقد كان هناك شخص يكتب مذكرات يومية عما يجرى، يعنى ما يشبه يوميات الحرب، وكانت هذه اليوميات فى غاية العمق واستخدمتها صحف عديدة، لكن المشكلة التى تواجهك هنا هى أنك لديك مادة ذات محتوى مثير ، ولكنك لا تعرف مدى مصداقيتها، ولا يمكن التعامل مع ما تبثه على أنه حقائق مجردة، وهذا يرتب عليك مسئولية كصحفى أنك لابد أن تتأكد من دقة هذه المعلومات .

*** بمناسبة ما أثير عن التحرش، أذكر أنك كتبت وقتها تشير إلى دور الدولة وسياساتها الخاطئة فى وصول المسألة إلى هذا الحد؟**

– دون شك الدولة مسئولة ؛ لأنها خلقت حالة من القمع والكبت، قمع تمارسه الدولة بنفسها، وقمع داخل الأسر، يعنى فى الدول المتقدمة الطلاب يمارسون السياسة .. ولكن الأحزاب لا تدخل الجامعة وكل جامعة يكون لديها برنامج توعية أو تنمية سياسية يشارك فيه الطلاب، وهنا فى مصر لدى الجامعة الأمريكية برنامج سياسى يشارك فيه الطلاب على مدار العام، يتناقشون فى عديد من القضايا ويختلفون ويقترحون بعيدًا عن الأحزاب، بطريقة منظمة ومنضبطة، هذه

هى التربية السياسية التى يجب أن يتلقاها الطلبة فى الجامعة، أن تعطى للشباب الحق فى أن يعبر عن نفسه ..

الشباب فى مصر صعبان علىَّ جدًّا، أنا أرى أن الشباب فى الخارج عاش سنه ومنطلق ومشارك وناجح، وبعض قيادات الأحزاب فى الخارج فى العشرينات من عمرهم والآفاق أمامهم مفتوحة، أما عندنا فلا شىء من هذا ومراكز الشباب عندنا فاشلة ولا تقوم بأى دور ، المطلوب أن نفتح آفاقًا للشباب لا أن نسد أمامهم المنافذ.

* * *

أدونيس

ثقافة الأنظمة العربية قائمة على التبشير والمدح

بدعوة من مكتبة الإسكندرية، حل الشاعر والمفكر السورى على أحمد سعيد «أدونيس» ضيفًا على مصر لمدة أسبوعين، يلقى خلالهما محاضرات ؛ ويلتقى باحثين ودارسين من كافة الجامعات، فى إطار برنامج الباحث المقيم الذى يستمر حتى السادس عشر من نوفمبر .

وكان مهمًّا أن نستمع إليه، ليس فحسب بوصفه واحدًا من أهم الشعراء العرب فى القرن العشرين وإنما كذلك لكونه الأكثر إثارة للجدل والصخب والتساؤلات بما يطرحه من رؤى وما يثيره من قضايا، ساهمت فى إشاعة مناخ نقدى منذ صدور كتابه «الثابت والمتحول» قبل خمسة وثلاثين عامًا، وربما قبل ذلك .

أدونيس من مواليد قرية «قصابين» فى سوريا فى 14/ 9/ 1930، ينتمى إلى عائلة فلاحية فقيرة، أب علم نفسه الشعر وتفقه فى الدين حتى عدوه شيخًا، وأم «حسناء الرياحى» أمية .

درس فى كتاب القرية حتى سنة 1944 حين حدث ما غيّر حياته ؛ إذ كانت سوريا تحتفل باستقلالها، فكتب الفتى الصغير قصيدة وأصر أن يلقيها أمام الرئيس

شكرى القوتلى على بعد أميال حيث مقر الاحتفال، أعجب الرئيس بالقصيدة وسأل الفتى عما يريد؟ فأجابه : أريد أن أتعلم، وكانت هذه هى البداية .

واصل أدونيس دراسته حتى حصل على ليسانس الفلسفة من جامعة دمشق عام 1954، فى الوقت الذى يواصل فيه كتابة الشعر والمقالات، وانضم إلى الحزب السورى القومى الاجتماعى الذى رأسه أنطون سعادة، والذى رثاه أدونيس عقب إعدامه سنة 1949 بقصيدة عنوانها «قالت الأرض»، أثارت ضجة كبيرة فى حينها عاش فى بيروت سنوات مجدها الأدبى والثقافى وغادرها فى 1986 إلى باريس ، حيث يعمل أستاذًا «زائرًا» فى جامعة السربون .

ترجمت أشعاره إلى لغات عالمية عديدة، كما حصد عشرات الجوائز الأدبية العالمية ، وله مؤلفات شعرية عدة منها : قالت الأرض ، وأوراق فى الريح ، وأغانى مهيار الدمشقى، ووقت بين الرماد والورد ، ومفرد بصيغة الجمع ، والكتاب أمس المكان والآن .

كما أن له مؤلفات نثرية مهمة، من بينها زمن الشعر، مقدمة للشعر العربى، الشعرية العربية، الصوفية والسوريالية، النظام والكلام . أما أكثر كتبه إثارة للجدل فهو كتابه الثابت والمتحول بحث فى الاتباع والإبداع عند العرب، والذى صدر عام 1974 ، وإلى اليوم لم يتوقف الجدل حوله .

*** تميز دائمًا بين ثقافة السطح وثقافة العمق، وتعتقد أن الأولى تهتم بالسلطة فيما تهتم الثانية بالطبقات الفقيرة، لكن الإشكالية التى تواجهنا هنا هى أن ما يشكل ثقافة الطبقات الفقيرة هى آليات السلطة وأجهزة إعلامها، كيف لنا أن نعالج هذه المسألة؟**

- إذا كانت الثقافة مجرد إعطاء معلومات أو أخبار أو نشر تقارير فقد ينطبق عليها ما تقول، لكن الثقافة بمعناها الواسع، أعنى العادات والتقاليد والمعرفة المتراكمة

عبر أجيال، هذا هو المعنى الأشمل للثقافة، وإذا كنا نتكلم عن الثقافة، فنحن فى الحقيقة نقصد هذا النوع الذى يسمونه ثقافة عالمة ؛ أى تلك التى لديها قضايا أساسية يطرحها المثقفون ويناقشونها ويقدمون لها حلولاً واضحة ..

والحقيقة أن الأنظمة العربية فى مجملها ليس عندها فكر تطرحه، هذه الأنظمة يمكن أن «تشل» كل وسائل الفكر لكى تحافظ على وجودها، أو تنشر ثقافتها الخاصة القائمة على التبشير والمدح وعدم النقد والحديث المستمر عن الإنجازات، وهذا إعلام وليس ثقافة فى واقع الأمر، أو أنها تراقب الجامعات وتحد من إمكانات تطورها وإتاحة أكبر قدر من حرية الفكر بين قاعاتها، وسنلاحظ مثلاً أن الأنظمة الديكتاتورية ذات طبيعة أيديولوجية؛ فالبعث مثلا كان يبنى ثقافة وفقًا لأيديولوجية النظام ورغبات الحاكم، وهذا بالضبط ما يجب أن نقف ضده، يجب أن نكون ضد أى ثقافة تبنى على أيديولوجية، أيًا كانت هذه الأيديولوجية، دينية أو غير دينية ..

وبشكل عام فقد كان هناك دائمًا فى المجتمع العربى صراع بين ثقافة السطح وثقافة العمق، ثقافة الاستهلاك وثقافة الإبداع، ثقافة المتاجرة وثقافة المغامرة، الأولى تجمع وتكدس وتعتبر الأشياء لذاتها وبذاتها، والثانية تفجر وتغير وكما أشرت فقد كانت الأولى ترتبط دائمًا بالطبقات المسيطرة ومؤسساتها، فيما ارتبطت الثانية بالطبقات الفقيرة المحرومة .

*** أريد أن أعود سنوات إلى بدايات الحداثة العربية ، كما تبنتها مجلة «شعر» ، ثم مجلة «أدب» فيما بعد، وهى قامت أساسًا على أفكار ترمى إلى هدم النظام القديم كله وإنشاء نظام آخر جديد بديلاً عنه، إلى حد أن واحدًا مثل الشاعر عبد القادر الجنابى كان يقول : إن المجتمع العربى فى أشد الحاجة إلى العقل حتى يخلصه من عبودية الوحى ورسالته البالية .**

*** هل مازلت ، بعد مرور أكثر من ثلث قرن على هذه الدعوات ، عند موقفك من الحداثة؟**

- أولاً : أنا مسئول عما قلته شخصيًا ولست مسئولاً عما قاله غيرى فى هذا الموضوع، وما قلته وأوردته فى مقدمة ديوان الشعر العربى الذى كتبته فى ستينات القرن الماضى أن الهدف من هذا الديوان، هو تخطى هذا التناقض المصطنع بين ما نسميه قديمًا وحديثًا، فالشعر واحد لا يتجزأ، وإنما هناك تغير فى طرق التعبير، فطرق التعبير فى عصر ما قبل الإسلام - وهذه التسمية التى أحبذها وليس العصر الجاهلى كما هو شائع - كانت قائمة على أسس تختلف كليًا عن تلك التى قامت عليها طرق التعبير فى المرحلة العباسية ، ولذلك لا نستطيع أن نقول إن الشعر فى المرحلة العباسية أحدث قطيعة كاملة مع الشعر قبل الإسلام، وهكذا هو اليوم، الشعر العربى اليوم لا يحدث قطيعة مع شعر امرئ القيس أو طرفة بن العبد أو أبى نواس أو المتنبى، وإنما يحاول أن يفصح عن تجربته بطرق مختلفة عن الطرق السابقة ، وإلا إذا لم يعبر بهذه الطريقة الجديدة، فهذا يعنى ضمنًا ألاَّ تجربة له؛ لأن الدليل على أن لديك تجربة خاصة هو تعبيرك الخاص عنها، وإذًا الشعراء فى كل التاريخ وليس فقط التاريخ العربى، أشبه بأشجار تعيش معًا فى غابة واحدة، لكن لكل شجرة مميزاتها، لا يوجد تناقض وإنما تكامل، ولا يمكن لشاعر أن يبتكر جمالية جديدة، بلغة يجهل تاريخها الجمالى، فالشاعر العربى الحديث لكى يبتكر حداثة جديدة، لابد أن تكون له معرفة كبرى باللغة العربية التى يكتب بها ، معرفة باللغة الشعرية ، بالشعر .. إذًا لا قطيعة على هذا المستوى، القطيعة تحدث مع الظاهر الشكلى التعبيرى، وليس مع الشعر كشعر .

*** هذا التصور الذى تقدمه ينفى ما ردده كثيرون من نقادك من أنك تدعو إلى قطيعة تامة مع التراث العربى الشعرى .**

- وهل من يدعو إلى هذه القطيعة يكتب ديوان الشعر العربى على النحو الذى فعلته، هذا كلام كثير يتردد خطأ ومردِّدُوه للأسف لا يقرأون ، المسألة المهمة هنا أن الفن يجب ألاَّ يتم حصره فى أشكال معينة، الفن أمامه إمكانات لانهائية من

التشكيلات والتعبيرات، ولا يعنى هذا أبدًا أن نلفظ القديم لمجرد أنه قديم، لقد أطلقتُ تشبيهًا شائعًا من قبل قُلتُ فيه إننا إذا شبهنا أشكال التعبير القديمة بالموقد الذى تشتعل فيه النار، فإن التراث الحى كامن فى هذه النار، وفى هذا الشرر الدائم، وكل ما فعلناه أننا قررنا أن نشعل مواقد أخرى إلى جانب المواقد القديمة، وهذا إضافة إلى الشعر العربى والغناء له، ولم أقل قط بالانفصال عن القديم وإهماله، فهذا الانفصال فى حقيقة الأمر مستحيل، ومجرد الكتابة بلغة مثل اللغة العربية لها هذا التاريخ القديم، يعنى فى الحقيقة أن الكاتب هو بالفعل داخل هذا التراث .. ما قلناه كما تفضلت بالإشارة إلى مجلة «شعر»، هو أنه يجب أن تتاح الفرصة للمواهب الجديدة لابتكار أشكال ملائمة لهويتها الفنية، وبهذا المعنى أكدنا أشكال التعبير الجديدة، والتى من بينها قصيدة النثر وقصيدة التفعيلة بتنويعاتها المختلفة، ودائمًا ما كنا ندعم آراءنا فى هذا الإطار، بالعودة إلى التراث نفسه، كما كنا نرجع كثيرًا إلى التصوف لتأصيل آرائنا .

*** ربما لهذا السبب ، فإنك تعتبر أبانواس أحد الحداثيين الكبار، بل أكمل نموذج للحداثة فى موروثنا الشعرى ؛ لأنه بحسب قولك يؤكد فصل الشعر عن الأخلاق والدين، رافضًا حلول عصره، معلنًا أخلاقًا جديدة هى أخلاق الفعل الحر والنظر الحر، أخلاق الخطيئة، إنه الإنسان الذى لا يواجه الله بدين الجماعة، وإنما يواجهه بدينه هو، ببراءته هو، وخطيئته هو .**

- أبو نواس هو أول شاعر عربى أبدع قيمًا جديدة مدنية، لتحل محل قيم الشعر قبل الإسلام وهى قيم البداوة والشفوية، وما يرتبط بها من أفكار ودلالات ومعان .. أبو نواس أحدث نقلة جذرية على هذا المستوى وخلق قيم المدنية، وخلق معها قيم جماليات المدنية، وتبعًا لذلك خلق لغة شعرية جديدة، ولم يكتف بذلك، وإنما خلق رموزًا لهذه اللغة، فبدلاً من أن يتحدث عن الناقة أو الطلل وهى رموز شعر ما قبل الإسلام ، وهى عظيمة فى سياق هذا الشعر، فإنه خلق رموزًا أخرى هى

الخمر والحب والحياة اليومية، وهى فكرة العلاقة بين الزائل الذى هو الحياة اليومية، وبين كل ما هو أبدى، ولهذا فأنا أعده الشاعر الحديث الأول ..

لكن بوسعى أيضًا أن أرى الدور العظيم الذى لعبه المتنبى ؛ فالمتنبى هو الشاعر الأول الذى كان نقطة التلاقى بين الدينى والدنيوى، بين السلطة والشعر؛ أى إنه مثَّل ثقافة عصره كاملة .. جسدها بقوة ووضوح، ولا يمكن ذكر المتنبى طبعًا دون أن نذكر أبا العلاء المعرى، الذى انتقد كل شىء، لكنه كان ينحنى أمام المتنبى، وعندما شرح ديوانه سماه «معجز أحمد» وإلى اليوم لم يحسن الناس قراءة المتنبى .

*** ثمة اتهام آخر أكثر جذرية من سابقه ، مفاده أنك ضد «الدين»، ضد النص الدينى فى عمومه، فيما يمكن لقراءة أخرى لإنتاجك أن تشير أنك ضد تسييس الدين، أو تديين السياسة لصالح سلطة أو فئة بعينها .**

- أنا كتبت «الثابت والمتحول» منذ 36 عامًا ، وبدا فيه بوضوح أننى لا أتناول الدين بوصفه دينا، وإنما بوصفه مؤسسات ، سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، ونقدى ينصب على الجانب المؤسسى للدين وليس على الدين بحد ذاته، قلت هذا عشرات المرات، لكنهم يصرون على اتهامى بالإلحاد وبأننى ضد الدين، وما أرجوه من هؤلاء أن يراجعوا عقولهم وضمائرهم، وأن يقرأوا ما أكتبه بوعى أكبر ويتسامح أكبر .

*** لقد قلت دومًا إن الدين حاجة ضرورية للإنسان ، يجب احترامها والدفاع عنها، لكننا ضد أن تقوم دولة على الدين، وضد تسييس الدين، وضد استخدامه أداة للوصول إلى السلطة ..**

*** هل تتصور أن السلطة العربية حريصة على أن تبقى المعادلة غامضة على هذا النحو؛ أى أن تبقى مستمسكة بالدين لتأكيد شرعيتها من ناحية، وأن تشجع على تسييس الدين فى الشارع من ناحية أخرى؟**

- لكل سلطة سياستها، لكن الخبرة تؤكد لنا أن أى نظام عربى قائم بشكل أساسى على هذه العلاقة مع الدين ، نحن نتمنى دومًا أن تكون السلطة العربية حكمًا لا طرفًا، فالسلطة العربية لا تزال طرفًا مع الأسف، وكونها طرفا فإن هذا يفسد العلاقة بين الإنسان والدولة، ويفسد علاقات المواطنين بعضهم ببعض ؛ لأن الدولة حكم ديمقراطى بين البشر وإصرار النظام العربى على أن يكون طرفًا، هو الذى يجعله مرتبطًا عضويًّا بالسلطة الدينية، وهنا يجب أن نقف بقوة لهؤلاء الذين يقبلون أن يكون الدين خادمًا للسلطة ..

وهناك كلمة مشهورة مفادها إذا رأيت عالمًا يلوذ بباب سلطان فاعلم أنه لص، فواجب رجل الدين العظيم بتقديرى أن يفصل كلَّ الفصل بين الدين والسياسة، فبالأحرى على المثقفين ورجال الفكر أن يحققوا هذا الفصل ..

أريد أن أقول إنه لا يمكن تأسيس دولة حديثة على الدين، ولا يمكن بناء سياسة على الدين، وإنما يجب الفصل الكامل بين الدين والحياة المدنية، بحيث يظل الدين أمرًا شخصيًّا وتجربة شخصية، وأن يتاح لجميع الناس مهما كانت معتقداتهم الدينية واللادينية، أن يفصحوا عنها بحرية كاملة، ولهذا فنحن ننتقد الثقافة العربية القائمة على المزج بين الدين والسياسة، وبين الثقافة والدين ..

الدولة يجب ألاَّ تُؤسس على الدين ، بل على قيم مدنية كاملة، ومن أجل ذلك على الثقافة العربية أن تدخل فى نسيج الثقافة الكونية، ففى تاريخنا لم تنهض الثقافة العربية إلا باتصالها بالآخر، ابن سينا وابن رشد والفارابى قامت ثقافاتهم على العلاقة بالآخر، الحركة العلمية قامت على العلاقة بالآخر، صار للذات العربية هوية بدءًا من علاقتها بالآخر ..

وبشكل عام ، نقول إنه لا يصح اتهام فكرة بذاتها بأنها متخلفة، كما يفعل البعض مع الإسلام اليوم، هناك من يتهم الإسلام بوصفه إسلامًا بأنه أساس التخلف، ولكن هذا الإسلام فى عهد المأمون كان وسيلة مبهرة للتقدم ..

والمشكلة التى تواجهنا اليوم هى فى بنية السلطة ؛ إذ لا يعقل أن تكون الفئة الوحيدة التى تمتلك الحرية الكاملة فى التعبير عن آرائها هى الفئات الظلامية . وليس صحيحًا أن العلمانية والديمقراطية بوسعهما أن يحلا كل مشاكلنا، فالديمقراطية والعلمانية تربية وثقافة، وإذا لم يتيسر لهما عقول كبيرة وممارسات كبيرة وتربية مستمرة، تتحول إلى مجرد واجهات أو شعارات .

*** تبدو مسألة الهوية شاغلاً مؤرقًا أيضًا فى كثير مما تكتب، خصوصًا أنك تبدو إنسانًا عالميًّا بالمعنى الثقافى والفكرى ، وأنك ترى أن الهوية ليست تلك التى يولد بها الإنسان، وإنما التى يشكلها بوعيه وبإدراكه الحر .**

- لا أظن أن الهوية مسألة جاهزة مسبقة، أو أنها تورث للأبناء من الآباء كما تورث البيوت والحقول والأملاك ؛ فالعربى لا يولد عربيًّا، ولكنه يصير عربيًّا ، والهوية صيرورة أكثر من كونها كينونة، وبهذا المعنى الهوية ابتكار متواصل، والإنسان يبتكر هويته فيما يبتكر فكره وعمله ؛ فالهوية إذًا مفتوحة كأنها تجيء باستمرار من المستقبل، ولعلها مناسبة أن أؤكد أن العولمة - وهى أكثر ما يخيف الناس على هوياتهم - لا يمكنها أن تطمس تراثنا، العولمة تطمس من ليس له حضور خلاق، وأسوأ ما توصف به أنها الشكل الجديد للاستعمار القديم، وهى لا تعمم بالعنف وإنما بالإنتاج، وهى بدلاً من أن تحول الكون كله إلى حرب تحوله إلى سوق، وهى بالقطع لا تلغى الإبداع، ولكنها ستلغى ثقافة من يعملون على إلغاء ثقافاتهم ، أولئك الذين مازالوا يصرون على الرقابة والتضييق على المفكرين والمثقفين ومحاصرتهم .. العولمة لا تقدر أن تقتل المتنبى ، وابن سينا، والفارابى ، وابن رشد، والمعرى ، وأبا نواس، إنها تقتل من لا إبداع له ولا هوية، وبالضرورة تقتل ثقافة الأنظمة العربية القائمة .

*** ثمة مسألة تسترعى الانتباه فيما يتعلق بشعرك ؛ إذ يبدو بالنسبة لكثيرين غير مفهوم وغامضًا، وهذا لا ينطبق على عامة المتلقين وإنما على الشعراء أيضًا، ولعلك تذكر ما قاله الشاعر العراقى الراحل بلند الحيدرى من أنه رغم صداقتكما فإنه لا يفهم شعرك .**

- أنا أحترم رأى صديقى الراحل بلند الحيدرى، وقد يكون هذا خطئى ، لكن ما عساى أن أفعل، فهذه هى تجربتى فى الشعر، لكن فى الرد على ذلك، يمكن أن أقول إن هناك قراء كثيرين لا يشاركون صديقى الراحل هذا الرأى .

* * *

د. محمد سليم العوا

عدم اكتراث النظام بالناس
يقود البلاد إلى فوضى عارمة

كان منطقيًا أن أبدأ مع الدكتور محمد سليم العوا، المفكر الإسلامى والقانونى المرموق من أزمة تصريحات بابا الفاتيكان التى أثارت استياء المسلمين فى العالم كله، لكننى كنت أدرك أن حوارنا عطفًا على الأزمة سيمتد إلى أزمة المؤسسة الدينية فى مصر، ثم إلى أزمة النظام كله ..

لكن ما لم أتحسبه أن يدعو الدكتور العوا إلى عصيان مدنى ردًّا على سطوة النظام واستبداده، وأن يحذر من أن استمرار الأمور على هذا النحو من عدم الاكتراث بالناس ، سيقود البلد إلى فوضى عارمة، وحرب أهلية لا تبقى ولا تذر، وهو سيناريو لا يمكن تجاهله .

*** دلالات عديدة يمكن استنتاجها بمتابعة أزمة تصريحات بابا الفاتيكان، هل يمكن أن نتوقف عند بعضها خارجيًّا وداخليًّا؟**

- الأزمة التى أنشأتها تصريحات بابا روما عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الإسلام والقرآن تدل على أمرين مهمين جدًّا فى العلاقات الإسلامية المسيحية :

الأمر الأول : أن 46 عامًا من الحوار المستمر مع الفاتيكان لم تثمر أى ثمرة، وإنما نحن فى نقطة أسوأ من تلك التى كنا فيها يوم بدأنا هذه الحوارات قبل 46 عامًا ؛ لأن قبل ذلك لم يجرؤ أى بابا للفاتيكان وربما لم يخطر بباله أن يتحدث عن الإسلام بهذه الطريقة المسيئة المستهينة وغير الجائزة لا خلقًا ولا دينًا، لا علانيةً ولا سرًّا، هذا لم يحدث من قبل .

النقطة الثانية : أن المسألة ليست كاثوليك يتبعون كنيستهم الأم ، يخطئون بخطئها أو يصيبون بصوابها ؛ لأن الذين وقفوا يؤيدون البابا فى كلامه السخيف عن الإسلام وعن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أولهم المستشارة الألمانية وهى بروتستانتية، ثم بوش وهو بروتستانتى صهيونى متعصب، ثم أخيرًا رئيس وزراء إسبانيا السابق وهو كاثوليكى، يعنى كان هناك موقف واحد لجميع مسيحيى الغرب من المسلمين فى العالم كله، كان هذا الموقف مؤداه أن هذا ما يستحقه هؤلاء المسلمون، أن يوصف دينهم بهذه الصفات المهينة، وأن يوصف نبيهم بهذا القدر من الازدراء ..

هذه الإهانة وهذا الازدراء ليسا أمرين سهلين بالنسبة للمسلمين، بل هما فى الواقع أمران غير مقبولين ، مهما كانت الظروف والأسباب ، ومهما كان القائل، هاتان هما الدلالتان المتعلقتان بالمسيحية الغربية ؛ لأننى استبعدت دائمًا المسيحية الشرقية كلها، أرثوذكسية وكاثوليكية وبروتستانتية من هذه المسألة .. هذه الأزمة هى بين المسيحية الغربية والإسلام، وكنت فى بداية الأزمة أقول إنها بين البابا نفسه والإسلام، وكنت أستبعد بقية الكاثوليك، وأستبعد حتى بقية الفاتيكان ؛ لأن الفاتيكان ليس وحدة واحدة، بل هو مؤسسة كبيرة فيها أصوات مختلفة لكن الآن بعد التأييدات التى حظى بها البابا ، وبعد الصمت الفظيع من جميع المسئولين الغربيين على هذه الإهانة، يمكننى أن أقول إن هذا ليس فحسب موقف البابا، لكنه موقف البابا ووراءه من يؤيده، والذين يعارضونه لا يقدرون على النطق بالمعارضة،

نحن إذًا فى موقف جديد ؛ إذ لم يكن الأمر ظاهرًا لى على هذا النحو، ففى أول الأزمة كنت أظن أن الأزمة بيننا وبين البابا بندكت السادس عشر .. الآن اتسع عندى نطاق الرؤية، وتبدو المسألة أوسع بكثير مما كانت، مع استبعاد جميع المسيحيين الشرقيين الذين لا يقفون موقف البابا ..

الدلالة الثانية : التى أظهرتها هذه الأزمة، أن الدول العربية والإسلامية لن تتخذ موقفًا متعلقًا بنصرة الدين والعقيدة، فهذه الدول تتعامل مع الدين كما لو كان مسألة تكميلية، فى مولد النبى يقيمون احتفالاً، فى مناسبة أخرى يوزعون جوائز على حافظى القرآن الكريم، حين يأتى مسئول أجنبى يكون فى استقباله شيخ ممثلاً للمؤسسة الرسمية، وهكذا، لكن الإسلام من حيث هو دين هذه الأمة ومحور حياتها وعقيدتها غائب تمامًا عن جميع النظم وكل المسئولين العرب والمسلمين ؛ بدليل أن أحدًا لم يتحرك أى حركة ذات بال فى هذا الشأن ..

المغرب استدعت السفير ، ثم أعادته ، السعودية قالت على لسان الملك عبد الله إن الإسلام دين السماحة ودين الرحمة ودين المحبة والشفقة، وهذا كلام صحيح لكن ليس هذا موضعه، الموضع الآن هو الرد على هذا الرجل المجرم ، الذى يتهم الإسلام بهذه التهم ويتهم النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الازدراء، المطلوب الآن هو إسكات هذا الصوت، وتحويله من صوت سفيه ضد الإسلام إلى اعتذار واضح صريح..

وقد طالبناه من خلال اتحاد علماء المسلمين بسحب كلامه ، والعالم كله تحول إلى هذا الطلب، وإما أن يتوقف عن الكلام عنا، وقد قلت فى مناسبة سابقة عبر الفضائيات، أنا لا أريد من هذا البابا أن يتكلم عنا لا بالخير ولا بالشر، فنحن لا نريد معركة مع الفاتيكان ولا مع الكاثوليك ولا طبعًا مع المسيحية العالمية .. لكن نريد أن يحترم كل إنسان ديننا، والذى لا يحترم ديننا سنتخذ منه الموقف المناسب ؛ فنحن لسنا ضعفاء ولا فى موقف دفاعى عن ديننا ..

نحن فى موقف قوة لا يقل عن موقف قوتهم بل يزيد، وهذا ما يجعلنى لا أقبل موقف الحكومات العربية، وحتى لقاء السفراء مع البابا يوم الاثنين الماضى، كنت مفاجئًا به ؛ لأننى أعرف من خلال أحاديث مطولة مع بعض وزراء الخارجية العرب والمسلمين، أن هناك ملاحظات وردودًا مكتوبة جيدة جدًّا، لكننى فوجئت بالسفراء وقد جلسوا أمام البابا مثل التلامذة، يستمعون إلى كلمته التى ألقاها من فوق عرشه البابوى، ليس فيها شىء عن محاضرته، وليس فيها اعتذار من أى نوع أو إبداء احترام للمسلمين، لكنه تكلم عن أن الحوار ضرورة للمستقبل؟ أى حوار ؟!ومع من؟! أتحاور مع شخص يقول إن النبى الذى أؤمن به لم يأت إلا بكل ما هو شر وفاسد وسيئ! كيف يمكن أن أتحاور مع هذا الشخص؟! .. هذا فى الحقيقة احتقار لعقول هؤلاء السفراء، واحتقار لعقول جميع المسلمين الذين يمثلونهم، وطبعا هو احتقار لدولهم، وما جعلنى أشعر بالأسف، أننى فى الحقيقة لم أجد سفيرًا يحتج أو يبدى رأيه بكلمة، وبينهم سفيرة أعطت للبابا ظرفًا مغلقًا لا نعرف ما فيه، هل هو طلب وظيفة أو رسالة من بلدها، لكن بشكل عام المنظر كان مخزيًا جدًّا، ولو كنت سفيرًا لطلبت الكلام، ولو كان هذا التقليد لا يجوز فما كنت حضرت اللقاء من الأصل، ولو كنت مسئولاً بالخارجية لوجهت للسفير الذى قبل هذا الموقف لومًا شديدًا وسحبته، وأرسلت سفيرًا آخر عنده كرامة، فإن لم يكن للسفير كرامة شخصية، فإنه يستطيع أن يتصرف بكرامة لصالح بلده ..

والحقيقة أننى رأيت السفراء المسلمين فى لقائهم بالبابا، لايعبرون عن كرامة شعوبهم ودولهم، وقد أصابنى ذلك بالحزن الشديد .

*** هم يعبرون بالتأكيد عن مستوى الضعف والهوان الذى وصلت إليه بلادهم، وهو ما يدفعنى للتساؤل عما ذكرته أنت آنفًا من أننا لسنا فى موقف ضعف ، كيف؟**

- بالتأكيد نحن كمسلمين لسنا فى موقف ضعف، وإذا كانت الحكومات ضعيفة فهذا شأنها ؛ لأنها حكومات غير منتخبة وغير ديمقراطية وتحكم بالحديد والنار،

وأنها لابد أن تسترضى الغرب وتسترضى الأمريكان لتستمر فى مواقعها، لكننا كشعوب لسنا ضعفاء، نحن أقوياء كشعوب .

أما **الدلالة الثالثة** : التى أشارت إليها الأزمة ، فهى موقف البابا شنودة الثالث، ونحن اختلفنا مع البابا ومازلنا مختلفين معه فى موضوعات عدة، يعنى موضوع وفاء قسطنطين ومارى عبد الله ، وبعض تصريحاته عن لجوء الشباب القبطى إلى حضن الكنيسة لأن الدولة لا تنصفه، نحن مختلفون معه جذريًا فى هذه الأمور ، ومازال خلافنا قائمًا، لكن حين جاء الموقف الذى يهدد الوطن بفتنة دينية، اتخذ موقفًا بطوليًا، على مرتين : فى **المرة الأولى** قال : إن الكنيسة ضد الإساءة للأديان، وفى **المرة الثانية** تحدث فى مؤتمر صحفى عن العلاقة بين المسلمين والأقباط فى مصر بوصفها علاقة مثالية، وقال من يريد أن يرى كيف تكون العلاقة بين المسلمين والمسيحيين عليهم أن يزوروا مصر، وهذا كلام صحيح ودقيق وجاء فى وقته وكنت أتمنى من الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية، والكنيسة الكاثوليكية المصرية أن تفعل ذلك، أما الكنيسة الكاثوليكية فوضعها معروف بوصفها كنيسة تابعة للفاتيكان ولا يمكنها أن تقول شيئًا، ولذلك الكلام الذى نسمعه من الأنبا « يوحنا قلته » كلام رقيق يتحدث عن العيش والملح لكن لا صلة له بالموضوع ، أما صمت الكنيسة البروتستانتية فلا أفهمه؛ إذ كان ينبغى عليها أن تصدر ما يؤكد موقفها بوضوح ؛ لأن هذه الكنيسة تقول إنها تعتز بصداقات كثيرة جدًّا مع المسلمين وأنا منهم، ولدى صداقات مع كثيرين منهم، لكن حين تأتى المحنة ولا نراهم قد وقفوا معنا، فينبغى أن نثير علامة استفهام كبرى، والذى يريد أن يبقى فى هذا الوطن، فلابد أن يقف الجزء منه مع سائر أجزائه، تمامًا كما نفعل نحن إزاء ما يتعرض له إخواننا المسيحيون، فحين يهان رمز من رموز المسيحية أو يتعرض مسيحى لظلم إدارى بسبب دينه، فنحن من يتصدى للدفاع عنه ، وحين يأتى رد الفعل المسيحى أقل مما نتوقعه ، إذًا فثمة مشكلة..

آخر شيء هو أننا فى الاتحاد العالمى للعلماء المسلمين قررنا مقاطعة الفاتيكان طالما بقى البابا بندكت السادس عشر على كرسى البابوية، أعطيناه فرصة من يوم 9/12 حتى يوم 27/ 9 لا ليعتذر، وإنما ليسحب ما قاله من النص الرسمى للمحاضرة، لكننا لم نجد أى رد فعل حتى الآن، وبناء عليه قرر الاتحاد العالمى لعلماء المسلمين والذى يضم العلماء المسلمين غير الرسميين من العالم كله «مجلس أمنائه 50 عضوًا من كبار العلماء» أن يتوقف تمامًا عن أى عمل ثقافى أو حوارى أو دينى مع الفاتيكان ؛ لأنه لا ثمرة له، إلى أن يمضى عهد البابا بندكت السادس عشر .

*** تناولت المسألة من وجهة نظر دينية، ولكن ثمة أبعادًا سياسية للموضوع ؟**

- بالتأكيد المسألة لها أبعاد سياسية ، فالبابا يقدم هذه الورقة لتحقيق غرضين ؛

الغرض الأول : هو تقوية المتطرفين من اليمين الأوروبى الذين يقفون فى مواجهة المسلمين فى كل البلاد أيًا كانت مذاهبهم المسيحية، وهذه الورقة تساوى الكثير؛ لأنها صك من البابا يقول لهم فيه افعلوا بالمسلمين ما شئتم، وسوف نرى آثار ذلك كثيرًا على العرب والمسلمين ..

الغرض الثانى لهذه الورقة : أنها عربون تصالح مع الأمريكان، يقول فيها البابا أنا معكم وأوقفوا مهاجمة وسائل إعلامكم للكنيسة الكاثوليكية، هذه الكنيسة تتعرض فى أمريكا لمحن كثيرة أخلاقية ومالية، والإعلام الأمريكى حر، ويظهر قساوسة ارتكبوا أفعالا مشينة يعتذرون عما فعلوا ، وآخرين يدافعون عن أنفسهم، وأناسًا يهاجمونهم وآخرين يتعاطفون معهم .. هذا يجرى كل يوم هناك، وهذا يحط من قدر الكنيسة الكاثوليكية فى أمريكا ويقلل من أتباعها، وما أسهل أن يغير الناس مذاهبهم هناك بين يوم وليلة، ولذلك يحاول البابا أن يبقى على وضع الكنيسة الكاثوليكية هناك، وهذه رشوة من البابا لأمريكا يعلن فيها أنه معها ضد الإرهاب، ولذلك فرح بوش الذى هو من المسيحية الصهيونية المتطرفة التى لا تعتبر هذا البابا الكاثوليكى ممثلاً لها، يؤيده ..

ونحن فى الحقيقة أمام نقطتين سياسيتين فى غاية الخطورة : **النقطة الأولى** : هى علاقة المسلمين بالبلدان الأوروبية - التى يعيشون فيها - هذه العلاقة ستتعرض بسبب هذا التصريح لخطر شديد جدًّا، **والثانية** : العلاقة الأمريكية «البروتستانتية» مع الكاثوليك ستعيش شهر عسل طويلاً بسببه .

*** ومع ذلك ، فإن تركيا الإسلامية تستعد لاستقبال بابا الفاتيكان فى نوفمبر؟**

- الحقيقة أنا دعوت تركيا من خلال قناة الجزيرة إلى ألا تستقبل البابا، كما أن هناك اتصالات أخرى نتمنى أن تثمر فى هذا الاتجاه، لكن لا نستطيع أن نقول للدول القريبة من أوروبا إلى هذه الدرجة مثل تركيا، والساعية إلى دخول الاتحاد الأوروبى، أن تتخذ موقفًا مشابهًا لموقفنا مثلاً، هذا على المستوى الرسمى .. أما على المستوى الشعبى، فأنا غير قادر على تصور كيف سيستقبل الشعب التركى المسلم، الذى يتمتع بدرجة عالية من الحرية والديمقراطية ومدرب على التظاهر السلمى، كيف سيستقبل هذا البابا ؟! وأنا فى الحقيقة أخشى جدًّا أن يحدث فى هذه الزيارة مالا تحمد عقباه ؛ ولذلك من العقل بالنسبة للبابا وبالنسبة للحكومة التركية أن تلغى هذه الزيارة أو تؤجل حتى تهدأ المشاعر التركية ..

نحن كعلماء مسلمين وشعوب إسلامية لن تهدأ مشاعرنا، وقد دعونا الناس إلى اعتصام فى المساجد لمدة ساعة عقب تصريحات البابا ، وكانت الاستجابة رائعة فى كل بلد مسلم .

*** فى كل ما قلت يا دكتور لم يظهر طيف للمؤسسة الدينية الرسمية فى مصر، وأعرف أن لك مؤاخذات عليها ، تحدثت عن بعضها فى كتابك أزمة المؤسسة الدينية فى مصر؟**

- للأسف المؤسسة الدينية الرسمية موقفها ليس على المستوى الواجب، فشيخ الأزهر أعلن موقفًا رافضًا لتصريحات بابا الفاتيكان ، وقال أوقفنا الحوار وهذا

شيء جيد، لكنه استقبل وفدًا من السفارة والكنيسة لم يكن على المستوى ، الذى ينبغى أن يلتقيه شيخ الأزهر، فقد جاء مساعد السفير، وجاء الأنبا يوحنا قلته وهو نائب البطريرك وليس بطريرك الكاثوليك، الذى يجب أن يزور أكبر رأس إسلامى فى العالم السنى هو أكبر رأس فى الديانة المقابلة، وإذا كان هناك من ينوب عنه فليس أقل من السفير نفسه، والمقابلة لم تكن جيدة، ونشرت الصحف أن شيخ الأزهر سبَّ شبابًا مسلمين انفعلوا وثاروا ووصفهم بأنهم «أولاد الكلب»، وهذا الكلام لا يجوز أن يخرج عن شيخ الأزهر، وإذا لم يكن قد قاله فقد كان عليه أن يكذبه فور نشر الصحف له ؛ لأن مثل شيخ الأزهر يجب أن يتحلى بقدر هائل من اختيار الألفاظ وحسن استعمالها أكبر بكثير مما يتحلى به المثقفون والأدباء والسياسيون ..

موقف دار الإفتاء كان متزنًا، فقد أصدرت بيانًا واضحًا فى إدانته، كما لم تستقبل وفودًا من الكنيسة الكاثوليكية فيما أعلم ..

ومن المؤسف أن وزير الأوقاف استقبل السفير الفاتيكانى، وعبر له عن الغضب الإسلامى من تصريحات البابا، ولو كنت أنا مكان وزير الأوقاف لاعتذرت عن عدم استقبال السفير، وهذا أقل ما ينبغى أن يفعل مع هؤلاء الذين يسيئون إلى ديننا، أن يقاطعوا بنص القرآن الكريم، إنما الصورة الباسمة الرقيقة للوزير والسفير، وبينهما الأنبا يوحنا قلته، هذه الصورة تدل على أنه ليس هناك إحساس سياسى بما يجرى فى الشارع .

*** على ذكر المؤسسة الدينية، من أين يأتى إحساسها بكل هذا الضعف والهوان؟**

- قال شيخ الأزهر فى عام 1997 أنا موظف أنتظر الضوء الأخضر، فإذا كان رأس المؤسسة الدينية يشعر بأنه موظف فى الدولة، فما الذى ننتظره من بقية أركانها! هذا النوع من الشعور لم يكن موجودًا فى المؤسسة الدينية فى عهد الشيخ جاد الحق أو الشيخ عبد الحليم محمود ولا طبعًا فى عهد الشيخ شلتوت، ولا أريد أن أذهب

أبعد إلى الشيخ المراغى والشيخ الظواهرى والشيخ سليم البشرى .. هؤلاء قمم لا أريد أن أقارنهم بما نحن فيه الآن، لكن ما نحن فيه الآن غير جائز، حتى لو كان شيخ الأزهر موظفًا يتقاضى راتبًا من الدولة يجب ألاَّ يسيطر عليه هذا الشعور، مثل القاضى، القاضى موظف ويتقاضى راتبًا من الدولة، لكنه يوم أن يشعر بأنه موظف .. فلن يحكم بالعدل، بل إن وزير الأوقاف وهو وزير سياسى يعينه ويعزله رئيس الدولة، يوم أن يصبح مسئولاً عن الدعوة الإسلامية يجب أن ينسى تمامًا أنه موظف .. يجب أن يكون لديه شعور الداعية المستقل الذى لا يدين بالولاء إلا لله ، ثم للجمهور الذى يؤدى إليه خدمة دينية .

*** المسألة متعلقة بشعور الموظف الكبير وإحساسه أم بآليات اختيار من يتولى المنصب، بالتعيين أم بالانتخاب الحر؟**

- هذا لا يعنينى، فشيخ الأزهر كان يعين قديمًا بقرار من الملك، وكل ما كان يجرى أن هيئة كبار العلماء كانت ترشح أشخاصًا يوافق الملك على واحد من بينهم، لكنه لم يكن يشعر أبدًا أنه موظف عند الملك ..

ثم إن البابا شنودة يعين بقرار جمهورى، لكن هل يشعر أنه موظف عند الدولة، بالقطع لا ؛ لأنه يشعر باستقلال مؤسسته، وأن هذه المؤسسة تتبعه هو لا تتبع الدولة، ووزير الأوقاف أيضًا تنطبق عليه هذه المقولة، فهو ليس ناظر وقف .. لكنه مسئول عن الدعوة الإسلامية، والدكتور زقزوق شخصية علمية مرموقة، وما سيبقى منه هو العالم لا الوزير ، ونحن نتوقع من مثله حين يتولى الوزارة أن تكبر ، لا أن تتحول إلى مؤسسة تابعة للحكومة .

*** شبهت من يتولى منصبًا دينيًّا رسميًّا بالجالس على منصة القضاء من حيث ضرورة الاستقلالية ، حتى لو كان كلاهما يتقاضى راتبًا من الدولة، أود وأنت تنتمى إلى هذه الفئة أن نعرف رأيك فيما انتهت إليه الأزمة بين الدولة والقضاة؟**

- فى كتابى «القاضى والسلطان» الصادر أخيرًا عن دار الشروق، قلت إن مهمة هذه المجموعة التى حملت لواء استقلال القضاء من عام إلى الآن، أن تسلم راية الدفاع عن استقلال القضاء إلى شباب القضاة وشباب وكلاء النيابة، فهذه المجموعة تسلمت الراية من مجموعة المستشار ممتاز نصار ومن كانوا معه، وقامت بالعمل بكفاءة إلى اليوم، وينبغى أن تواصل الأجيال الجديدة معركة استقلال القضاء .

*** إذًا ، مازلت تتوقع أن تتواصل المعركة؟**

- بالطبع، لأن النظام الشمولى لا يريد لأى فئة أن تكون مستقلة .. السلطان يريد أن يكون كل الناس أتباعًا له، فنحن فى الحقيقة نعيش فى ظل نظام يريد أن يكون كل شيء تابعًا له حتى القضاء، ولكن القضاء إلى الآن مستعصى على التبعية بفضل كفاح مجموعات من الخلصاء الشرفاء ، الذين يشعرون بانتمائهم للقضاء منصة وعدلاً، لا لوزارة العدل وظيفة، ومعركة استقلال القضاء هى معركة عمر، تخوضها فئة بعد أخرى، وتحصل كل فئة على مكاسب أكثر مما حصلت عليه سابقتها، وأهم إنجاز تحقق أن قضية استقلال القضاء عادت إلى صدارة الحياة السياسية فى مصر، والتف آلاف القضاة حول مطالبهم، حتى إن الجمعية العمومية اكتظت بهم لدرجة أن بعضهم جلس على الأرض، وهذا الإنجاز مستمر ولن يتوقف، ويساندها ويؤدى دور الخدمة لها ملايين الناس وآلاف المحامين والآلاف من أساتذة القانون المؤمنين بأنه بغير قضاء مستقل لا يوجد وطن مستقل .

*** هل تتوقع أن تواصل الدولة التفافها على مطالب القضاة؟**

- هى التفت فعلاً على مطالبهم بمشروع القانون 142 لسنة 2006 ، ومجيء السيد ممدوح مرعى وزيرا للعدل لم تتبين بعد آثاره، لم نعرف ماذا سيكون موقف وزارة العدل من استقلال القضاء؟ والمستشار مرعى قاض كبير يعرف معنى القضاء،

ونتوقع منه أن يكون موقفه مع استقلال القضاء أكثر من القضاة الشباب، وألا تجرفه تيارات السياسة بعيدًا عن موقعه الأصلى كقاض ؛ لأن مشكلتنا كانت فى أحيان كثيرة أن وزير العدل يوم أن يجلس على كرسى الوزارة ينسى كرسى القضاء، مع أن ما يبقى هو كرسى القضاء .

*** تبقى قضية ذات صلة بالقضاء وبالوطن أيضًا، مسألة التعديلات الدستورية ونظن أنها استنفدت كثيرًا من طاقة الأمة واجتهادها لسنوات مضت؟**

- فى الحقيقة ، أنا لا أؤمن لا بالحزب الوطنى ولا بما يفعله من تعديلات دستورية أو إصلاحات سياسية .. هذا حزب السلطة الذى يريد أن يبقى فيها إلى يوم القيامة، هذا الحزب هو المجموعة التى اصطنعها ضباط يوليو للسيطرة لحسابهم على البلاد ومقدراتها، وبالتالى أنا لا أصدق شيئًا مما يقوله، ولا أفكر بحسن استقبال فى شىء مما يفعله، وأنا ضد أن ننشغل بتعديل الدستور لا بالإصلاح السياسى .. أنا أريد قرارًا بإلغاء جميع القوانين سيئة السمعة، قرارًا بإلغاء قانون الأحزاب ولجنته، قرارًا بإلغاء لجنة الإشراف على الصحافة «المجلس الأعلى للصحافة»، إذا لم تفتح الحريات للناس ، ثم تترك فترة زمنية معقولة ، أقترح أن تكون سنة على الأكثر، نجرى بعدها انتخابات حرة للرئاسة، وانتخابات حرة لبرلمان تأسيس يضع الدستور، فلا شىء يمكن أن يحدث، مادون ذلك كله عبث وإهدار لطاقة الأمة فيما لا طائل تحته، نحن لا نريد تعديلات دستورية .. نحن نريد أن نرفع هذا الفساد، نحن نقول لهم ببساطة : لا تدفعوا البلد إلى العصيان أو التفكك ؛ لأنه لو حدث عصيان فستكون حرب أهلية مدمرة، وإذا حدث تفكك فلن تكون هناك دولة .

*** يعنى هذه الأجندة التى يطرحها الحزب الوطنى عن التعديلات الدستورية والإصلاح، تراها أنت مجرد مخطط لإلهاء الناس؟**

- طبعًا ليشغل الناس وينفذ المخطط الذى يريده سواء فى التوريث أو فى إبقاء بعض الفاسدين فى أماكنهم أو التغطية على بعض الفضائح، هذا مخطط سياسى مقصود به أن ينشغل الناس عما ينبغى أن ينشغلوا به، وما يجب أن ينشغل به الناس هو إصلاح حال الوطن كله «من ساسه لراسه» .

*** مع إدراكنا لهذا المخطط ، كيف يمكننا أن نواجهه؟**

- هناك طريقان للمواجهة : أن يتخذ الناس أسلوب العصيان المدنى وبشكل تدريجى حتى تتم الاستجابة للمطالب، ولكن هذا العصيان يحتاج إلى قيادة تكون لديها مطالب مفروضة وأجندة تناقش؛ لأنه دون قيادة أو أجندة لن نصل إلى نتيجة .

الطريق الثانى : هو الأمل فى التغيير البطىء، وهذا لا اعتراض لى عليه، بشرط أن يكون عن خطة، لكن المشكل السياسى فى مصر أنه لا الحكومة لديها خطة خارج المحافظة على كراسيها، ولا المعارضة لديها خطة للإبدال والتغيير، ولهذا كله فإن البلد ينهار .

*** يعنى فكرة العصيان المدنى تبدو هى البديل الأنسب فى مواجهة استبداد النظام؟**

- أعتقد أن هذا هو الطريق، المظاهرات يتم ضربها فى الشوارع من قوات الأمن .. الذين يقومون بعمل سياسى تحت الأرض يتم اعتقالهم، الذين استعملوا العنف اكتشفوا أنه غير مجد ، ونحمد الله أن هداهم وعدلوا عن آرائهم، فلم يبق أمامنا سوى العصيان المدنى من قيادة لديها أجندة مطالب .

*** هذه القيادة ، كيف يمكن الوصول إليها؟**

- فى بلاد كثيرة تتكون لجنة حكماء، من مؤسسات المجتمع المدنى التى لا تتلقى دعمًا من الخارج ومنظمات المجتمع المدنى تضم الأحزاب والنقابات ونوادى أعضاء هيئة التدريس .. هذه اللجنة يكون عدد أفرادها لا يقل عن عشرة ولا يزيد على

عشرين، وأشير هنا إلى جمعيات دينية كبرى ، ينبغى أن تدخل فى هذا الائتلاف، مثل جمعية أنصار السنة والجمعية الشرعية، هذه الجمعيات لها أتباع كثيرون وليست ممثلة داخل أحزاب أو مؤسسات أهلية ..

بعد ذلك تجلس لجنة الحكماء وتشخص الداء والدواء، ويمثل ذلك أجندتها التى تتقدم بها للحكومة مع جدول زمنى محدد ومعقول لتنفيذ هذه المطالب، وفى حالة التقاعس عن تنفيذ المطالب يعود الناس إلى حالة العصيان المدنى المتدرج ، والذى يبدأ من الامتناع عن العمل ليوم مثلاً، إلى الجلوس فى الشوارع، دول أوروبا الشرقية كلها تحررت بهذه الطريقة .. الشيوعية لم تسقط بضرب النار وإنما بالعصيان المدنى .

*** وهذا العمل قانونى ومشروع ؟**

- تمامًا، انظر إلى الكيفية التى تشكل بها الوفد ليدافع عن قضية الوطن، اخترعوا قضية التوكيلات التى حملها سعد زغلول ورفاقه ؛ ليؤكدوا أنهم موكلون للدفاع عن الوطن فى مواجهة السلطة المحتلة .. نحن أيضًا نريد عصيانًا مدنيًا فى مواجهة الحكومة المستبدة .

*** هل تتوقع أن نصل إذا ما استمرت الأمور على هذا النحو إلى حالة فوضى عارمة، أو حرب أهلية؟**

- أتوقع هذا برعب شديد، فالذين يحكمون لا يعرفون ما الذى يجرى بين الناس، فالذى يجرى بين الناس أخطر كثيرًا مما يخطر لهم على بال، وإذا استمرت الأمور على هذا النحو ستحدث هذه الفوضى ، التى قد تذهب بهذا البلد هباءً منثورًا، وأرجو مخلصًا ألا نصل إلى هذا المدى ، وإن كنت أرى أن السياسات التى نحن فيها الآن والأوضاع التى ننشئها تقود إلى هذا السيناريو .

*** يبدو أن النظام بعناده يقود البلد إلى هذا المصير؟**

- لا أستطيع أن أحكم على ذلك بأنه عناد ؛ لأن العناد مسألة نفسية وأنا لا أعرف نفسية من يحكمون، لكنى أرى حالة من عدم الاكتراث بالوطن، وهذه أسوأ كثيرًا من العناد .

* * *

سمير مرقص

الخبير فى الشئون القبطية والغربية

(مسلمو مصر وأقباطها يطالبون بمواجهة مخطط الغرب التفكيكى وعدم الوقوع فى فخ تديين الصراعات)

لا يمكن الفصل بين تصريحات بابا الفاتيكان المسيئة للإسلام وادعاءات بوش عن صراع الأديان والحضارات ، المسألة سياسية تمامًا، والصراع هو صراع مصالح فى الأساس، لكنه يحتاج إلى غطاء دينى، وليس مصادفة أن يعتلى كرسى البابوية فى روما كاردينال متشدد، شارك فى قوات النازى، وأجهز على معارضى الكنيسة الكاثوليكية فى أمريكا اللاتينية، خصوصًا جماعة «لاهوت التحرير»، وتعقب ممثليها أينما كانوا، وعقد محاكمات لأعضائها على غرار محاكم التفتيش الإسبانية، واعتبر غير الكاثوليك من المسيحيين ليسوا جديرين بالخلاص ..

ليس مصادفة أن يعتلى هذا البابا المتعصب كرسى البابوية، فى وقت يهيمن فيه «بوش» على مقدرات العالم ، ويعلن أنه مكلف من قبل الرب بتنفيذ مشيئته ..

سمير مرقص : الباحث المتميز فى هذا المجال، عضو الهيئة الاستشارية لبرنامج الحوار الإسلامى المسيحى، وعضو الأكاديمية النرويجية لحرية الرأى والتعبير، ألقى أضواء مهمة على الموضوع، فسر لنا حدود الدينى والسياسى فى تصريحات «بندكت».

*** جاءت تصريحات بابا الفاتيكان صادمة ليس للمسلمين فحسب، وإنما للأقباط أيضًا الذين رفضوها منذ اللحظة الأولى .. كباحث ومساهم فى حوار الأديان كيف قرأت هذه التصريحات؟**

- بداية لابد من فهم الخريطة الداخلية للفاتيكان، هذه مسألة فى غاية الأهمية، الأمر الثانى أننا عندما نقيِّم الفاتيكان ينبغى ألا نقيِّمه بمعايير المؤسسات الشرقية، فالفاتيكان فى النهاية مؤسسة غربية تخضع للمعايير والآليات التى تحكم عمل المؤسسات الغربية، وبالتالى لا يمكن تقييم الفاتيكان من خلال شخص حتى لو كان البابا، ولكن هذا لا يمنع من القول أن بابا روما هو رمز، وفى الأغلب فإن رؤيته تمثل رؤية الفاتيكان بدرجة أو بأخرى، لكن علينا أن نفهم أن الفاتيكان يموج بالتيارات الداخلية، هناك اتجاهات ذات طابع ليبرالى ومنفتح، واتجاهات ذات طابع محافظ ومتشدد تجاه الآخر والمستجدات العالمية، وهكذا، وعلينا أن نلاحظ مثلاً أن قدوم هذا الشخص بالذات أحدث تغييرات فى الخريطة الداخلية للفاتيكان، يعنى هناك بعض الشخصيات ذات التوجه الليبرالى المنفتح تم استبعادها، بينها على سبيل المثال فيتزجيرالد سفير الفاتيكان فى القاهرة، هذا الرجل كان هو المسئول فى وقت من الأوقات عن الحوار الإسلامى المسيحى، وهو منفتح وله دراية وخبرة كبيرة فى هذا المجال واجتهادات متقدمة جدًا فى هذا المجال، يعنى خلال عام أحدث البابا الجديد تغييرات كبيرة جدًّا، مما أدى إلى أن يسود تيار ويتراجع آخر .. ساد تيار التشدد، وتراجع التيار الليبرالى ..

إضافة إلى هذا ، فإن هناك مراكز بحثية داخل الفاتيكان ، يمكن إذا تواصلنا معها أن نحدث نوعًا من التوازن مع الرؤية المتشددة للبابا الجديد .

*** أنت تتحدث عن اختلاف حاد فى الرؤى والتكوين الفكرى بين البابا الجديد وقطاعات مهمة داخل الفاتيكان، هل يمكن أن نتحدث عن المسيرة الفكرية للبابا الجديد؟**

- في الحقيقة أنني كنت في الولايات المتحدة الأمريكية ، في الوقت الذي تم فيه اختيار بابا روما ، وكان عنوان غلاف مجلة «US.NEW» هو : هل يمكن للشخص الذي يخضع الآخرين بالقوة أن يوحدهم؟ وهذا عنوان دال جدًّا على شخصية هذا الرجل، مسيرته الداخلية في ألمانيا وارتباطه بالنازية في مرحلة من المراحل، وتوليه منصبًا مهمًّا جدًّا في الفاتيكان هو مسئول العقيدة والوحدة، وكان اسمه آنذاك الكاردينال «راب زنجر»، وهذا الرجل كان المنوط به الدفاع عن الإيمان الفاتيكاني، وهو الذي تصدى لكل من كانت لهم رؤى مغايرة للفاتيكان، يعني حركة «لاهوت التحرير» على سبيل المثال في أمريكا اللاتينية، وهي حركة من داخل السياق الكاثوليكي لكنها ذات طابع نقدي يدافع عن الفقراء، ولكننا نعرف أن أمريكا اللاتينية كانت تعاني من مشاكل اقتصادية واجتماعية حادة قبل قفزتها ، التي تحققت خلال سنوات قلائل، هذه الحركة ذات طابع اجتماعي لا تشتغل بالسياسة، لم تكن تريد أن تحكم، ولكنها قامت بتفسير الدين بشكل تقدمي من أجل نهضة وتقدم المجتمعات في أمريكا اللاتينية، وكانت حريصة على أن يشارك معها الناس من كافة التيارات، وقد وأد البابا هذه الحركة بشكل حاد جدًّا وعنيف، وكانت هناك محاكمات البابوات المشاركين في هذه الحركة أقرب إلى محاكم التفتيش التاريخية، وقد تعاون لتحقيق ذلك مع الأنظمة السياسية التي كانت ترى في هذه الحركة خطرًا عليها، رغم أن هذه الحركة لم تكن تلعب سياسة بشكل مباشر، ولم تكن تسعى للحكم ولم يكن لديها مشروع للحكم .

*** هذا يدفع للتساؤل حول بواعث البابا، هل كان يواجه هذه الحركات بنوازع شخصية باعتباره محافظًا ومتشددًا، أم لحساب هذه الأنظمة؟**

- الثابت أنه حدث نوع من التوافق في المصالح بين الأنظمة الاستبدادية والفاتيكان من ناحية، والولايات المتحدة الأمريكية من ناحية أخرى ؛ فالولايات المتحدة تعتبر أمريكا اللاتينية فناءها الخلفي، وكانت تخشى أن توجد هذه الحركة فرصة

لاستقلال هـذه الـدول عـن الولايـات المتحـدة، علـمًا بـأن الكتلـة الكبـيرة مـن الكاثوليك الذين ينضمون إلى الفاتيكان تقع فى أمريكا اللاتينية، لدى البابا أيـضًا مخاوفه من أن تستقل هذه الكنائس عن الكنيسة الأم، وهكذا يمكن القول أنـه فى لحظة تاريخية معينة حدث نوع من توافق المصالح بين الطرفين على أن هذه الحركة لابد أن يتم وأدها تمامًا، وهناك كتب «صراع النـاس»، وحتـى فى الكتـاب الـذى أخرجه الصحفيان اللذان كشفا حادثة ووترجيت «صاحب القداسة»، وكان عـن البابا يوحنا بولس الثانى، أشارا فيه إلى الدور الذى لعبه بابا روما فى حـصار هـذه الحركة ..

لا يمكن أيضًا أن نستبعد بحكم موقعـه الوثيقـة الـشهيرة التـى صـدرت عـام 2000 من وحدة الإيمان والعقيدة فى الفاتيكان التى كـان يترأسـها ، والتـى تـرى أن الطريق الوحيد للخلاص هو الكاثوليكية، وهو لم يتطرق فيها للمسلمين أو اليهـود، وإنما للمسيحيين الآخرين، وهـو ينظـر للمنتمـين إلى الكنـائس الأخـرى بوصـفهم جماعات مـسيحية وليـسوا كنـائس، وهـذه الوثـائق موجـودة، وإن كانـت مكتوبـة بصياغات لاهوتية عالية ، يصعب فهمها للعوام، وهذا يعطينـا إشـارة إلى أن هنـاك آلية للكتابة داخل الفاتيكان حتى نصل إلى صياغة الوثائق ..

الخلاصة أننا أمام شخص بحكـم تكوينـه الأوَّلى، وبحكـم مـسيرته الفكريـة، وبحكم موقعه لمدة طويلة فى الفاتيكان فى منصب يحتاج إلى قدر من المحافظة والقـوة والتشدد، ومن الطبيعى ألا يكون هذا الشخص امتدادًا للفاتيكان الـذى نعرفـه مـن خلال وثائقه التاريخية، يعنى الفاتيكان الذى نعرفه هو الذى أصدر وثيقة الفاتيكـان عام 1965م ، وتحتوى على رؤية متقدمة جدًّا فـيما يتعلـق بـالآخر المـسيحى والآخـر المسلم ، وهنـاك وثائـق كبـيرة وخبرات طويلة فى مجـال الحوار الإسلامى المـسيحى لا يمكـن إهمالهـا، والحقيقـة أن جـزءًا من الإشـكالية التى نحـن بصـددها أنه ربـما لا يكون فى وجدان البابا هذا التاريخ أو هذه الخبرة، وهذا لا يعنى أن هذه خلاصـة

نهائية، فالمطلوب منا أن نتفهم الخريطة الداخلية للفاتيكان ، وأن نتواصل مع الاتجاهات المتعددة هناك، وآمل بحكم هذا التعدد الذى أتحدث عنه، أن تحدث هذه الاتجاهات نوعًا من التوازن فى الخطاب المعلن عن الفاتيكان .

*** ثمة نقطة مهمة أشرت إليها عابرًا عن تكوين هذا الرجل وعلاقته بألمانيا النازية، هل يمكن أن تضيء لنا هذه المسألة أكثر؟**

- فى أثناء الحرب العالمية الثانية كان منضمًّا للقوات النازية، وقد صدر كتاب بعد توليه البابوية يتحدث عن صعود بندكت، ويتناول بالتفصيل الظروف التى أدت إلى أن يكون على هذه الصورة، يعنى هو شخص قليل الكلام، له ذهنية باردة يغيب عنها البعد الإنسانى إلى حد بعيد، ومحافظ جدًّا إلى حد استخدام القسوة مع الآخرين المختلطين معه .

*** كيف يمكن لقيادة دينية بهذه المواصفات أن تصعد إلى كرسى البابوية؟**

- أريد أن أؤكد أولاً إدانتى الكاملة لتصريحات البابا من حيث المضمون والتوقيت، وأؤكد أيضًا على ضرورة ألا يتدخل شخص من ديانة مختلفة لتفسير أو تقييم ديانات الآخرين ؛ أى أن يترك كل دين لأتباعه يفهمونه كما يتراءى لهم ..

وردًّا على سؤالك ، أقول إنه فى انتخابات الفاتيكان يقال دائمًا إن الأبعد فرصة عن الوصول إلى الكرسى البابوى هو الذى يصل إليه، وهذه قاعدة وإن كان لها شواذ بطبيعة الحال، ولكن يمكن أن تضيف أيضًا أن هناك شخصيات تأتى فى مراحل تاريخية معينة وتمثل حلاً وسطًا أو مرحلة انتقالية بين مرحلتين كبريين، ولابد هنا أن نلاحظ أن بابا روما السابق يوحنا بولس مكث فى كرسى البابوية لفترة طويلة، وكان الحديث عن الخلافة يتكرر باستمرار، خصوصًا أنه ظل مريضًا لفترة طويلة، وكان هناك تصور أن يأتى شخص يعوض هذا الغياب، هندوراسى أو

ستمبورن «فيينا» أو «سودانو» ، الذى كان وزير خارجية الفاتيكان، هذه الأسماء جميعًا طرحت وبعضهم له ميول أدبية أو موسيقية أو فنية .. إلخ، لكن يبدو أنهم آثروا أن يأتي شخص يواصل المسيرة كما هى دون إصلاح أو تغيير، يعنى البابا يوحنا بولس الثانى شهد سنوات الحرب الباردة، وكان عنده مهمة أساسية تتعلق بتقوية الكاثوليكية فى العالم، وأن يجعل من الفاتيكان مركزًا للكاثوليكية فى الكون كله، وواجه احتمالات أن حركة «لاهوت التحرير» تدعم استقلالية الكنائس فى أمريكا اللاتينية، بالإضافة إلى مواجهته تيارات فكرية وعلمانية مختلفة، وقد لعب البابا يوحنا بولس دورًا كبيرًا فى الحفاظ على وحدة الفاتيكان ، رغم كل هذه الأحداث وربما وجد من اختاروه أنه هو الأفضل فى هذه المرحلة، للمحافظة على ما تم إنجازه ، وربما بسبب صغر سنه يكون لديه الوقت والقدرة على تحقيق الإصلاح الشامل فى الفاتيكان .

*** ماذا تعنى بالإصلاح الشامل فى الفاتيكان؟**

- هذا الإصلاح كان مطروحًا بقوة من داخل الفاتيكان وبقى مؤجلاً بسبب مرض البابا، يعنى الفاتيكان ينبغى أن يكون له رأى فى الأحداث الدولية والمستجدات، مثلاً الصراع الذى تأجج فى أعقاب أحداث 11 سبتمبر ، بقيت منه الفاتيكان فى موقف المتفرج، النزاع الذى تحاول الولايات المتحدة الأمريكية أن تصوره على أنه صراع بين الأديان أو الحضارات وهو فى الحقيقة صراع مصالح، يجب أن يكون للفاتيكان فيه رأى، الفاتيكان هنا ينبغى ألاَّ يبقى مشاهدًا، خاصة أنه ليس مؤسسة دينية فقط، إنما كيان يجمع بين الدينى والسياسى ..

الفاتيكان دولة، وفى هيكليته هناك وزير دولة ووزير خارجية .. إلخ، ولديه من الآليات الضخمة جدًا ما يمكنه من لعب هذا الدور، فهو عنده حركات رهبانية منتشرة فى العالم كله، ونحن نعرف أن الرهبانية فى الكاثوليكية ليست منفصلة عن

الحياة اليومية، إنما هي حركات تعمل فى الخدمة الاجتماعية والنشاط المدنى ومتواجدة فى العالم كله، إذًا أنت أمام كيان له ثقله فى العالم ، وله انتشاره القاعدى الضخم ، فلا يمكن إلا أن يكون له دور ..

والمتابع للسجالات التى دارت حول الدستور الأوروبى الموحد مثلاً، سيلاحظ أنه كان هناك خلاف حول المرجعية العليا لهذا الدستور، وكان الرأى الأعلى صوتًا يقول إن المرجعية علمانية ، فيما يصر الفاتيكان على أن المرجعية العليا فى الدستور هى المسيحية، وجرى حوار واسع حول هذا الأمر لم يحسم حتى الآن، لكن ذلك يشير إلى الدور الذى يمارسه الفاتيكان فى صياغة الدستور الأوروبى الموحد .

*** نريد أن نلقى ضوءًا على علاقة المسيحية الشرقية بما يتم إقراره فى الفاتيكان ؛ خصوصًا أن أغلب المنتمين إليها هم من الأرثوذكس الذين تعتبرهم الكاثوليكية هراطقة .**

- المسيحية الشرقية ليست الفاتيكان، المسيحية الشرقية ملتزمة بالخبرة المحلية والإقليمية للبيئة التى توجد بها .

*** بما أن الفاتيكان ليس مجرد كيان دينى ، فإننا يمكننا أن نتصور أنها تلعب دورًا سياسيًّا لصالح طرف بعينه، وأعنى الولايات المتحدة الأمريكية، سواء بالتنسيق أو بتوافق المصالح .**

- لا يمكن القول بأن هناك اتفاقًا بالمعنى الموثق، لكننا يمكننا أن نلاحظ أن التيار المحافظ فى الإدارة الأمريكية هو حصيلة اتجاهين ما يسمى بالمحافظين الجدد أو اليمين السياسى المحافظ، أو اليمين الدينى المحافظ «الجديد»، وهما اللذان استطاعا أن يصعدا بالإدارة الحالية إلى سدة الحكم، فهناك تحالف بين اليمين السياسى واليمين الدينى، والأخير هو الذى يمثل القاعدة الاجتماعية للأول،

ومن المفارقة أن اليمين السياسى المحافظ فى أمريكا علمانى، لكنهم يتحالفون مع قاعدة جماهيرية تمثل اليمين الدينى، هى التى تشكل كتلتهم التصويتية الرئيسية التى صعدت بالرئيس بوش للحكم، وهذا يشير إلى أن هناك بشكل عام مزاجًا يمينيًّا محافظًا، وهذا المزاج من جانبه السياسى والاقتصادى يعنى اقتصاد السوق والليبرالية المفتوحة على مصراعيها ، والتى لا تعطى اهتمامًا للتوازن والبعد الاجتماعى ، ترفض كل قيم التجديد فى المجتمع، وليس مصادفة إذًا أن يلتقى الطرفان لتحقيق مصلحة واحدة، ومع ذلك لا يمكن أن أستبعد أن يكون الفاتيكان نفسه ميالاً إلى هذا اليمين، وأن يكون هناك حرص على ألا يأتى كاردينال له توجهات تقدمية، وإنما يأتى كاردينال له طبيعة محافظة وقادر على دعم هذا التوجه المحافظ ..

وأذكر أنى كتبت مرة عند زيارة بوش إلى روسيا فى مايو 2002 ، وكانت هناك توصية من لجنة الحرية الدينية أن يلتقى الرئيس بوش بالمجموعات الدينية التى تقوم بالتبشير فى روسيا، وبناء على هذه التوصية تم تنظيم اللقاء على أرض السفارة الأمريكية فى روسيا، فالتقى بوش بهذه التجمعات، وينبغى هنا أن نشير إلى أن الكنيسة الروسية الأرثوذكسية بالاشتراك مع المسلمين والبوذيين مارست ضغوطًا على البرلمان الروسى لاستصدار قانون سمى بقانون الأديان لحماية الكنيسة الوطنية والكتل الدينية الرئيسية، وأثناء عودته من روسيا، التقى بوش بابا روما السابق يوحنا بولس الثانى، وكل التصريحات التى خرجت من هذا اللقاء تؤكد فكرة التلاقى الدينى ورؤية أمريكا كقوة كونية، وهذا اللقاء كان مهمًا للغاية ؛ لأنه طرح تصورًا حول دعم الكتلة التصويتية الكاثوليكية للرئيس بوش إلى جانب الكتلة التصويتية البروتستانتية الأساسية، إذًا هناك خطوط تماس لا يمكن استبعادها، ويمكن أن نقرأ مثلاً فى كتاب «صاحب القداسة» كيف أن «برجنيسكى» مستشار الأمن القومى الأمريكى هو الذى اكتشف بابا روما السابق، فهو كان متواصلاً معه

وشجع على هذا أن الاثنين بولندیان، وهو ما أحدث تقاربًا فى فترة رئاسة كارتر، وجرى قدر من التخطيط مهد لوصول البابا إلى كرسى البابوية فى الفاتيكان .

*** لا يعنى هذا التدخل وتشابك المصالح وربما التنسيق أن فكرة العلمانية الأوروبية أو العلمانية بمفهومها التقليدى الذى يعزل الدين عن السياسة غير واقعية .**

- علمانية أوروبا متنوعة، والحقيقة أن هذه مناسبة لنشير إلى واحدة من مشكلات تعاملنا مع المصطلحات، ليس لدينا خرائط معرفية تمكننا من ضبط المصطلحات ورؤية الصورة على بعضها، يعنى مثلاً أنا ألاحظ أن الناس تخلط بين المسيحية المتهودة والأصولية البروتستانتية واليمين الدينى الجديد، والصهيونية المسيحية والحقيقة أن كل مصطلح منها ولد فى سياق مختلف ، وهو يقدم مفهومًا مختلفًا، قد يكون هناك تلاق بين هذه المصطلحات، قد يكون لهم موقف مشترك واحد، لكن هناك تمايزات بينها لا يمكن إنكارها، ويمكن أن تضيف إليها مصطلحًا يتردد بقوة فى الصحف وهو المسيحية الصهيونية، علميًّا لا يوجد شىء اسمه المسيحية الصهيونية، إنما هو الصهيونية المسيحية، أو الصهيونية ذات التوظيف المسيحى، أو كما يسميها الدكتور عبد الوهاب المسيرى الصهيونية ذات الديباجة المسيحية، يعنى هى صهيونية توظف بعض الأفكار المسيحية لصالحها، أما المسيحية الصهيونية فهى غير صحيحة ؛ لأن المسيحى الذى يؤمن بالأفكار الصهيونية يصبح عمليًّا خارج الإيمان المسيحى ..

هذا الأمر أيضًا ينطبق على العلمانية، فعلمانية فرنسا ليست كعلمانية ألمانيا، ففى فرنسا مثلاً هناك فصل تام بين ما هو زمنى وما هو دينى، الحالة الألمانية ليست هكذا، هناك دور للدين فى المجتمع لكن لا يحكم فى تفاصيل الحياة اليومية، لكنهم لا يمانعون أن يعرض تشريع ما على بعض الكنائس أو المنظمات الدينية لأخذ آرائهم؛ أى أن هناك دورًا للدين فى المجتمع الألمانى، وستلاحظ مثلاً أن علمانية أوروبا

الشمالية لا تمانع من دور للكنيسة ، يصل إلى حد التعاون معها فى مجالات كثيرة، وستجد منظمات دينية تعمل فى مجال المجتمع المدنى ، وفى ما كان يعرف بأوروبا الشرقية كنائس أرثوذكسية لها دور روحى قريب من دور الكنيسة عندنا ..

والفاتيكان بما أننا اتفقنا على أنها كيان دينى وكيان سياسى فى الوقت نفسه ، فلا يمكن أن ننفى عنها لعب دور فى الحياة العامة .

*** هذا فيما يتعلق بعلاقة الكنيسة بالدولة فى أوروبا، ولكننا نريد أن نعرف علاقة هذا الغرب بنا فيما يتصل بالأديان والمذاهب، كيف نرى هذه العلاقة؟**

- أرى أن فيها قدرًا من التناقض، يعنى ما هو واضح ومحسوب بدقة شديدة فى داخل القارة الأوروبية، ليس كذلك فى علاقة الفاتيكان بالأطراف، فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية .. إلخ ، ربما لأننا فى تطورنا التاريخى ، لم نصل بعد إلى ما وصلت إليه أوروبا، وإن كانت أمريكا اللاتينية قد قفزت قفزات واسعة فى مجالات عديدة، خلال السنوات الأخيرة، لكن الكنيسة الكاثوليكية تعطى نفسها الحق فى التدخل فى كل شيء فى هذه المجتمعات، ولها شبكة واسعة فى كل هذه البلدان لتبقى على هؤلاء البشر خاضعين تمامًا للكنيسة، ويثير الناس فى هذه الدول تساؤلاً حول الآليات التى تضبط العلاقة بين الناس والكنيسة الكاثوليكية وحدود تدخلاتها فى شئونهم، ولدى دراسات حديثة تشير إلى تحولات كثيرة من الكاثوليك عن الكاثوليكية إلى البروتستانتية فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا بسبب هذه التدخلات .

*** أتحدث أيضًا عن الغرب السياسى، بالذات الولايات المتحدة الأمريكية؟**

- الولايات المتحدة الأمريكية ترى أن أمريكا اللاتينية منطقة ينبغى ألا يقترب منها أحد، لذلك هم يشعرون بالقلق الشديد لوجود أكثر من بلد تحكمه حكومات اشتراكية هناك .

*** بعيدًا عن أمريكا اللاتينية، هنا فى الشرق الأوسط إلى أى حد هم يحتاجون إلى غطاء دينى لتبرير جرائمهم، وإلى أى حد يمكن أن يلعب الفاتيكان معهم لمنحهم هذا الغطاء؟**

- الفاتيكان لا يمكن أن أضعه فى هذه الصياغة، لكن أمريكا تفعلها، ومنذ أيام الدولة العثمانية كانت هناك علاقة بين الرؤى الغربية للمنطقة والتصورات الدينية، خاصة أن مفهوم الشرق الأوسط لدى الغرب، سواء الغرب الاستعمارى القديم أو أمريكا حاليًا مفهوم واسع وغير محدد، وقد كانوا حريصين على ذلك، وهذا المفهوم سياسى بالأساس وليس جغرافيًّا ؛ لأن عدم استقرار مفهوم الشرق الأوسط يسمح للمخططات أن تتوسع وفقًا للأطماع المتزايدة ..

والحقيقة أنه بدءًا من فكر الامتيازات الأجنبية التى تفضل بها السلطان العثمانى، وأول امتياز حصلت عليه فرنسا 1535م ، ثم إنجلترا 1579 ، وكان يرافق هذه الامتيازات فكرة التفتيت، واستمر هذا حتى يومنا هذا، والولايات المتحدة التى ورثت الاستعمار التقليدى لديها 3 مبادئ أساسية ، لا يمكن أن تحيد عنها فى التعامل مع المنطقة :

- ضمان تدفق الأموال أو الثروة إلى مصارفها .
- ضمان أمن إسرائيل المطلق .
- حصار الأنظمة الراديكالية أيًّا كانت .

ولكى تظل هذه المبادئ نافذة ، فكان لابد من «التفكيك»، وهى فكرة كرومرية، أعنى ، كرومر الذى نظر إلى مصر باعتبارها مجموعة إثنية ولغوية ودينية، لضمان السيطرة عليها، والولايات المتحدة الآن تمارس دورًا مشابهًا، حيث قسمت المسلمين إلى سنة وشيعة وبهائية، وكذلك تتحدث عن الإسلام الرسمى والإسلامى السياسى، وفى حالة الأقباط يتحدثون عن الأقباط والكنيسة القبطية الوطنية، ومنذ

أكثر من ثلاث سنوات بدأ يتحدث عن أن المسيحيين فى مصر هم مجموعات مسيحية منقسمين إلى جماعات صغيرة، وقد حذرنا من احتفوا بتقرير الحريات الدينية من أنه إذا سمحت بأن يدافع عنك ، فلابد أن تسمح بأن يدافع عن الآخرين ، الذين ربما كانوا على النقيض معك، وحذرنا أيضًا من أهملوا ما جاء فى التقرير من أننا سنغرق فى مناقشة ما حذرنا منه، وعلينا أن نلاحظ أن التقرير الذى تحدث عن حقوق الأقباط بدأ فى الحديث بعد ذلك عن حقوق الجماعات التبشيرية القادمة من الخارج، ومصر الآن تعانى من حملات تبشيرية غير مسبوقة، هجمة من شهود يهوه والإدفنست والمرمون، وهى مذاهب تعتبرها المسيحية التقليدية منحرفة .

*** كيف دخلوا وتوغلوا؟**

- معهم مال وفير، ويتعاملون مع أوجاع الناس ومشاكلهم وحاجاتهم، بعكس الإرساليات القديمة التى كانت تعتمد على الحاجات الروحية .

*** هل ترصد الكنيسة المصرية هذه الهجمة؟**

- ترصدها وحسب معلوماتى .. فإنها استعدت بحملة مضادة لتثبيت عقيدة أبناء الكنيسة الوطنية فى مواجهة الوافد من الخارج ..

وما يهمنى أن أؤكده هنا هو أن أى مخطط غربى يرافقه دومًا رؤية تفكيكية، فحين بدأت مثلاً مسألة الامتيازات الأجنبية ، كانت هناك استراتيجية الرعاية المذهبية، يعنى كل امتياز يرى من يخصه ويرعاه ؛ أى إنه يعزل المذاهب عن بعضها البعض، فى مرحلة من المراحل ، البعثات التبشيرية تبنت استراتيجية الاقتناص والتفكيك، مسألة الحماية البريطانية ، فكرة حماية الأقليات ، وتدويل مصر حسب رؤية كرومر، مرحلة غرس الكيان الصهيونى وتكريس الولايات المتحدة قوة عظمى، فكرة التفتيت والغزو من الداخل، مرحلة الهيمنة الأمريكية المطلقة التى نعيشها الآن، تأتى الرؤية التفكيكية تحت مظلة حقوق الإنسان والأقليات وغيرها،

ولذلك ليس مصادفة أن المشهد الحالى هو فى حقيقته مشهد تفكيكى، فى السودان والعراق ولبنان والجزائر ودول الخليج، وهذه هى خطورة تصريحات بابا الفاتيكان فى هذا التوقيت ..

ربما فى مصر تبدو أقل تأثرًا بمسألة التفكيك، لكن علينا أن ننبه إلى حالة العزلة النفسية ، أو ما أسميه بالتوتر الناعم فى العلاقة بين المسلمين والأقباط ..

وأنا ممن يميلون إلى أن المصالح ولا شىء سوى المصالح التى تصنع الصراعات، لكن تاريخيًّا هناك دومًا غطاء دينى أو تعمية عن رؤية المخططات الحقيقية .

*** أخيرًا ، كيف يمكن للمجتمع أن يواجه هذه المخططات؟**

- أتصور أننا ربما نكون مقبلين على مرحلة ستكثر فيها هذه النوعية من التصريحات التى قد تؤدى إلى مزيد من التوتر لاعتبارات كثيرة، وبالتالى من المهم أن ندرك أن هذه تصورات مواكبة لمخططات تفكيكية، ودائمًا ما كانت قدرتنا على التماسك الداخلى القائم على فكرة أن التحديات التى تواجهنا واحدة، ومعاناتنا مشتركة، طابور العيش لا يفرق بين مسلم ومسيحى ، وكل المخططات التى تدبر لنا لا تفرق بيننا، ومن المهم ألا نقع فى فخ تديين الصراعات ؛ لأن هذا يحقق المطلوب لمن وضع المخطط التفكيكى، وأن نفهم أن التديين هو مجرد غطاء للمصالح ..

ثمة فيروس للتفكيك ينتشر الآن فى الجسم الاجتماعى للمنطقة، ولن نقوى على مقاومته إلا بتماسكنا الداخلى، ولابد أن نعى أن المسيحيين الشرقيين، وأقباط مصر بالذات واجهوا تصريحات عنصرية من هذا النوع ؛ لأن المسيحية الغربية تنظر إلينا بتعالٍ .

* * *

د. قاسم عبده قاسم

تصريحات بابا الفاتيكان
سياسة وصليبية متعصبة

لم تأت تصريحات بابا الفاتيكان عفوية، لم تخرج عن مزاج شخص حاد أو فهم سيئ للإسلام ومقاصده، وإنما جاءت اتساقًا مع مواقف الكنيسة الكاثوليكية وتصوراتها ورؤاها، وهى بطبيعتها متعصبة ومتطرفة، ليس ضد الإسلام فحسب، وإنما ضد مخالفيها من المذاهب المسيحية الأخرى .

تصريحات البابا أيضًا تتجاوز دلالاتها الدينية والمذهبية فهى بالأساس «سياسية» ، تحركها مصالح مشتركة وتفاهمات متبادلة مع سيدة العالم الأقوى «أمريكا» ومن ورائها إسرائيل بطبيعة الحال .

هذا هو الموقف كما فسره لنا المؤرخ الدكتور قاسم عبده قاسم ، أستاذ التاريخ الوسيط ، وصاحب المؤلفات المهمة فى الحروب الصليبية .. هنا محاولة مختلفة ومميزة، لفهم ما يجرى .

*** كمؤرخ، كيف قرأت تصريحات بابا الفاتيكان؟**

- بداية أنا لم أندهش لسببين : **السبب الأول** : أن تصريحات البابا السابق يوحنا بولس التى اعتذر فيها لليهود، واعتذر فيها كذلك للأرثوذكس، عن الجرائم التى

ارتكبت في حقهم عبر التاريخ، لم تتضمن اعتذارًا للمسلمين عما لاقوه سواء على يد اليهود أو الاستعمار الأوروبي والحملات الصليبية ..

السبب الثاني : تاريخي، وهو يتعلق بالإجابة عن السؤال عمن شن الحروب الصليبية، من الذي دعا إليها، من الذي حشد الجيوش، من الذي وضع الخطة الدعائية النزقة التي ألحقت كل الأوصاف الحقيرة بالمسلمين ودينهم ونبيهم، إنها الكنيسة الكاثوليكية والحقيقة أن البابوية الكاثوليكية التي تتحدث بالإساءة اليوم عن الإسلام ، وأن النبي محمد لم يأت بأي خير، هذه البابوية هي صاحبة محاكم التفتيش، وهي التي كانت تحرق للمفكرين كتبهم، وهي في الأول وفي الآخر التي حرضت على الحروب الصليبية، وهي التي قدمت لها المشروعات مع نهاية الوجود الصليبي في أواخر القرن الثالث عشر في المنطقة العربية، وهي التي غذت حملات التبشير ضد المسلمين وضد المسيحيين الأقباط في مصر، وضد مسيحيي الحبشة، واعتبرت كل من على المذهب الأرثوذكسي للكنيسة المصرية مهرطقًا، وهدايته إلى طريق الصواب «الكاثوليكية» هو شغلها الشاغل، وهي بتبنيها لفكرة صكوك الغفران التي كان ينادى عليها في الشوارع، تسببت في أن المفكرين المسيحيين الواعين والأذكياء من بين صفوفها مثل مارتن لوثر وجون كالفن وجون هاس، خرجوا من عباءتها وقادوا حركة الاحتجاج «البروتستانت»، وهي التي أوجدت الانشقاق الأساسي في تاريخ الكنيسة، بين الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية ..

تراث هذه الكنيسة إذًا، هو تراث قائم على التعصب ؛ لأن الكاثوليك تحدثوا عن إله واحد في السماء وكنيسة واحدة على الأرض، وكلمة «هراطقة» التي أطلقوها على الكنيسة اليونانية الشرقية وعلى الكنيسة المصرية باعتبارها من أهم الكنائس التي أسهمت في تاريخ المسيحية وقدمت لها أهم المفكرين الذين وضعوا المذاهب المختلفة، هذا هو الدور الرائع لكنيسة الإسكندرية، وهي التي قدمت أيضًا منظمة

الرهبنة التى حملت إلى أوروبا فى العصور الوسطى، هذا ليس تعصبًا ضد الكنيسة الغربية بقدر ما هو إيضاح لحقائق الكاثوليكية وأنت لا تستطيع أن تنخلع عن تراثك، فتصرفك عادة يكون ناتجًا من تراثك وطريقة فهمك للأمور، وهذا ما يفسر تصريحات البابا .

*** يعنى أنت ترى أن موقف «بندكت» يأتى متسقًا مع مواقف الكنيسة الكاثوليكية تاريخيًّا، ومع ذلك يبدو أنه هذه المرة عبَّر بفجاجة أكثر مما يجب .**

- هذا سببه فى الحقيقة أننا صرنا مستضعفين فى الأرض، ونحن لسنا مستضعفين لأننا ضعاف، بل لأن حكامنا فى العالم الإسلامى إجمالاً لا قيمة لهم فى المعادلة الدولية، نحن أناس لا يأبه أحد بنا، وهذه الإساءة لن تكون الأخيرة، وعليك أن تنظر مثلاً إلى ما تقوم به الدوائر الصهيونية حين يتحدث أحد بسوء، حتى لو كان يستند إلى وقائع ثابتة عن اليهودية، ويتهموننا بالعداء للسامية إذا تحدثنا عن نواياهم العدوانية ووحشيتهم، لكننا نتلقى الإهانات دون أن نحرك ساكنًا ..

الخلاصة أن هناك تراثًا من العداء الشديد بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام والمسيحيين الشرقيين وخصوصًا الأرثوذكس، وستلاحظ أنهم أثناء الحروب الصليبية عزلوا البابا الأرثوذكسى ووضعوا مكانه بابا لاتينيًّا، واستولوا على الكنائس الأرثوذكسية وحولوها إلى كنائس كاثوليكية، وستلاحظ أيضًا أن بعثات التبشير الكاثوليكية التى «لعبت» فى مصر أثناء الاحتلال الإنجليزى، والتى حاولت أن «تلعب» قبل ذلك أثناء الحملة الفرنسية، إنما وجهت جهودها التبشيرية إلى الأقباط الأرثوذكس .

*** ثمة نقطة مهمة هنا ربما تكمل الصورة ؛ فالبابا الجديد حين جاء هللت له الدوائر الصهيونية واليمين المتطرف فى أمريكا استنادًا إلى مواقفه السابقة وآرائه ضد المسلمين والإسلام، بما يعنى أن ما قاله هو موقف سياسى أكثر منه موقفًا دينيًّا .**

- بالتأكيد تصريحات البابا لها دلالة سياسية، ومناسبة كلامه هذا هو ما يجرى الآن ضد المسلمين فى أوروبا وفى أمريكا، والخوف الذى يعتلى دوائر كثيرة من الغرب مما يسمى التهديد الإسلامى، وربما نضيف إلى هذا تزايد عدد من يعتنقون الإسلام فى أوروبا وفى أمريكا، واهتمام جهات كثيرة جدًّا فى الغرب بالإسلام بعد أحداث 11 سبتمبر، وأن يقول مفكر محترم مثل «سبوزيتو» إن الإسلام لا يطرح تهديدًا وإنما يطرح تحديًا لنظام القيم الأوروبية، وانتشار كتابات كثيرة تتحدث عن الإسلام، عدد منها منصف وبعضها ملون بألوان مختلفة، لكن فى العموم ثمة اهتمام واسع بالإسلام لم يكن الغرب يتوقعه، وبالفعل فإن الإسلام يقدم تحديًا للنظام القيمى فى الحضارة الغربية، فى مقابل الفردية يقدم التكافل، فى مقابل التنافس يقدم التضامن، فى مقابل العنصرية يتحدث عن أخوة بنى الإنسان، وهذه كلها قيم موجودة فى القرآن، وأنا لا أتحدث مرتديًا «عمامة»، فأنا مؤرخ، وأتحدث عن نصوص نتعامل على أساسها، والحضارة العربية الإسلامية طوال تاريخها، هى الحضارة الوحيدة، التى استطاعت أن تستوعب أبناء الديانات الأخرى فى داخلها، وليس مصادفة تاريخية أن يبرز عدد من اليهود والنصارى فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فى الوقت الذى لم يبرز فيه يهودى واحد فى أوروبا، إلا الذين عاشوا فى الأندلس، وهذه مسألة مهمة جدًّا، خصوصًا أن الحضارة العربية الإسلامية لا تتحدث عن تسامح وإنما عن حقوق، وهذه أيضًا مسألة مهمة .

*** بمعنى؟**

- بمعنى أن الكاثوليكية تتعلق بها أكثر فكرة التسامح، أما الإسلام فتتعلق به أكثر فكرة الحقوق، التسامح يعنى أن هناك خطأ أو جريمة يمكن التسامح إزاءها، أما الحقوق فإنها تعنى أكثر بفكرة المسئولية، الحق والواجب، يعنى الإسلام لا يرى أن الآخرين أخطأوا فى حقنا وأن من واجبنا أن نتسامح إزاءهم، وإنما عرف

تاريخنا «حقوق أهل الذمة»، التى أفاض فى شرحها الفقهاء، أما الكنيسة الكاثوليكية فتقول إن الله هو مؤلف كتاب الكون، وهو كأى مؤلف يعرف البداية ويعرف النهاية، وأى كلام خارج كتاب الله خطأ، وحين بدأ العقل الأوروبى يعمل بكامل قدراته وبدأ إحياء المنطق الأرسطى مرة أخرى من خلال الترجمات العربية وخصوصًا ترجمات ابن رشد، لم يكن بوسع الكنيسة الكاثوليكية أن تعترف بخطئها، فأوجدت فكرة التسامح، ومعناها الحرفى فى اللغة الإنجليزية «القبول على مضض»، ولأن هذه الفكرة ظهرت فى وقت نحن فيه مهزومون عسكريًّا ومحتلون بالجيوش الأجنبية، ومهزومون ثقافيًّا بالتالى، فقد نقلنا هذه المعانى عندنا دون تمحيص ..

وليس غريبًا أن يأتى البابا ويقول هذا بإزاء العدو التاريخى للكاثوليكية، يعنى لو عرفنا أن مؤسس الكاثوليكية وأباها الروحى هو «أوجستين» من مدينة قريبة من العاصمة التونسية القديمة، وأن تونس اليوم هى بلد إسلامى، فليس مستغربًا أن يتحدث كل مؤرخى الكنيسة الكاثوليكية عن أن الإسلام أخذ منهم شرق المتوسط وجنوبه، بما فيها البلاد التى كانت الموطن الأصلى للآباء المؤسسين ؛ فالمسألة ببساطة أن هذه المناطق هى مناطق التراث الإنسانى عمومًا من قديم الأزل، وهى المناطق التى ظهر فيها المفكرون المتميزون فى البداية، وطبيعى أن يكون الأمر على هذا النحو باعتبارها أرض الأنبياء وموطن تراث فكرى قديم ..

الكنيسة الكاثوليكية لا يمكنها أن تنسى هذا، وهذه الكنيسة هى التى حاربت الدولة البيزنطية، وهى التى وقعت قرار الحرمان ضد البطاركة البيزنطيين، وهى التى اعتبرت كنيسة الإسكندرية وأنطاكية والمقدس كنائس مهرطقة ؛ أى منشقة ؛ أى خوارج، وارتباط البابا بالسياسات الدولية واضح جدًّا، ليس الآن وإنما منذ الستينيات، فهؤلاء هم من برأوا اليهود من دم المسيح عليه السلام، بالمخالفة لنصوص الكتاب المقدس فى العهد القديم، إنما المسيحية الأرثوذكسية لم تفعل، وهى

البابوية نفسها التى اعتذرت لليهود عن المذابح الصليبية ضدهم فى ألمانيا وحوض الراين، وهى مذابح كان لها أسبابها التاريخية الموضوعية، وليس هذا دفاعًا عن الصليبيين بطبيعة الحال، وإنما ما تشير إليه وقائع التاريخ من أن اليهود كانوا هم المرابون الذين يستغلون الناس أسوأ استغلال، بمساندة من القساوسة الكاثوليك والأمراء مقابل رشاوٍ كانوا يحصلون عليها، وهذه المذابح يستثمرها الصهاينة جيدًا ويطلقون عليها الهولوكوست الأول فى غمار المنظومة الدعائية لهم ، التى تقوم على كثير من الأكاذيب والادعاءات، وأنا لا يمكن أن أتصور أن البابا وهو يعتذر لليهود من البلقان ووسط وشرق أوروبا دون أن يعتذر للمسلمين، إن ذلك ليس فعلاً سياسيًّا، هذا فعل سياسى، بكل تأكيد .

*** هل يمكن اعتبار تصريحات البابا إذًا جزءًا من حملة سياسية يقودها اليمين المسيحى المتطرف الذى يحكم الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، فيما اصطلح على تسميته بالصهيونية المسيحية ؟**

– الشيء المثير والباعث على الدهشة فى هذه المسألة، والذى يبين أن القضية سياسية وليست دينية، هو أن هذا اليمين الذى تتحدث عنه «إنجليكانى» ؛ أى المذهب المتطرف من البروتستانت، وهو حصيلة انشقاقات متعددة عن البروتستانية، وأدبيات الكنيسة الإنجيلية كلها تتحدث عن الكاثوليك باعتبارهم فرعون الذى اضطهد بنى إسرائيل، ويتحدثون عن إنجلترا الكاثوليكية قبل تحولها إلى الإنجليكانية بوصفها أرض مصر، وأشياء من هذا القبيل، المهم هنا هو هذه العلاقة بين كيان معاد دينيًّا لأسس الإيمان الكاثوليكى مع البابا ممثل الكاثوليكية، يعنى البابا لا سلطان روحى له لا على إنجلترا ولا على الولايات المتحدة الأمريكية بحكم أن المجموعة الحاكمة الآن هم من اليمين المتطرف، ولو المسألة دينية فلابد أن تكون هناك مشكلة بين الطرفين، لكن الملاحظ هنا أنه لا مشكلة، وأن الطرفين اتفقا على إهانة الإسلام والمسلمين، ولابد أن ننتبه فى هذا الإطار إلى

أن الخلاف بين المذاهب المسيحية هو خلاف حول طبيعية الإله، ليس كالاختلاف بين المذاهب الإسلامية الذى يبعد تمامًا عن أصول الدين وأركان الإيمان، هو خلاف حول مسألة السلطة لمن؟

السؤال هو كيف يمكن أن يتفق مسيحى إنجليكانى مع كاثوليكى على ما بينهما من تضاد دينى إلا إذا كان هناك نوع من الغرض المشترك ؟!

*** ألا تظن معى أن هذه الحالة ووقائع مشابهة تثبت أن مسألة فصل الكنيسة عن الدولة كما تدعيها أوروبا والغرب ليست كما نتصورها، وأن التداخل والتشابك وربما التنسيق بين الطرفين قائم وبقوة؟**

- الحقيقة أن هناك أجيالاً من الأوروبيين لا صلة لهم بالدين، لكن هؤلاء محصورون فى أهل الحضر، وأنا أقمت فترة طويلة فى فرنسا ولاحظت أن الدين يشكل قوام الحياة الفرنسية، فقد لاحظت مثلاً أن معظم الميادين والأماكن المهمة فى باريس تحمل أسماء قديسين، لاحظت أيضًا أنه لا يوجد عيد ميلاد لشخص بعينه، وإنما عيد الميلاد هو للاسم، وكل شخص يحمل اسم قديس، وجميع الأشخاص الذين ولدوا فى اليوم نفسه يحملون اسم نفس القديس يحتفلون بأعياد ميلادهم تحت راية القديس، فكيف يمكن أن نسمى هذا إن لم يكن تدينًا؟!

ثمة مسألة أخرى مهمة، وهو أن مظاهر التدين عند الناس فى الريف الإنجليزى أو الفرنسى أو اليونانى أو المجرى أو غيرها، تشبه مظاهر التدين فى الريف المصرى إلى حد كبير جدًّا، فكل قرية تقريبًا لها ولى ..

أما مسألة فصل الدين عن الدولة فى حقيقتها ، فكانت تستهدف تجريد الحاكم من سلطة ما والقضية لها أسباب تاريخية، فمنذ القرن الحادى عشر ثارت مشكلة فى أوروبا أطلق عليها «التقليد العلمانى»، ووضعت الدنيا فى مواجهة الكنيسة، وسببها أن الملوك قالوا نحن نمارس سلطاتنا بموجب ترخيص من الإمبراطور قسطنطين الأول ، حامى المسيحية الذى جعلها ديانة مرخصًا بها ..

البابا فى القرنين التاسع والعاشر بدأ ينتزع لنفسه هذه الصلاحيات من خلال ما سمى وقتها بنظرية السمو البابوى ؛ أى إن البابا هو خليفة القديس بطرس، وهذا القديس فى زعم الكنيسة الكاثوليكية هو الصخرة التى بنى عليها المسيح كنيسته وهناك نص فى إنجيل متى يقول وأنت يا سمعان بن يونان، أنت بطرس، الصخرة التى أبنى عليها كنيستى، وما تربطه على الأرض يكون مربوطًا فى السماء، وما تحله على الأرض يكون محلولاً فى السماء، وبناء على هذا التصور قالوا إن من يجلس على كرسى القديس بطرس يكون هو وريث هذه السلطة التى منحها الرب «المسيح عليه السلام» ، وقد كانت البابوية فى ذلك الوقت ضعيفة وبها قدر هائل من الفساد واحتكرتها العائلات فى روما، وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية يوضح هذه المسألة ..

وفى نهاية القرن الثامن الميلادى ، اتهم أهالى روما البابا بعدة أمور من بينها الشذوذ الجنسى وطردوه، ففر إلى بلاط شارلمان ملك الفرنجة، فبرأه، وهنا سقطت دعاوى الكنيسة بأنها هى صاحبة السلطة ؛ لأن من أعاد البابا إلى عرشه هو الإمبراطور، وقد ردَّ البابا التحية، حين اقتحم صلاة الإمبراطور فى عيد الميلاد وألبسه التاج، لكى يبدو أن الإمبراطور يتم تنصيبه من قبل البابا، وقد تجاهل شارلمان المسألة ولم تستطع الكنيسة أن تفرض سطوتها عليه، لكن فى القرن الحادى عشر جاء بابا ذو ميول عدوانية، كان بقية البابوات يسمونه الشيطان المقدس وهو البابا جريجورى السابع ، أول من دعا إلى الحروب الصليبية، وأنشأ ما سمى بالديكتاتوس بابا ؛ أى الإملاء البابوى، وتضمن 23 نقطة، يقول فيها إنه وحده نائب الرب على الأرض، وأنه فقط من يقبل الناس يديه ويغسلون قدميه، إنه فقط الذى يحمل شرف الملك وهكذا، ودخل فى مواجهة مع الإمبراطور هنرى الرابع حاكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة وهو ألمانى الأصل، ودخل الاثنان فى معركة ؛ لأن الإمبراطور عين أسقفًا لم يرض عنه البابا ، فهدده البابا بأنه سيصدر ضده قرارًا بالحرمان واستمرت هذه المواجهة عدة أجيال تحت شعار رئيسى من يحكم من؟

سلطة الدولة أعلى أم سلطة الكنيسة؟ وكانت من أهم تجليات هذه المواجهة الحروب الصليبية؛ لأن البابا كان يريد أن يحشد جيوش أوروبا كلها تحت رايته، وتحولت الحروب الصليبية إلى أداة سياسية فى يد البابوية ضد الإمبراطورية ..

ومع بداية ظهور الدولة السيادية فى القرن الرابع عشر على استحياء وفى منطقتين فقط هما إنجلترا وفرنسا، واجه الملوك مشكلة البابوية والزعم بأن سلطة الدين فوق سلطة الدولة، وأن سيف الدين فوق سيف الدنيا، بعض الملوك ادعى لنفسه ما سمى بحق الملوك المقدس، ومع بداية ظهور البرجوازية ، ثم مع بداية الثورة الصناعية وظهور الطبقة العمالية، لم يعد هناك مكان للبابوية فانزوت فى دولة صغيرة هى الفاتيكان ، وانحسرت سيادتها فى المناحى الروحية، وكف الملوك عن أن يدعوا لأنفسهم حق الملوك المقدس، وظهرت الفكرة على المستوى السياسى الرسمى، لكن على مستوى الواقع لم تتحقق، وحتى اليوم، ملكة إنجلترا رئيس أساقفة كانتربرى هو الذى يلبسها التاج، ففكرة عزل الدين عن الدولة تكاد تكون مستحيلة، والمصطلح الدينى والنص الدينى فى السياسة صار مستخدمًا بقوة اليوم، يعنى فكرة عزل الدين عن الدولة نروج لاستخدامها هنا فقط، أما هم فلا، يعنى انظر مثلاً للجنود الأمريكان فى العراق، أو الصهاينة فى فلسطين والطقوس التى يؤدونها وهم يقتلون النساء والأطفال بدم بارد ، ثم يقولون لنا : لا تتعصبوا ، رغم أن ديننا لا يدعونا إلى نفى الآخر أو التقليل من شأنه واحتقاره ؛ أى إن فكرة التعصب غير واردة فى إسلامنا أصلاً .

*** على ذكر مسألة التعصب والتسامح والأنا والآخر، ما تقييمكم لما يسمى بحوار الحضارات أو الحوار بين الأديان؟**

- الحقيقة أننى دعيت مرات عديدة إلى هذه التجمعات ورفضتها تمامًا ، فأنا لا أؤمن بما يسمى حوار الأديان ولا أفهم معناه أو المقصود منه، وحوار الحضارات ليس سوى تضييع وقت وضحك على الذقون ؛ لأن الأهم من هذا

هو إيجاد وسيلة للتعامل على أساس أننا بشر نعيش جميعًا على كوكب واحد، نحن فى الحقيقة فى حالة سيولة حضارية، وفى حالة من هذا النوع، أنت فيها مستضعف غير قادر على حماية نفسك وأرضك وغير قادر على اختيار حكومتك، كيف يمكن لك أن تتحاور وأنت فى هذا الوضع؟

*** يعنى ضرورة فكرة الاستقلال الوطنى للدخول فى حوار من هذا النوع ..**

- الاستقلال الوطنى هو الفريضة الغائبة، وهذا ليس كلامًا إنشائيًّا ؛ لأن الحاكم الذى يستند إلى شرعية حقيقية مستمدة من الجماهير يختلف عن ذلك الذى يتلقى أوامره من الخارج ويعرف أن تثبيته فى موقعه بفضل هذا الداعم الخارجى، هم يستغفلوننا فى الحقيقة ويجروننا إلى هذا النوع من الجدل غير المتكافئ، فيما يواصلون هم قتل أهالينا فى العراق ولبنان وفلسطين، ونحن للأسف لا شىء عندنا يمكن أن يردعهم ويوقف عدوانهم ..

هل أستطيع أنا أن أطلب منه أن يمنع تدريس مواد معينة فى مناهج التاريخ أو الدين كما يطلبون منا، لا أستطيع ، بينما هو تحت شعار حوار الحضارات وثقافة السلام والتسامح، يحذف من مناهجنا ما يشاء !!

لكن يقينى هو أن ما يريده الناس هو ما سيبقى مهما طال الزمن، ورغم كل الاعتداءات والهمجية التى يمارسها الإسرائيليون مثلاً فى فلسطين، فإن جذوة المقاومة لم تتوقف والشعب الفلسطينى لم يندثر، والسؤال المطروح ليس هل ستوجد فلسطين فى المستقبل أم لا، السؤال المطروح هو هل ستوجد إسرائيل أم لا؟ والمسألة ببساطة أن التاريخ لا يدخل بيت الطاعة، وأن الشعوب هى صاحبة المصلحة وصاحبة الحق، وحتى ما حكيت لك عنه فيما يتعلق بأوروبا، انتهى إلى أن هذه الشعوب الأوروبية هى التى فرضت شروطها فى نهاية المطاف، فلم يتم نزع الدين من قلوبنا وبقى فاعلاً ومؤثرًا حتى اليوم .

*** هل تظن بعد كل ما ذهبنا إليه من تحليل أننا على أبواب حرب صليبية جديدة؟**

- هى بدأت فعلاً، وراقب ما جرى، منذ العبارات التى أطلقها الرئيس الإيطالى بيرلسكونى ، ثم ما أعقبها من عمليات تضييق وترحيل للمسلمين، وما حدث فى إنجلترا إلى المسارعة باتهام المسلمين بأى شىء، وما يلاقونه من تضييق وحصار الآن فى كل دول أوروبا، وما يجرى من طرد من الوظائف فى أمريكا وغيرها من دول أوروبا للمسلمين لمجرد أنهم مسلمون ..

الحرب ضد أفغانستان التى شاركت فيها كل دول أوروبا، ثم المشاركة الأوروبية المهرولة لحماية إسرائيل من هجمات حزب الله، التحالف بين غريمين لا يتحالفان عادة فى مسألة إيران وهما الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا، التغاضى عما تفعله روسيا بالشيشان، ما يجرى الآن فى دارفور، سرعة إصدار أى بيان ضد المسلمين فى مجلس الأمن وعدم الاهتمام بالإهانات المتكررة ، التى توجهها إسرائيل للمجلس ورفضها تنفيذ قراراته باستمرار، ما يجرى فى العراق الآن ومنذ ثلاث سنوات ..

هذه الشواهد كلها تقول إننا جميعًا فى مواجهة حرب صليبية ، هدفها تقطيع أوصال هذه الأوطان العربية والإسلامية ..

هم مدركون لمشكلة وجود إسرائيل، وأن عدم وجود إسرائيل قد يعنى أن تعود هذه المنطقة إلى طبيعتها الأصلية، وهذه المنطقة هى التى أفرزت دولة الحضارة العربية الإسلامية التى كانت الأطول عمرًا والأكثر اتساعًا بين كل الإمبراطوريات، والتى عاشت ما يزيد على ألف سنة وشملت مناطق من الصين حتى أوروبا .

*** ما الذى جدد برأيك هذه الحرب الصليبية؟**

- إنهم بدأوا يرون العالم العربى على وشك النهوض .

*** النهوض؟!**

- نعم، وهذا ليس تفاؤلاً ساذجًا ؛ لأن المؤرخين يعرفون أن الظلم لا يحدث الثورة وإنما الإحساس بالظلم هو الذى يحدث الثورة، وهذا الإحساس عال جدًّا فى الوطن العربى كله اليوم، مقارنة بخمس سنوات ماضية فقط، الشعوب العربية فاض الكيل بها، تقلصات واحتقانات فى كل بلد، بل هناك مخاض يشبه مخاض الميلاد، والغرب يدرك هذا جيدًا ؛ لأن ما يجرى يمس مصالحه بشكل مباشر، ولذا فإن من مصلحته أن يحافظ على المنطقة فى حالة من التفكك والتجزئة مستمرة .

*** لك ترجمة مهمة لكتاب «جون سبوزيتو» ، وهو أحد المستشرقين الذين ترى فيهم إنصافًا للدين وللمسلمين، فيما نعرف مثلاً أن «برنارد لويس» يتبنى موقفًا مناقضًا وكريهًا ؛ أى الصوتين أعلى فى الغرب ؟**

- بما أن المسألة تحركها السياسة فصوت لويس هو الأعلى، لكن من المهم أن نلاحظ أن «سبوزيتو» لا يرى فى الإسلام تهديدًا، بل تحديًا، ويطالب الغرب بالنظر إلى ما به من قيم ليستفيد منها، أما برنارد لويس فهو صهيونى وضد العرب لكنه ليس ضد الإسلام ؛ لأن دراسته المعمقة فى الإسلام تجبره على الاعتراف بما به من قيم دافعة ورائعة وحضارية .

*** ثمة مقولة مهمة أيضًا للرئيس محمد خاتمى فى واحد من كتبه، قال فيها إن بلادنا الإسلامية وإن كانت تخلفت حضاريًا، إلا أن ثقافتنا وفى القلب منها الإسلام باقية، وبإمكانها أن تعيد للأمة عافيتها وقدراتها على الصمود والنهوض من جديد، أى إنه يميز بين الحضارة والثقافة ويرى فى الأخيرة ثباتًا واستمرارية .**

- هذا كلام حقيقى، وببساطة إن كنت وارثًا لماذا أتسول من الآخرين، بوسعى أن أستعير من الآخرين أفضل ما عندهم ما دمنا نعيش فى عالم واحد، لكن لا يجوز أن أتخلى عما لدى، وعما يميزنى عن الآخرين، أوروبا نهضت بميراثها واستفادت

منا، ونحن أيضًا يجب أن ننهض بإرثنا دون أن نتجاهل ما أنجزه الآخرون، وما عندنا فى صلب الثقافة «الدين» هو أسلوب حياة، وهو دين لا يعطى سلطة أبدًا لبشر على بشر، والحكومة فى الفكرة الإسلامية هى حكومة علمانية بمعنى إنكار سلطة رجل الدين .. فنحن فى الحقيقة أمام حل واحد، هو أن نستفيد مما لدينا ونفعله فى حياتنا .

* * *

جهاد الخازن

الدول العربية « واقعية » أكثر مما ينبغى

كثيرون ممن يقرأون مقال الكاتب اللبنانى «جهاد الخازن» فى الصفحة الأخيرة بجريدة «الحياة اللندنية»، يدهشهم هذا القدر المعتبر من المعلومات محتشدًا فى مقال يومى ، لا يخلو من خفة ظل وأحيانًا سخرية لاذعة ، وحين يقارنون ما يقرأون بمقالات أخرى يطالعونها كل صباح ، يعرفون أن ثمة فروقًا هائلة بين كتابة المديح وكتابة الحقائق ، بين ديباجات التسلية وحفز التفكير ، بين آيات العلم وآيات النفاق .

فى مواجهة جهاد الخازن رئيس التحرير السابق لجريدة «الحياة اللندنية»، وقبلها رئيس تحرير الشرق الأوسط، الحاصل على الماجستير فى الأدب العربى ودارس الدكتوراه فى جامعة جورج تاون ، وضعت هموم الصحافة العربية مع السلطة والرقابة والثروة وغيرها من القيود المهنية والاقتصادية، وكما أردت، تسرب الحديث شيئًا فشيئًا إلى السياسة، إلى الإصلاح والتوريث والسياسة الأمريكية فى المنطقة واحتمالات ضرب إيران ، دون أن ننسى بطبيعة الحال، الوجع اللبنانى المستمر .

وإلى تفاصيل الحوار :

*** التقارير التى ترصد أحوال الصحافة العربية تشير دومًا إلى اختراقات للمعايير العالمية لحرية الصحافة، وخصوصًا ما يتعلق منها بحرية تداول المعلومات والرقابة على الصحف ، هل هذه الاختراقات لها علاقة بأنماط الملكية السائدة ، أم بالتشريعات المنظمة للممارسة الصحفية ، أم بالاثنين معًا ؟**

- حتمًا الوضع الصحفى العربى ليس مثاليًّا، ولا أدرى إن كان هناك وضع صحفى مثالى فى العالم كله وفى الغرب المتقدم، لكن بشكل عام هناك ضغوط مختلفة، أحيانًا تأخذ شكل التهديد الشخصى لكن أكثرها عادة ضغوط اقتصادية، فإذا استعملت حريتك الصحفية كاملة قد تصبح جريدتك معرضة للمنع فى هذا البلد العربى أو ذاك بما يؤثر على أرباح الصحيفة وتوزيعها، ودعنى أتساءل : ما الفائدة إذا صنعت أفضل جريدة فى العالم ولم يقرأها أحد، أنت تريد أن تصل للناس، وقد واجهتنى شخصيًّا مواقف كثيرة من هذا النوع أثناء عملى لسنوات رئيسًا للتحرير، ويكون علىَّ أن أقرر وبسرعة إذا كان الخبر انفرادًا من النوع الذى لا يتكرر كثيرًا ويمكن أن تضحى فى سبيله بأن تمنع جريدتك من دخول هذا البلد العربى أو ذاك، والمنع أحيانًا يفيدك ؛ لأنه يؤكد مصداقيتك لدى القراء ؛ أى إنك لست محسوبًا على هذه الدولة ولذا فهى تمنعك ..

من ناحية ثانية، قد يضرك المنع إعلانيًّا ، والمفترض أن اقتصاديات الصحف تقوم أساسًا على الإعلان لا على مساعدات الحكومات والدول أو الأفراد، وإذا قررت أن تنشر الخبر الذى رأيته خارقًا مضحيًا بالإعلان أو بالتوزيع فى البلد الذى يخصه الخبر فهذا شأنك، لكن عليك أن تدرك أنه لا يجوز أن تغامر بجريدتك ووضعها الاقتصادى بما فيه طبعًا رواتب المحررين والموظفين مقابل خبر لا يستحق، يجب أن يكون لدى رئيس التحرير من الحكمة والرشادة ما يجعل قراره صائبًا أو على الأقل لا يلحق أذى كبيرًا بجريدته ..

ونحن فى العالم العربى اعتباراتنا سياسية أو حياتية أحيانًا، والضغوط فى العالم الغربى موجودة، لكنها بالأساس ضغوط اقتصادية، فمالك الجريدة أو رئيس تحريرها يعمل ألف حساب للمعلن أكثر من أى شىء، وحتى النيويورك تايمز التى تعد أهم جريدة فى العالم، أتصور أنه سيأتى عليها يوم يجعلها تراعى المعلن وتعمل حسابه .

*** هناك ضغوط أخرى تتعلق برأس المال، وهنا يمكن أن نشير نقطتين ؛ الأولى : تتعلق بالتمويل الأمريكى الضخم لعديد من الصحف والمؤسسات الإعلامية بمنطقة الشرق الأوسط فى أعقاب حرب الخليج الثانية، والنقطة الأخرى : تتعلق بالتمويل السعودى لعدة صحف كبرى، مثل : الحياة والشرق الأوسط، ولقنوات فضائية مهمة ، مثل : MBC وأوربت وLBC وART والمجد ، وغيرها.**

- العالم العربى فى مجمله فقير، وحتى إذا حُسِبت ضمنه مداخيل الدول النفطية، كل دوله ناتجها القومى أقل من الناتج القومى لدولة مثل إسبانيا كما ذكر تقرير التنمية العربية، فيما يتجاوز عدد سكاننا 300 مليون نسمة ولا يزيد سكان إسبانيا على «50» مليون نسمة، أضف إلى هذا أننا لا نملك سوقًا استهلاكيًا ضخمة توفر الإعلانات، وهناك نقطة مهمة يجب أن نفهمها وهى أن دخل كل وسائل الإعلام العربية من المحيط إلى الخليج، مقروءة أو مسموعة أو مرئية، حوالى بليونى دولار عن السنة الماضية، فى حين أن «النيويورك تايمز» حققت 2.2 بليون دولار، «الواشنطن بوست» تقريبًا الرقم نفسه ، الوست جورنال أكثر، لوس أنجلس تايمز أكثر، التايمز أوف لندن والديلى تلجراف لندن أكثر ..

ما أريد أن أقوله هو أن جريدة واحدة تحقق مكاسب إعلانية أكثر من كل وسائل الإعلام العربية، هذا يعنى أنك يجب أن تعرف أين حدودك بالضبط ..

وبالتالى ما يقال عن أن دولاً تنفق على جرائد أو أفراد يمولون مؤسسات صحفية، هذا أمر واقع لا يمكن نفيه ؛ لأن الخيار الثانى، وهو أن تعيش فقط على

إعلاناتك خيار غير موجود، وحتى الإعلانات التى تأتيك من شركات عالمية حين تدرس السوق، فإنها تعطيك حصة ضئيلة جدًّا تبعًا لحجم السوق .

*** عبر تجربتيك المهمتين رئيسًا لتحرير «الشرق الأوسط» ، ثم رئيسًا لتحرير «الحياة»، هل كنت تشعر أن الصحفيين الذين يعملون معك متفهمون لهذه الاعتبارات المهنية؟**

- حتمًا أكثرهم مهنيون ومتفهمون، لكن لا تنسَ أن هناك كثيرين ممن دخلوا مجال الصحافة دخلوه لأن عندهم موقفًا سياسيًّا ، وهو يريد أن يروج لهذا الموقف السياسى، فهو موجود لهدف بعينه، والبعض الآخر يعمل بالصحافة ؛ لأنه لم يجد مهنة أخرى .. لكن الغالبية مهنيون .

*** هناك إشكالية أخرى تتعلق بالأداء المهنى، أرجو أن تفيدنا من خبراتك ومتابعتك للصحافة العربية والأجنبية .**

- نحن فى العالم العربى تقدمنا كثيرًا من الناحية التكنولوجية، نحن تقريبًا على المستوى نفسه مع الصحافة الغربية، من ناحية الإنتاج والبث وغيره، ولعلنى أشير هنا إلى تجربتنا فى إنشاء جريدة الشرق الأوسط، حيث كلفتنا الآلات أكثر من «3» ملايين دولار، وكانت الصفحة تستغرق تقريبًا ساعة حتى تبث أو ترسل ..

الآن الصفحة لا تستغرق دقيقة وتكلفك عشرة دولارات، مع الأخذ فى الاعتبار أن 3 ملايين دولار سنة 78 تساوى 15 مليون دولار الآن ..

فيما يتعلق بالناحية المهنية ، فنحن فى الحقيقة مازلنا متخلفين عن الغرب ؛ لأنك تواجه مشكلتين رئيسيتين ، هما : نقص الحريات ونقص الأموال والمداخيل الإعلانية، ورأيى أن هذا الوضع سيستمر لفترة طويلة، ونحن نسمع كثيرًا عن إصلاح سيقود إلى مزيد من الحريات، وفى الحقيقة ليست عندى ثقة فى أن ذلك سيتحقق قريبًا، وأرجو أن أكون مخطئًا .

*** على ذكر الإصلاح، منذ سنوات ونحن فى مصر نتحدث عن الإصلاح، غير أن ما تحقق منه حتى الآن محدود جدًا قياسًا بما يثار من ضجيج حوله .**

- أنا دائمًا أقول لكل المسئولين المصريين بمن فيهم الرئيس مبارك، إن الإشارات تأتى دائمًا من مصر، فحين أممت مصر الصحف، أممتها الدول العربية جميعًا، وحين قيدت مصر الحريات قيدتها الدول العربية، وحين تطلق مصر الحريات وتطلق الصحافة ستتبعها الدول العربية .

*** لكن رؤيتك للواقع ، إلام تشير؟**

- هناك محاولات أحب أن أراها قيد التنفيذ، بالأمس كان الرئيس يتكلم عن الإصلاح بشكل عام، ثم سمعت اعتراضًا فى البرلمان على بعض النواحى، والحقيقة أننى لا يمكن أن أبدى رأيًا حاسمًا فى خطوات الإصلاح التى انتهجتها مصر حتى الآن ؛ لأننى لست متابعًا ولا أستطيع المتابعة للشأن المصرى يومًا فيوم ، ولا أريد أن أتكلم عن شىء لا أعرفه، وهذه فى الحقيقة واحدة من مشكلات الصحافة العربية، أن الجهل لم يمنع الصحافى العربى أن يبدى رأيًا، وأنا تجاوزت هذه المسألة، فلا أعلق على قضية لا أعرفها جيدًا، يعنى أحيانًا تصلنى رسائل من الأمازيج بالجزائر، وأنا لا أعرف كثيرًا عن الجزائر ولم أزرها ولا أعرف قضية الأمازيج، فكيف أعلق على مشكلاتهم ..

المسألة الأساسية هى إذا أردت أن تكتب فى موضوع ، فينبغى أن يكون لديك جديد تقدمه للقارئ، لا يكفى أن تجلس فى قهوة «النشاط» مع أصحابك تتبادلون القفشات والتسالى، ثم تقوم لتكتب مقالك.

*** عودة إلى الصحافة والحريات، البعض يرى أن إطلاق إصدار الصحف يمكن أن يكون حلاً للحريات وللإصلاح معًا .**

- لا يوجد حل وحيد، إذا أطلقت حرية إصدار الصحف ينبغي أن نحتكم دائمًا للقانون، فقلم الصحفي ليس سلاحًا يشهره في وجه الناس دون مبرر ..

في إنجلترا ، أنا أهاجم توني بلير ولا أخافه، وأعرف أننا إذا ذهبنا معًا إلى المحكمة فنحن الاثنان أمامها متساويان تمامًا، هذا لا يحدث في أي دولة عربية، لكننا أيضًا نشير إلى أن الدول العربية ليست متساوية تمامًا فيما يختص بالحريات، يعني في مصر ولبنان والكويت والبحرين وقطر مساحة أوسع من الحريات، لكن هذا يرتبط بشخصية الحاكم أكثر مما يرتبط بقواعد قانونية حاكمة، فإذا تغير الحاكم يمكن أن يتغير كل شيء، وعلينا نحن كصحفيين أن نستفيد من مناخ الحرية النسبي المتاح، وأن نستغل هذه النواحي الإيجابية لنبني عليها كي لا يتراجع الحاكم ويغير رأيه .

*** في مصر كما تتابع، يناضل الصحفيون لإلغاء عقوبة الحبس في قضايا النشر .**

- الحقيقة أنا لا رأيت ولا سمعت عن حبس الصحفيين في الغرب، ورأيي أن العقوبات المالية يمكن أن تكون رادعًا «كافيًا»، وعندي تجربة شخصية، أنا رُفِعَت عليَّ، دعوى في المحكمة بلندن، وخسرها شخص وتكلف وقتها « 50 » ألف جنيه، لكنه استأنف، والاستئناف تكلفته غالية جدًّا، الساعة في حدود « 1500 » جنيه، يعني مع نهاية الدعوى كان المسكين قد تكلف 500 ألف جنيه ..

أيضًا الدرس المهم الذي يمكن استخلاصه من الصحافة الغربية هو أن الرأي مقدس .. أنا قلت كثيرًا عن بلير، وقالت أيضًا الصحافة البريطانية التي وصفته بالفاشل التابع الذليل الأمريكي، وأحيانًا يوصف بأنه كلب فرنسي مدلل .. وهكذا، هذا رأي لا يمكن المساس به، لكن لو قلت هذا الكلام وأشرت إلى أنه تقاضى رشاوي أو أشياء ماسة بالشرف، فيكون من حقه أن يرفع دعوى ويطالب بالتعويض الذي يريد، يعني الرأي مقدس أنت حر تقول فيه ما تشاء، أما المعلومات فلا يمكن إلا أن تكون صحيحة .

*** بمناسبة هذه التفرقة المهمة بين الرأى والخبر، لعلك تابعت أثناء وجودك فى القاهرة الأزمة التى أثارتها تصريحات فاروق حسنى وزير الثقافة حول الحجاب، كيف رأيت تعاطينا سياسيًا وصحفيًا مع الأزمة ؟**

- أريد أن أضيف إلى كلامك أننى قادم من أزمة جاك سترو مع الحجاب فى إنجلترا، وهى أزمة مستمرة منذ عامين، وأريد أن أقول لك بصراحة إن قضية الحجاب من القضايا التى لن ينتهى الجدل حولها، يعنى لو قلت إننى مع الحجاب سيقول عنى نصف الناس إننى متخلف، ولو قلت إننى ضده يقول عنى النصف الآخر إننى كافر، عندى رأى فى الحجاب، لكن لا قضية تدفعنى لأن أتعارك مع نصف الناس حولها ..

فاروق حسنى قال رأيه أو جاك سترو قال رأيه، وكل منهما سيدفع ثمن آرائه، ومأساتنا فى الأمة العربية أننا نهتم بما ليس مهمًا، هناك قضايا كثيرة أهم من الحجاب يجب أن تشغلنا ..

وأريد أن أعطيك مثلاً أيضًا من تجربتى مع إنشاء جريدة الشرق الأوسط فى يوليو 1978 ، وخلال أشهر كانت كامب ديفيد وقامت القيامة، أيد البعض والبعض اعترض على هذه الخطوة، لكن لا أحد فى العالم العربى قال لى أكتب كذا أو لا تكتب كذا، وحتى اليوم لا نزال نعيش فى توابع كامب ديفيد ..

بينما لو كتبت عن الحجاب ستقوم علىّ نصف الدنيا، مع أن قضية الحجاب مستمرة قبل كامب ديفيد وبعده، قضية لن تنتهى ..

وهذا يعيدنا مرة أخرى إلى مسألة الحريات، أعنى أن اختيارك للقضايا المهمة هو المحك ؛ لأن الأهم بالنسبة لى قد لا يكون كذلك بالنسبة للرقيب، يعنى الرقيب قد يهمه الحجاب لكن لا يهمه كامب ديفيد، بالنسبة لى المسألة مختلفة، وإذا كنا نحكى عن كل النواقص والصعوبات والمخاطر، فيجب أيضًا أن نحكى عن شىء مهم،

الشطارة أنك تستعمل مساحة الحرية المتاحة لك إلى أقصى حد دون أن تقع فى المحظور، فلا تورط نفسك ولا تورط صحيفتك، ولا تحرم قراءك من متابعتك أو تجعلهم ينصرفون عنك ..

بعضنا عنده من المهارة أن يقف عند حافة الهاوية، وأن يزن الأمور جيدًا، وبعض آخر قد لا تتوافر لديه هذه القدرة .

*** على مستوى التناول الصحفى للموضوع، هل ترى أن المسألة تم التعامل معها فى إطار حجمها الطبيعى ، أم أنها استغرقت أكثر مما ينبغى؟**

– الصحف تتعامل مع الموضوع وفقًا لطبيعتها وزوايا اهتمامها، فالصحافة الرصينة لن تتعامل مع الموضوع كما تتعامل معه الصحافة الشعبية، وهذا يحدث فى صحافة الغرب أيضًا، يعنى فى إنجلترا صحف الإثارة أكثر توزيعًا وانتشارًا من الصحف الرصينة، وحتى على مستوى المحطات الإخبارية، ستجد فوكس نيوز وهى تقابل صحافة الإثارة، تسبق الـ CNN وهى إخبارية رصينة .

*** وعلى المستوى السياسى، كيف رأيت التعامل مع موضوع الحجاب، خصوصًا وأن البعض يرى أن صعود التيار الدينى والتمثيل القوى نسبيًّا للإخوان المسلمين فى البرلمان هو الذى يعطى حجمًا أكبر لقضايا من هذا النوع؟**

– نحن فى الوطن العربى دائمًا القضايا تتأرجح صعودًا ونزولاً، والمسألة أوضح فى مصر، حتى منذ ما قبل ثورة يوليو سنة 1952م ، كانت هناك خلافات بين تيار علمانى وتيار دينى، وحين جاء عبد الناصر وبدأت حقبة المد القومى سار الناس خلفها وآزروها، وحين ضرب المد القومى فى 1967م، ظهر الإسلاميون وصعدوا، وشخصيًّا، لا أجد بأسًا من وصول الإسلاميين للحكم ؛ لأنهم فى الحقيقة «شموليون» وسينكشف القناع عنهم فور وصولهم للحكم ..

أهم نقطة «تبيع» بالنسبة لهم أنهم ما حكموا، فلا يستطيع أحد أن يقيم أداءهم، بينما يستطيعون هم أن يتكلموا ليل نهار عن أخطاء الحكم وخطاياه ومشاكله وتقصيره وفشله !!

وفى كثير من الدول العربية نقع دائمًا أسرى فكرة التعميم، الذى هو خاطئ وغير علمى .

*** فى مصر، لعلك لاحظت أن قضية التوريث واحدة من القضايا المثيرة للجدل ، والتى يمكن اعتبارها زادًا يوميًّا لبعض الصحف، ما رأيك فى هذه المسألة ؟**

- التوريث ليس مألوفًا بالدول الجمهورية، وأنا أعرف جمال مبارك وأعتبره صديقًا منذ أن كان مقيمًا بلندن ، وأرجو ألا نمارس عنصرية عكسية ضده ، فنقول إنه لا يحق له أن يكون رئيسًا لأنه ابن الرئيس، وأرجو أيضًا أن يعمل جمال مبارك حسب قدراته الشخصية وليس لأنه ابن حسنى مبارك، فإذا قرر الشعب المصرى أنه لا يصلح رئيسًا فليكن، وإذا قرر أنه يصلح لأن يكون رئيسًا للجمهورية فهذا هو اختياره .

*** بعيدًا عن مصر، هل تتوقع فى ضوء تصاعد التهديدات الأمريكية والإصرار الإيرانى على المضى قدما فى المشروع النووى أن توجه ضربة لإيران؟**

- لا أستبعد ذلك ولا أتوقعه؛ لأن الإدارة الأمريكية فى الحقيقة إدارة فاشلة ومتطرفة، هذه الإدارة خسرت الحرب فى العراق، وفى « عز » هذه الخسارة سأل أحد الصحفيين بوش : هل نحن نربح الحرب؟ فقال : بكل تأكيد نحن نربح الحرب..

وهذه الرؤية قد تدفعه إلى شن حرب على إيران بزعم أنه رابح دائمًا، لكن أريد أن أقول إن إيران قوية جدًّا وتستطيع الرد، صدام كان مكروهًا من شعبه ومن المنطقة كلها، لكن إيران بلد به 70 مليون نسمة، ولديه امتدادات شيعية فى عدة دول

عربية، فى العراق وسوريا ولبنان والخليج العربى، وبالتالى لو شنت الولايات المتحدة الأمريكية حربًا على إيران، فسيكون الثمن غاليًا جدًّا جدًّا .

*** وماذا عن الوضع اللبنانى؟**

– الوضع اللبنانى مأساة، فأنا فى لندن منذ ثلاثين عامًا، يعنى المدة نفسها التى قضيتها فى بيروت، ومع ذلك الإرهاب يصلك إلى لندن ..

أنا كنت أعرف بيير منذ كان طفلاً، وأعرف أباه قبل أن يكون نائبًا، وهم أصدقاء شخصيون، وهذا ما يجعلنى أستشعر حجم المأساة، وهذا الإحساس داهمنى أكثر من مرة، يعنى فى انفجار «المحيا» بالرياض قتل الابن البكر لصديق عزيز جدًّا علىَّ، والابن الوحيد لصديق آخر .

*** برأيك ، هل تتعامل الدول العربية بواقعية مع الواقع الدولى الجديد ، الذى باتت فيه أمريكا مسيطرة بشكل منفرد على العالم، وغابت إمكانية اللعب على التناقضات التى كانت سائدة فى سنوات الحرب الباردة، أم أن هذه الواقعية مفرطة، أكثر مما ينبغى ؟**

– أعتقد أن جرعة الواقعية فى الدول العربية مبالغ فيها أكثر مما نتوقع ، يعنى كنا نتوقع أن يكون الموقف العربى من الحرب على لبنان أو من تدمير غزة أقوى، وكان يمكن أن يكون أقوى، ولكن لأنه لا يوجد إجماع عربى على قضية، فهناك ضعف عربى واضح، وهذه الدول مجتمعة، تستطيع أن تفعل أفضل كثيرًا، مما تفعل الآن .

*** هذه أمنية يبدو أنها لن تتحقق !**

– ليس بالضرورة كل الدول العربية، يكفينا الدول الكبرى المؤثرة، مثلاً مصر والسعودية وسوريا والعراق، لكن انظر المشهد، تجد العراق وقد دمر، سوريا

متهمة بالإرهاب وهكذا، يكفينا أن تتعاقى هذه الدول لتجر وراءها بقية الدول العربية .

*** عودة أخيرًا إلى الصحافة، كان التصنيف دائمًا يشير إلى وجود مدرستين فى الصحافة مصرية ولبنانية، هل مع كل التطورات التى جرت فى العقود الأخيرة إقليميًّا ودوليًّا، مازال هذا التصنيف صالحًا؟**

- هذه المدارس تتبع ما يتاح لها من حريات، يعنى لما كانت مصر حرة فى مطلع القرن العشرين، هاجر إليها الصحفيون اللبنانيون وكانوا من أنجح الصحفيين فى العالم العربى، وكان هناك وقت لا ينجح فيه الشخص عربيًّا إلا إذا نجح فى مصر، الصحافة المصرية انتكست مع التأميمات فى الستينيات، الآن الوضع أحسن لكنه ليس حسنًا، ولابد أن تكون البداية دائمًا من مصر ؛ لأنها نصف الأمة العربية .

*** سؤال شخصى لكنه مهنى أيضًا يا أستاذ جهاد، كثيرون ممن يقرأون مقالاتك يدهشهم هذا الكم من المعلومات والإحاطة بالموضوع إلى الحد الذى يجعل من المقال دراسة معمقة موجزة، حتى أننا نظن أن هناك فريق عمل يعمل تحت أمرك.**

- القراءة بالنسبة لى هواية قبل أن تكون مهنة، ولو تركت العمل سأحافظ على نفس مستوى القراءة والمتابعة .. أيضًا أنا ليس عندى اهتمامات أخرى، ليس عندى بيزنس يشغلنى أو أشياء من هذا القبيل، اخترت منذ البداية أن أعمل بهذه المهنة وأتحمل تكاليفها .

* * *

وحيد عبد المجيد

المنطقة على أبواب حرب مدمرة

فات أوان منعها !

الفكرة المفزعة التى يطرحها الدكتور وحيد عبد المجيد ، نائب رئيس هيئة الكتاب، نائب رئيس مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية «الأهرام» ، فى هذا الحوار مفادها أننا مقبلون على حرب مدمرة، مسرحها يمتد من الخليج العربى إلى شرق المتوسط، حرب وجود هذه المرة لا حدود، أطرافها الإقليمية «إيران وسوريا وحزب الله» من ناحية، وإسرائيل وأمريكا من ناحية ثانية، تستخدم فيها أسلحة دمار شامل وقنابل نووية تكتيكية «هذه حرب يعجز خيالنا عن تصور آثارها التدميرية، وستجرى خلال شهور قلائل وربما يكون أوان منعها قد فات»، ويرشح الدكتور وحيد الأزمة اللبنانية لتكون الشرارة التى تندلع منها هذه الحرب الكارثة .. لماذا صار حتميًّا وقوع هذا السيناريو الكارثى؟ وكيف تم اقتيادنا إليه؟ وهل ثمة فرصة ولو أخيرة لتجنبه؟ وهل من دور مصرى نشط لمنعه؟ .. هذا بعض ما تجده فى هذا الحوار ..

*** طرحت فى كتابات أخيرة سيناريو لحرب مدمرة تجتاح المنطقة خلال هذا الصيف استنادًا إلى أزمات إقليمية، خصوصًا الأزمة اللبنانية وأزمة البرنامج النووى الإيرانى .. ما أسانيدك وهل بالإمكان تجنب هذه الكارثة المروعة؟**

- ربما تكون فرصة تجنب اتجاه المنطقة إلى حرب مدمرة قد أوشكت على الانتهاء؛ إذ شهدت المنطقة خلال السنوات الأخيرة قدرًا هائلاً من التفاعلات بين أطرافها من ناحية، وتدخلات خارجية من ناحية ثانية، صُبَّ معظمها فى اتجاه واحد يبلور استقطابًا بين مشروعين مشروع أمريكى للهيمنة، ومشروع مقاوم لهذه الهيمنة، ورغم أن مشروع المقاومة له قيادات عديدة وبمسميات مختلفة، إلا أنه إجمالاً حمل عنوانًا كبيرًا هو «مقاومة المحاولات الأمريكية للهيمنة على المنطقة ومقدراتها»، ولأسباب كثيرة صارت هناك قوتان، تسعى كل منهما إلى قيادة هذا المشروع - مشروع المقاومة - إيران من ناحية، والقوى السنية المتشددة من ناحية أخرى، ولأسباب كثيرة أيضًا أهمها أن إيران دولة لديها وجود فعلى فى المنطقة، ولديها إمكانيات كبيرة وبوسعها أن تحرك أحداثًا فى الاتجاه الذى تريد، فهى التى استقطبت معظم الغضب ضد المشروع الأمريكى وضد أوضاع كثيرة تعانيها شعوب المنطقة، فى حين أن القوى الأصولية السنية باعتبارها «قوى شبحية» ليس لها وجود على الأرض، لم تستطع أن تستحوذ على الدور القيادى لهذا المشروع، رغم أنها لعبت الدور الرئيسى فى مقاومة النفوذ الأمريكى فى العراق، ومع وجود هذين المشروعين اللذين يزداد الصدام بينهما يومًا بعد يوم، تتجه المنطقة إلى الصورة النهائية لهذا الصدام، وهى حرب واسعة قد تمتد من شرق البحر المتوسط إلى الخليج، مع غياب قوة أخرى مؤثرة، كان يمكن فى حال وجودها أن تضع حدًّا لهذا الصدام المحتمل بين المشروعين، لكن الحاصل أن تأثير هذه القوة تراجع، وقدرتها على التعامل مع طرفى الصراع أصبحت محدودة، وهو ما يجعل احتمالات الصدام أقوى بكثير من القدرة على منعه.

*** تقصد بالقوة الغائبة مصر تحديدًا؟**

- أقصد ما يسمى بالدول العربية المعتدلة، مصر والسعودية والأردن، هذه القوى لم تستطع القيام بدور مؤثر على أى من المشروعين، رغم أن هذه الدول بعد الحرب

على العراق مباشرة اتخذت موقفًا متحفظًا من المشروع الأمريكى حين تبين لها أن هذا المشروع لن يكتفى بالعراق، وأنه يريد أن يغير المنطقة كلها بما فى ذلك هذه الدول ذاتها، فكان منطقيًا أن تبدى تحفظًا على هذا المشروع، وأن تعرقله بقدر ما تستطيع، لكنها اكتفت بالعرقلة دون أن تطرح مشروعًا بديلاً للمشروعين، وموقف هذه الدول فى الحقيقة صعب جدًّا ؛ إذ إنها لم تكن مستعدة للتعامل مع هذا الوضع ؛ لأنها لم يكن لديها أبدًا تخطيط استراتيجى أو رؤية مستقبلية لما يمكن أن يحدث فى محيطها، وهى - خصوصًا فى السنوات الأخيرة - تتعامل مع المشكلات عندما تصبح على وشك الانفجار أو بعد أن ينفجر الوضع فعلاً.

ونتيجة لهذا الغياب رأينا نموذجًا للصدام بين المشروعين الرئيسيين فى العراق، ثم انتقل منه إلى لبنان، وهو ينتقل الآن إلى فلسطين، وبهذا الشكل يزداد التداخل بين هذه الأزمات الساخنة ، مضافًا إليها أزمة البرنامج النووى الإيرانى، وهو ما يؤذن بقرب اشتعال أى من هذه الأزمات الساخنة، وسيكون هذا الاشتعال بمثابة الشرارة التى تفجر المنطقة ..

ولو أعملنا الخيال قليلاً بوسعنا تصور ما يمكن أن يحدث انطلاقًا من الوضع اللبنانى، الذى يثبت يومًا بعد آخر أن فرص تسويته ضعيفة، والوضع اللبنانى إذا خرج عن السيطرة يمكن أن يكون هو هذه الشرارة التى تشعل المنطقة، وأكثر السيناريوهات احتمالاً خلال الأشهر القليلة المقبلة، تشير إلى أن هذا الانقسام العميق داخل لبنان سيقود إلى تصعيد فى المواقف؛ فالمعتصمون من المعارضة لا يمكن أن يعودوا دون أن يحصلوا على شىء، فإذا ظلت القنوات أمامهم مسدودة سيصعدون المواجهة، ومنطقى أيضًا أن يرد الفريق الآخر بتصعيد مماثل عبر استقدام جماهيره من المدن اللبنانية الأخرى، وهنا تحدث مواجهة قد تتحول إلى حرب شوارع، وكما نعرف فإن القوى اللبنانية المتصارعة جميعها لديها سلاح، غير أن مستوى السلاح الموجود لدى حزب الله، ومستوى المقاتلين بين صفوفه، خصوصًا

مع تجاربهم فى المقاومة ضد الجيش الإسرائيلى، لا يمكن مقارنته بما لـدى الآخـرين، وهو ما يؤهل حزب الله لأن يفرض سيطرته، وفى هذه اللحظة سيكون هناك اجتياح إسرائيلى للبنان، اجتياح شامل، اجتياح أقرب لما حـدث فى 1982 ولـيس فى 2006، وفى هذه الحالة لا تستطيع إيران ولا سوريا أن تقفا متفـرجتين، لـيس فقـط؛ لأنهـما معنيتان بحزب الله، وإنما لأن هذا الاجتياح الإسرائيلى يعنى أن الحـرب علـيهما قـد بدأت، وأن الهدف الإسرائيلى التـالى بعـد القـضاء عـلى حـزب الله سـيكون إحـدى الدولتين، ودخول إيران وسوريا يعنى أننا بصدد حرب إقليمية ..

الأرجح أن تستخدم فيها أسلحة دمار؛ لأن الكيان الإسرائـيلى هـش جغرافيًـا ولا عمق لديه، فإذا استهدف بـصواريخ ذات تـأثير قـوى مـن حـزب الله وسـوريا وإيران، فليس مستبعدًا فى هذه الحالة أن يـرد الإسرائيليـون بقنبلـة نوويـة تكتيكيـة تعادل الواحدة منها بين 800 و 1000 صاروخ، وستنشب حرب يعجـز خيالنـا عـن تصور آثارها التدميرية، خصوصًا أن الحروب التـى اختبرناهـا بالمنطقـة عـلى مـدى عقود كانت فى مجملها محـدودة وعـلى قطـع أرض صـغيرة، أمـا هـذه الحـرب فإنهـا ستكون أول حرب وجـود بـالمعنى الحقيقـى؛ إذ سـتجد قـوى عديـدة «حـزب الله وحماس» ودولاً أيضًا «سوريا وإيران» نفسها مهددة فى وجودها، وإسرائيـل سـتجد نفسها أيضًا مهددة فى وجودها، خصوصًا أن التركيبـة الـسكانية فى إسرائيـل حاليًـا جزء كبير منها على استعداد للهرب فى أى لحظة، والنزعة القتالية عنـد الإسرائيليـين تراجعت بقوة، ولن يكون لديهم استعداد للدخول فى حـرب تقليديـة جديـدة بعـد خسارتهم فى حرب الـ 33 يومًا الأخيرة فى لبنـان، ففـى ظـل هـذا الوضـع لـن تجـد إسرائيل مفرًّا من استخدام قنابل نووية تكتيكية ردًّا على هجوم صاروخى متوقع من سوريا وإيران وحزب الله ..

هذا سيناريو أقرب كثيرًا مما نتصور، وإذا كنا عجزنا عن تصوره، فإن مـا تبقـى من وقت لتداركه قصير للغاية، وأخـشى أنـه لم يعـد هنـاك وقـت أصـلاً، وإذا كنـا

عاجزين عن تدارك هذه الحرب، فلابد أن نفكر على الأقل فيما سيترتب عليها من نتائج وكيفية تقليل الخسائر، وأظن أن ما نطلق عليه دولاً عربية معتدلة «مصر، السعودية، الأردن» هى الآن فى وضع أكثر من حرج، وضع كارثى حقيقى ؛ لأنها فى هذه الحرب لا تستطيع أن تقف مع إسرائيل، كما أنها لا تستطيع أن تقف مع إيران، وهو مأزق صنعته السياسات الخرقاء لهذه الدول، فهى لم تقم بأى دور نحو توجيه السياسات فى المنطقة أو حتى فهمها كما ينبغى خلال السنوات الأخيرة، أو محاولة جذبها إلى اتجاه مغاير بعيدًا عن مشروع الهيمنة الأمريكية أو مشروع المقاومة الراديكالى، وبوسعنا أن نتخيل ضربات ستطول السعودية مثلاً نظرًا لوجود قوات أمريكية على أراضيها، ولن يكون بوسع مصر أن تقف «متفرجة» أو كما يقال فى الخطاب الرسمى «إننا على مسافة واحدة من كل الأطراف» .. هذا لن يجدى .

*** لكننى خلال متابعة الأحداث من بيروت خلال أسبوع كامل، لمست من جميع الأطراف التى تحدثت إليها رغبة أكيدة فى منع تفاقم الموقف إلى حد نشوب حرب أهلية، وتأكيدهم جميعًا أنهم استوعبوا دروس الحرب الأهلية ، التى استمرت أكثر من 15 عامًا .**

- استيعابهم لدروس الحرب الأهلية الماضية ليس سببًا كافيًا لمنع نشوب حرب جديدة، ويمكن أن تظل طوال الوقت تسعى إلى تجنب الحرب إلى أن تنشأ ؛ لأن الأمر لا يتوقف على النوايا والرغبات، وإنما على ما يتم عمله على أرض الواقع، فإذا كانت المقومات الإقليمية والداخلية والدولية لهذا الاستقطاب تزداد، وتصل الأمور إلى حالة انسداد، فمهما كانت النوايا حسنة لن تمنع نشوب الحرب، ونحن نعرف أن لبنان عاش خلال أكثر من نصف القرن الأخير على تسوية تاريخية تم إبرامها عام 1943 ، وكانت الأوضاع متشابهة من حيث الشكل، يعنى كان هناك انقسام بين من يريدون الانضمام لسوريا ومن يريدون حماية فرنسية كاملة، وفى

ذلك الوقت كان هناك حكماء من أمثال رياض الصلح وبشارة الخورى، استطاعا من خلال حوار وتفاعل مع الوضع الإقليمى المساعد آنذاك أن يصلوا إلى حالة من الوفاق الوطنى، وهذا الميثاق تصدع بعد ذلك بسبب تدخلات إقليمية ودولية أخرى، منها أن الحرب بين القومية العربية والولايات المتحدة الأمريكية امتدت إلى الأراضى اللبنانية، وجرت أزمة أخرى عام 1958 ، أمكن تداركها ؛ إذ كان هناك حرص على ألا تتفاقم الأوضاع، وهذا الحرص فى الحقيقة ليس موجودًا الآن .

*** لماذا ؟**

– يعنى حين تنظر إلى الصراع بين عبد الناصر وقوى القومية العربية من ناحية، والغرب من ناحية ثانية، وتقارنه بالصراع الحادث الآن بين إيران والقوى الأصولية السنية من ناحية، وأمريكا والغرب من ناحية أخرى، ستجد الفرق كبيرًا جدًّا، فى الحالة الأولى كان الصراع موجودًا، لكن كان هناك أيضًا حوار ورغبة للالتقاء فى منتصف الطريق وتقديم تنازلات متبادلة، كان هناك قدر من الرشد السياسى، أما الآن فهناك حالة صدام كامل، وكل طرف يعتبر الطرف الآخر شرًّا مطلقًا، المشروع الموجود فى المنطقة الآن هو مشروع انتحارى لا يأخذ فى اعتباره أن هناك شعوبًا ، وأنها تحتاج إلى تنمية وبناء وتحسين أحوال معيشتها، والأمريكان من ناحيتهم بعد الفشل الذى واجهوه فى العراق دخلوا أيضًا فى صدام انتحارى .

*** إذًا أنت لا ترى فى الحالة اللبنانية مثلاً أى إمكانية لترميم الأوضاع وإحداث قدر من التوافق بين الأطراف المتنازعة؟**

– الانقسام فى لبنان اليوم حول هوية البلد، وكل ما تراه من جدل حول المحكمة الدولية والثلث الضامن فى الحكومة والرئاسة وغيرها، هذه كلها هى المظاهر

الإجرائية لهذا الانقسام الجوهرى حول هوية لبنان ، ما الذى ينبغى أن يكون عليه لبنان؟ هل ينبغى أن يكون مجرد ساحة للمقاومة ومواجهة المشروع الأمريكى ، بصرف النظر عن أى اعتبارات أخرى ، أم نريده دولة لا تحفل بالمقاومة ولا بالحقوق الوطنية وكل هذه المسائل ؟

اللبنانيون خلال العقد الأخير نجحوا فى أن يقيموا تعايشًا قلقًا جدًّا بين المشروعين، أنصار مشروع المقاومة أخذوا الدولة فى اعتبارها، وكذلك فعلت الدولة تجاههم، ومن ثم حدث نوع من التعايش الاضطرارى القلق بين الطرفين، هذا التعايش الآن يتداعى، وكانت نقطة التحول الرئيسية التى عجلت بسقوطه هى الحرب الإسرائيلية على لبنان، فقد وجد أنصار مشروع المقاومة أن مشروع الدولة يتم على حسابهم، وأن صمودهم الهائل فى الحرب يقابل برغبة بتسليم سلاحهم وإنهاء مشروعهم، والدولة من جانبها ترى أن هذه المقاومة جرت البلاد كلها إلى حرب رهيبة دمرتها لم يؤخذ رأيهم فيها، فوصل الطرفان إلى درجة من انعدام الثقة بينهما غير مسبوقة، ولهذا أتصور أن الفرصة الأخيرة - إن كانت موجودة - تتطلب تحركًا واعيًا للوضع وإدراكًا للكارثة ، التى يمكن أن تترتب على تصاعد الصدام فى لبنان، ويسعى هذا التحرك إلى إيجاد مشروع جديد وليس فقط ترميم التداعى الذى جرى، والكلمة السحرية بالنسبة للبنان الآن، هى مشروع توافقى جديد يستفيد من ميراث ميثاق 1943 واتفاق الطائف ، ولكن يراعى الظروف الجديدة المتغيرة دوليًّا وإقليميًّا، وأن يكون هناك تفاهم واضح وصريح على دور الدولة وحدود المقاومة وكيفية ترتيب العلاقة بشكل محدد بين الطرفين .

*** فى المشروع التوافقى الذى تقترحه تمييز بين الدولة والمقاومة، لكن إذا كان بالإمكان أن تنشأ دولة على أساس «المواطنة» لا على أساس «الطائفية» و«المخاصمة»، فلماذا لا تكون الدولة هى ذاتها المقاومة بجيشها وقرارها وليس أى طرف آخر؟**

- موضوع المواطنة كان اتفاق الطائف قد قطع شوطًا فيه، لكن لم يتم تطبيقه على أرض الواقع، ولا يمكن أن تلغى الطائفية فى لبنان بين يوم وليلة، لكن يمكن أن تضع برنامجًا زمنيًّا لتقليص الطائفية يبدأ بتوزيع الوظائف بشكل ما، وخلال فترة معينة يتم توسيع المواطنة على حساب الطائفية ..

أما بالنسبة لمشكلة المقاومة ، فتتلخص فى أن الدولة تطالبها بتسليم سلاحها، لكن المقاومة لا تعرف تسلم سلاحها لِـمَنْ؟ لأنه من الناحية الفعلية لا توجد دولة، وهكذا سيذهب سلاح حزب الله إلى طرف آخر وليس للدولة؛ لأن لبنان ليس عنده جيش بالمعنى الحقيقى، ومن ثم لا يمكنك أن تنزع سلاح هذه القوى بما فيها حزب الله، إلا إذا كان هناك جيش حقيقى ودولة حقيقية ملتزمة بقضايا واضحة بينها ما تلتزم به المقاومة، وتدريجيًّا تتحول المقاومة إلى جزء من بناء هذه الدولة ..

وحل الأزمة اللبنانية فى الحقيقة سيجنب المنطقة كلها الكارثة التى أشرت إليها؛ لأن الموضوع اللبنانى هو المرشح لأن تندلع منه الشرارة الأولى للتفجير، الموضوع الفلسطينى بإمكانه أن يستمر على هذه الحال عدة سنوات دون أن يتحول إلى انفجار، الموضوع العراقى يمكن أن ينطبق عليه الوصف نفسه ، والشرارة التى يمكن أن تحدث هذا الانفجار لن تخرج عن الأزمة اللبنانية أو أزمة البرنامج النووى الإيرانى، إذا أقدمت إسرائيل أو أمريكا على حماقة ترد عليها إيران، لكن الموضوع الإيرانى يتوقف على حكمة بعض الدول الأوروبية فى التعامل مع الموضوع وقدرتها على تجنب الوصول بالخلاف إلى صدام نهائى، وهى الحكمة التى تحتاجها الأزمة اللبنانية.

*** بالمناسبة ، ما تقييمك للمبادرة العربية التى حملها الأمين العام لجامعة الدول العربية إلى لبنان؟**

- أحد أهم جوانب القصور فى هذه المبادرة، أن عمرو موسى نسى أو تناسى أن هناك طرفًا مهمًّا جدًّا فى المعادلة اسمه إيران .. هذا التجاهل يجعل الجهد المبذول لحل الأزمة اللبنانية لا قيمة له ..

ولذلك أتصور أن الحوار الذى يمكن أن تتبناه مصر وبمشاركة الدول العربية المعتدلة هو أيضًا سيكون حوارًا غير مباشر بين الأطراف الدولية والإقليمية المتصارعة فى لبنان إلى جانب الأطراف الداخلية للأزمة، والتقدم فى هذا الحوار يحدث بين الحوار الوطنى والتفاوض مع القوى الإقليمية والدولية، والعنصر الأساسى هنا هو موضوع الثقة، وربما تكون هذه هى المشكلة الأساسية التى يواجهها الدور المصرى، ففى الوقت الذى تعلن فيه مصر أنها على مسافة واحدة من كل الأطراف، فإن الدور المصرى فى حقيقته لم يكن كذلك، هو يرغب فى ألا يكون منحازًا لكنه غير قادر على ذلك ؛ لأن قنواته مقطوعة تقريبًا مع أحد الفريقين، فبالإمكان إدراك علاقات تاريخية بين القوى السنية اللبنانية ووليد جنبلاط، لكن علاقات مصر مع حزب الله مقطوعة، ومع إيران كذلك بطبيعة الحال، ولا يمكنها أن تقيم حوارًا جديًّا مفيدًا والأمور على هذا النحو، فلابد أن تبدأ مصر بإقامة اتصالات مع حزب الله على الفور ومع أطراف المعارضة الأخرى، لابد أن تبنى جسورًا من الثقة وبسرعة مع هذه الأطراف لكى تصبح مؤهلة للعب هذا الدور، إذا نجحت مصر فى هذا يمكن أين يكون هناك أمل فى تجنب الكارثة التى يتجه إليها لبنان، ودون هذا الدور لن يمكن تجنب السيناريو المفزع الذى أشرت إليه .

*** أظن أيضًا أن الخطاب الرسمى المصرى يصدر تلميحات من طرف خفى بأنه لن يسمح بانتصار شيعى على السنة ؛ أى أن يتعامل مع الصراع بوصفه صراعًا مذهبيًّا بين سنة وشيعة ، وليس صراعًا حول حقوق سياسية واستحقاقات تتطلع إليها الأطراف المتنازعة؟**

- أتصور أن مصر حتى من الناحية العملية لا يمكنها أن تدفع فى هذا الاتجاه، مصر لا تستطيع أن تقدم شيئًا للسنة هناك، فإذا تطورت الأمور فى اتجاه الصدام المسلح فإن مصر لا يمكنها أن تقدم شيئًا، والذى سيتدخل فورًا فى هذه الحالة هى إسرائيل، وسيكون مفزعًا جدًّا أن نتصور وقوف مصر فى نفس الخندق مع

إسرائيل فى مواجهة قوى المقاومة داخل لبنـان، طبعًـا لا يمكـن اسـتبعاد المكـون السنى - الشيعى من الصراع، لكن النفخ فى هذا المكون مضر، وسيضر أكثـر مـن ينفخون فيه من السنة ؛ لأن حزب الله والقوى الشيعية فى لبنان مازالـت حريـصة على وضع حد لهذا المكون الطائفى فى الصراع ؛ لأن جـزءًا أساسـيًّا مـن المـشروع الذى ينتمـى إليـه حـزب الله، إنـه فى مواجهـة الهيمنـة الأمريكيـة والاعتـداءات الإسرائيلية، وسيظل حزب الله محافظًا للنهاية عـلى هـذا الطـابع للمـشروع ؛ لأن تراجعهم عنه يفقده مضمونه ، وكل ما يمكن أن يحصل عليه من تأييد حتـى مـن جانب السنة .

* **فى هذا التجاذب بين المشروعين اللذين أشرت إليهما تراكمت أخطـاء مـن جانـب الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة من ناحية ، ومن جانب القوى المعتدلة التى لم تقدم مشروعًا للتنمية والإصلاح يمثل عنصر جذب جماهيرى من ناحيـة ثانيـة، وهو ما سمح - بأخطاء الطرفين - بصعود التيارات الراديكالية والتفاف النـاس حولها .**

- القسم الأكبر من المأزق الذى نواجهه فى هذه اللحظة يعـود إلى الغـزو الأمريكـى للعراق، ولذلك كنا طوال الوقت نقول إنه إذا لم تجد الدول العربيـة حـلاً لمـشكلة صدام حسين وإحداث تغيير فى طبيعة النظـام العراقـى، فالنتيجـة أنـه سـيحدث تدخل أمريكى فى العراق ..

والدول العربية جميعها، معتدلة وغير معتدلـة، سـاهمت فى وصـول الوضـع فى العراق إلى ما وصل إليه، وظلت عاجزة حتى اللحظة الأخيرة عن التدخل لإحداث تغيير فى العراق، ولم يكن متصورًا أن يتعامل الأمريكان مع الوضـع بهـذه الطريقـة، كان التصور أنهم سيقومون بعملية محدودة تؤدى إلى تغيير فى بنيـة النظـام الـسياسى العراقى، وفتح الباب أمام نظام سياسى جديد، لكن تبين أن مـن خططـوا للحـرب على العراق، فعلوا ذلك وفى ذهـنهم أن العـراق هـو بدايـة لتغيـير كبـير فى المنطقـة،

وللأسف فإن بعض القوى المعارضة فى العراق ذهبوا مع الأمريكيين فى هذا الإتجاه، الاتجاه نحو تفكيك العراق بالكامل، وتحويله إلى ساحة مفتوحة للعراك، طبعًا كان هناك قدر كبير من الغفلة والجهل لدى القادة الذين خططوا للحرب، والذين ظنوا أن بإمكانهم أن يجربوا فى العراق ما جربوه فى ألمانيا واليابان فى الحرب العالمية الثانية، وهذا يدل على غباء شديد وجهل فادح بالظروف الإقليمية والدولية، وقد صب إسقاط النظام العراقى وإسقاط نظام طالبان فى مصلحة النظام الإيرانى، فقد كانا يمثلان معًا خصمين عنيدين له، وهكذا قدمت أمريكا هدية لإيران بإسقاط النظامين، ثم قدمت هدية أخرى ؛ لأنها بإسقاط النظام فى العراق دخلت إيران بمخابراتها وسلاحها وحرسها الثورى وعلاقاتها مع بعض القوى ونفوذها المالى، فبدا أن المنتصر الوحيد فى الحرب على العراق هو إيران، وقد شجع هذا إيران على التصعيد والتقدم للأمام، وبدأت فى السعى إلى إعادة ترتيب الوضع فى المنطقة بما يخدم مصالحها بالاعتماد على حلفائها، بدءًا من حزب الله وحماس، وبدأت تطور مشروعها النووى اعتمادًا على أن الولايات المتحدة بعدما تعرضت له من هزائم فى العراق باتت فى حالة من الضعف الميدانى ، لا تسمح لها بتوجيه ضربة إلى إيران، كما أن القوات الأمريكية هناك يمكن أن تتحول إلى رهينة فى يد الإيرانيين ..

وكان المفترض فى هذه اللحظات أن تقرأ القوى المعتدلة ما يجرى وتتعامل معه بشكل مختلف، لكن هذا لم يحدث .

*** وأخطاء المعتدلين العرب الذين لم ينجحوا فى تقديم نموذج لدولة معاصرة؟**

- هذا هو الخطأ التأسيسى، فالدول المعتدلة لم تقدم أى مشروع أو إنجاز حقيقى رغم امتلاكها للإمكانيات والثروة، وتجارب هذه الدول إما محبطة جدًّا مثل التجربة المصرية، أو أن تجاربها تتوقف عند استخدام فائض أموال كبير جدًّا من أبنية ومنشآت وغيرها، والمشكلة هنا أن المنطق الذى يقومَ عليه الاعتدال العربى هو أن القوة ليست فقط فى السلاح، وأن تحقيق الكرامة الوطنية لا يتم بالسلاح

وحده ، وإنما بتقدم فى التعليم والصناعة والتكنولوجيا والزراعة وغيرهـا، وهـذا منطق صحيح إلى حد كبير، فالصين مثلاً رغم كونهـا دولـة نوويـة ولـديها جيش قوى، فإن ما يحقق الكرامة الوطنية للصينيين هـو معـدلات نمـوهم الاقتـصادى المرتفعة، وتواجد السلع والمنتجات الصينية فى كل مكان فى العالم حتـى فى داخـل الدول الغربية المتقدمة صناعيًّا، أما دولنا الموصومة بالمعتدلة فإنها لم تحقق شيئًا من هذا القبيل، وبالتالى ليس هناك ما يتباهى به المواطن فى هـذه الدولـة عـلى صـعيد الكرامة الوطنية، والنتيجة مزيد من الإحساس بالخيبة والإحباط، وهو ما يجـذب هذه الجماهير المحبطة بالضرورة إلى أى نموذج ، يشعرها بالكرامة الوطنية وبقدرة المقاومة حتى لو كان انتحاريًّا ويقودها إلى الهاوية .

* * *

د. جابر عصفور

الدولة الدينية تنسف الحريات
وتعطل الإبداع وتحول الأقباط إلى أهل ذمة

لا تنفى الدولة المدنية حضور الدين فى واقع الناس .. موجهًا لسلوكهم ونبعًا دافقًا يحفزهم على الإتقان والإبداع وإعمار الحياة .. هذا ما فهمه دعاة النهضة فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين .. الذين انطلقوا فى رؤاهم الإصلاحية من ظهير دينى أساسًا ، ولكنه مغاير لما يفهمه دعاة التكفير وإقصاء الآخر .. فقهاء الجهامة من دعاة الدولة الدينية.

فى هذا الحوار مع الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة .. اقتراب من دلالات الدولة المدنية ووظائفها .. تلك التى تعلو فيها قيم الشفافية والتسامح والمواطنة .. وتغيب نعرات التعصب والتفرقة بين الناس لأسباب دينية أو طائفية أو عرقية .

سنكتشف هنا أن الاستبداد السياسى والفساد وسوء الأداء الحكومى .. هى الجرافات التى تمهد التربة لتيار التطرف بروافده المتنوعة .. دينية وسياسية وثقافية واجتماعية وأن خطوتنا الأولى «للإقلاع» من حال الركود والبلادة والانهزامية والتعصب الأعمى .. هى فى نبذ الاستبداد والقضاء على الفساد والمفسدين . وإلى تفاصيل الحوار .

*** تتصاعد بقوة في هذه الآونة وتيرة الحديث عن الدولة المدنية، ألا تلاحظ أن دعوات الإصلاح التي انطلقت في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ومازالت أصداؤها تتردد إلى اليوم، هي تلك التي استندت إلى ظهير ديني كما جرى مع الأفغاني ومحمد عبده مثلاً، فيما توارت دعوات الإصلاح ذات الصبغة الليبرالية أو اليسارية؟**

- تاريخيًّا، كل من تسميهم دعاة إصلاح وكل من تحدث عنهم أحمد أمين في كتابه الشهير عن دعاة الإصلاح، من أمثال الطهطاوي، والكواكبي والأفغاني ومحمد عبده وعلي عبد الرازق، هؤلاء جميعا رجال دين ، لكنهم بلا استثناء كانوا مؤمنين بضرورة الفصل بين ما يسميه الأفغاني السلطة الزمنية والسلطة الدينية، ورغم أن فكرة أن الإسلام دين ودولة كانت قائمة، إلا أنهم انتهوا من خلال دراساتهم المعمقة للعصر وللإسلام، إلى أنه لا تناقض بين وجود دولة مدنية، وأن يحترم الإسلام وغيره من العقائد، ولهذا السبب، طالب الأفغاني بوضوح شديد بالفصل بين السلطتين الزمنية والروحية، وعندما سافر رفاعة الطهطاوي إلى باريس ورأى كيف أن الدولة المدنية تحترم الأديان، عاد وفي ذهنه خاطر ملح أنه لابد من قيام دولة مدنية، فهذه الدولة هي التي تحترم الأديان، وهي التي تحمي المؤمنين من كافة الأديان من شرور التعصب وكوارثه ، والفكرة نفسها قالها محمد عبده، وقالها الشيخ علي عبد الرازق في كتابه الشهير «الإسلام وأصول الحكم»، وحتى قبل علي عبد الرازق قالها عبد الرحمن الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد» .. كل هؤلاء انطلقوا من ضرورة دعم الدولة المدنية والدفاع عنها واحترامها، باعتبار أن هذه الدولة لا تقوم على التعصب الديني، ولا يمكنها باسم المذهب أو الطائفة أن تقمع مواطنيها ..

لقد أيقن هؤلاء أن المسلمين أدرى بشئون دنياهم، ومن حقهم أن يختاروا نظام الحكم الذي ينظم حياتهم ويضمن اندفاعها إلى الأمام، ويحمي في الوقت نفسه

العقائد ويحول دون بزوغ التعصب ؛ فالدولة المدنية لا تفرق بين سنى أو شيعى أو معتزلى أو أشعرى أو مالكى أو حنبلى أو حنفى، وبالضرورة لن تفرق بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى ..

وبالمناسبة ، فإن فكرة الدولة الدينية جاءت من خارج مصر، مواكبة لفكرة الخلافة الإسلامية أو محاولة إحيائها، والتاريخ يكشف عن الدور الذى لعبه الشيخ محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار وعبر اتصالاته بالحكم الوهابى فى السعودية فى الدعوة إلى الدولة الدينية، وقد تلقف منه البعض الفكرة وسعى إلى إقناع الملك فؤاد بها، واستغل الملك بدوره بعض علماء الدين الذين يعملون فى خدمة السلطان ليكون هو خليفة المسلمين، وهذا ما دفع الشيخ على عبد الرازق إلى كتابة «الإسلام وأصول الحكم»، وهو الذى فجر هذه المسألة ووقف ضد هذه المطامع، صحيح أنهم انتقموا منه فطردوه من منصبه فى القضاء، وسحبوا منه شهادة العالمية، لكن كتابه مع ذلك هو الذى فجر فكرة الدولة الدينية، أو الدعوة إلى دولة دينية تحت شعار الخلافة، ومضت الدولة المدنية فى مسيرتها وكان أساسها دستور 1923 ، وهو حتى الآن أفضل الدساتير المصرية، وأكثرها تثبيتًا لجذور وأفكار الدولة المدنية .. يكفى أن تعرف مثلاً أنه لا ينص على أن الإسلام هو دين الدولة وإنما ينص على أن الإسلام هو دين الأغلبية وينطق باحترام الحرية الفكرية والديانات كلها ..

ولذلك، فإن نسبة فكرة الدولة الدينية إلى بعض رجال الدين من رواد الإصلاح فكرة خاطئة، هؤلاء كانوا دعاة دولة مدنية، وهذه الدعوة مازالت قائمة لدى بعض علماء الأزهر إلى الآن، ولهذا لم يكن من قبيل المصادفة أن يكتب الدكتور عبد المعطى بيومى كتابه «الإسلام والدولة المدنية» وهو كتاب يبدأ من حيث انتهى الكواكبى، ويؤكد بحسم أن الإسلام فى عصور نقائه الأولى، كان يؤسس ويؤصل لفكرة الدولة المدنية .

*** هـذا ينفـي عن علماء الدين من الإصلاحيين فكـرة الدعـوة إلى دولـة دينية ، لكنه لا يجيب عن السؤال: لماذا انزوت دعوات الإصلاحيين من الليبراليين واليساريين، ولماذا الدعوة إلى الإصلاح على خلفية دينية هى الأعلى صوتًا؟**

- هذا مرده إلى مجموعة من المتغـيرات منهـا هزيمـة يونيـو 1967 م، وهـذه الهزيمـة أصابت المشروع القومى وهو مـشروع دولـة مدنيـة رغـم أن قادتـه عـسكريون، أصابت هذا المشروع فى مقتل وهزت الثقة فيه، نتيجة للمفاسد التى أحاطت بهذا المشروع، وبدأ البحث عن بديل، بعض الـدول حاولـت أن تـستغل هـذا الفـراغ فتقدمت بفكرة الدولة الدينية إلى الأمام، ومعروف الدور الذى لعبته السعودية فى هذا الاتجاه، من خلال المدرسين الذين عملوا هناك، ومـن خـلال الـدعم الـذى قدمتـه للإخـوان المسلمين أثنـاء فـترة اضـطهاد عبـد النـاصر لهـم وهـروبهم إلى هنـاك..

منها أيضًا قيام الثورة الإيرانية، وهى التى قـضت تمامًـا عـلى النظـام المـدنى فى الحكم واستبدلت به نظام الدولة الدينية، وللأسف كان السبب الأساسى هو فـساد نظام الحكم المدنى، وقد استفادوا بالتأكيد مـن فـساد نظـام حكـم الـشاه وأخطائـه فكسبوا أرضية شعبية مهمة جدًّا، وهكذا قامت دولـة المـلالى، وفى أفغانـستان كـان النموذج الثالث ؛ إذ نتيجة لفساد الحكم المدنى تمكنت حركـة طالبـان مـن الـسيطرة على الحكم، وتلقـوا مسـاعدات من دول غربيـة وعربية فى مواجهة المـد الـشيـوعى كى لا يقترب من منابع البترول، هذه النماذج تعاونت على إحيـاء الدولـة الدينيـة فى البلاد التى فشلت فيها دولة المشروع القومى، وهكذا بدأ مشروع الدولة الدينية يبزغ من جديد، وستجد دائمًا أنه بقدر ما ترتفع درجة الفساد فى أنظمـة الحكـم المدنيـة أو العسكرية ، ترتفع الأصوات المطالبـة بدولـة دينيـة بوصـفها الحـل المنـشود، ولهـذا «شعشع» الإخوان المسلمون وشعارهم «الإسلام هو الحـل»، لـيس بـسبب واقعيـة

دعوتهم، فهى مجرد شعار خال من المحتوى الدقيق، يعنى هم يكسبون أرضًا فى كل منطقة عربية بسبب فساد أنظمة الحكم القائم، وعندى دليلان على ذلك.

الدليل الأول فى الجزائر ؛ إذ نتيجة الفساد الذى استشرى فى حركة التحرير الجزائرية كسب الإسلاميون الانتخابات، والأمر نفسه جرى فى فلسطين، فبسبب الفساد وغياب الشفافية كسبت حماس، وبالمناسبة فأنا أرى أن حماس ستقود فلسطين إلى نفق مظلم لا نهاية له .

*** ما المخاطر التى يمكن أن يأتى بها حكم دينى برأيك؟**

- مخاطر عديدة يمكن أن أجملها على النحو التالى :

على المستوى السياسى سيقضى فورًا على حق الاختلاف ؛ لأن كل مذهب دينى يتصور أنه وحده على حق وأن غيره على باطل، وهذا يعنى إلغاء فكرة تعدد الأحزاب ؛ لأنه لن يوجد سوى حزب وحيد هو حزب الله، أو الحزب الذى يرى أنه يحتكر الشريعة الإسلامية، وأن أى خروج على - ما يراه هو- الشريعة الإسلامية هو خروج عن الدين، على المستوى الفكرى سيحدث نوع من التراتب بين البشر يجعل الأقرب إلى هذه الفئة هو الأكثر تميزًا، أضف إلى هذا أن هذه الطائفة ستقيم اتحادًا وهميًا بينها وبين الدين، فهى وحدها التى تمثل الدين دون سواها، وبالتالى لن يوجد أى اجتهاد أو محاولة حقيقية لإعادة التفكير فى أمور الدين، وستبقى الأوضاع على ما انتهت إليه هذه المجموعة ؛ لأن ما انتهت إليه برأيها هو شرع الله، وغير ذلك هو مخالفة لشرع الله، يعنى إذا قالت هذه المجموعة إن الحجاب ضرورة دينية لن تستطيع أن ترفض ذلك، وحتى الآن ؛ كثيرون من علماء الدين فى الأزهر يرون أن الحجاب فريضة دينية ، فإذا خالفتهم اعتبروك خارجًا عن الدين ؛ لأنك تنكر معلومًا من الدين بالضرورة، فإذا قلت لهم إن الإسلام عرف الرق، وأن الرق ألغى اتساقًا مع مفاهيم العصر، أنكروا وقالوا هذا ثابت ومعلوم من أمر الدين، على مستوى

الإبداع، ستختفى الحريات الفكرية والإبداعية تمامًا، وتتواجد رقابة أقسى من أى رقابة ؛ لأنها ستشبه محاكم التفتيش على الأدباء والمفكرين أيضًا سيصبح هناك نوع من التمييز الدينى أو الطائفى بين الأغلبية المسلمة التى تحتكر الكلام باسمها طائفة واحدة، وبين الأقلية القبطية، ويتحول الأقباط إلى مواطنين من الدرجة الثانية، يعنى سيعودون باختصار إلى اعتبارهم أهل ذمة، ولا تصدق ما يدعونه خلاف ذلك فهذه بروباجندا سياسية وخطاب هدفه الوصول إلى الحكم، لكن ما أن يصلوا حتى تتكشف نواياهم الحقيقية .

*** لكن مصر لديها تراث فكرى طويل وتراكم يكسبها مناعة فى مواجهة سيناريو من هذا النوع؟**

- ما يحمى مصر حتى الآن من أن يحرز دعاة الدولة الدينية نصرًا كاملاً عليها هو أن أسس الدولة المدنية فى مصر قوية جدًا، يعنى مؤسسات الدولة فى مصر عريقة، هذا هو الذى يحمى مصر الآن وفى المستقبل ، شريطة ألا تجعل دعاة التيار الدينى السياسى يكسبون بفضل الفساد أو الاستفادة من أخطاء الآخرين؛ لأنهم يقولون: نحن سنملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورًا، ويدَّعون أنهم لا يعرفون الفساد ؛ لأنهم يطبقون شرع الله، وبعض البسطاء إلى اليوم يصدقونهم، ولا يمكن وقف تمددهم إلا بالقضاء على الفساد وإقامة دولة مدنية حقيقية وإشاعة قيم الديمقراطية، والشفافية، وإيجاد نظام ضرائبى متوازن ورعاية صحية واجتماعية جيدة للناس، وإحداث تغيير ملموس وإيجابى فى أنظمة التعليم والدعوة، نحن لدينا ألف داعية وخطيب مسجد، قطاع كبير منهم يمثل قنابل موقوتة ضد الدولة المدنية، ما الذى فعلناه لهم، هل أنشأنا مراكز لتدريبهم وإعادة تأهيلهم بما يتوافق مع العصر ؟!

*** ما أشرت إليه يفسر الأسباب الداخلية لنجاح الدعوة إلى دولة دينية، لكن ثمة سببًا خارجيًا مهمًا، يتمثل فى الإحساس العارم بالظلم الذى تجسده القوة الوحيدة فى**

العالم اليوم «أمريكا» التى تسعى إلى إشاعة العولمة على طريقتها ، بما يهدد هويات الدول الأضعف ونحن منها، وهو ما يدفع الناس إلى الاحتماء بالدين .

- كلما ارتفعت حدة العولمة، ارتفعت معها الدعوة إلى الدولة القومية، لكن الدعوة إلى دولة قومية تختلف عن الدعوة إلى دولة دينية، فأنت فى مواجهة العولمة يمكنك أن تتمسك بهويتك العربية دون أن يعنى هذا أن تتعصب دينيًا، وبالتأكيد فإن التعصب للدين جزء من التمسك بالهوية القومية، لكن ليس هذا إلا عاملاً ثانويًا، هل نسينا ما قاله حافظ إبراهيم فى عمر بن الخطاب :

آمنت لما أقمت العدل بينهم فنمت نومًا قرير العين هانيها

هذا يعنى أن أى حكومة تقيم العدل وتحقق السلام الاجتماعى، وتحقق الرفاهية للجميع، ستختفى منها أشكال التعصب والنعرات الدينية، وانظر إلى ما فعلته ماليزيا التى تسلمها مهاتير محمد 1982 دولة متخلفة، وفى أقل من عشرين سنة أحالها إلى دولة متقدمة خالية من النعرات المذهبية والطائفية ؛ لماذا؟ لأنه غير نظام التعليم فيها تغييرًا جذريًا، وبعد ما انتهى من التعليم أوجد نظامًا اقتصاديًا متقدمًا ومشجعًا على الإبداع والابتكار، فنحن إذًا نتحدث عن تجارب ليست بعيدة عنا، هذه التجارب فيها بعض الكارثة التى نرجو أن يجنبنا الله شرورها، وأخرى فيها بعض الامتياز والتقدم الذى نرجو أن نسير فيه، فلماذا نكرر التجربة الجزائرية ولا نكرر تجربة ماليزيا؟

ما نحتاج إليه هو أجهزة فعالة تشعر الناس أنك معها ولا تستهين بأرواحها، الناس تشعر أن الإنسان فى مصر بلا قيمة، يعنى تحدث عندك حادثة العبارة ويذهب ضحيتها أكثر من ألف شخص دون أن تنقلب الدنيا أو تستقيل الوزارة، وقبلها كوارث القطارات، حرائق ووفيات بالمئات دون أن يتحرك أحد، يا سيدى شهود العيان على حادثة احتراق قصر بنى سويف قالوا كلامًا عجبًا، يعنى أن الناجين الذين قدر لهم أن يعالجوا فى المستشفى القريب لم يجدوا علاجًا، وحتى حين وجدوه

فإنها كانت فترة مؤقتة إلى أن توارت المسألة فى أجهزة الإعلام، هذا الفساد والأداء السيئ هو الذى يمنح أرضًا جديدة كل يوم لتيار الإسلام السياسى ..

الأمر كما أراه يشبه النكتة، استقطاب بين الحزب الوطنى والإخوان المسلمين هذا غباء ؛ لأنه لو كان بجانب حزب الحكومة أحزاب مدنية قوية مسموح لها بحرية الحركة، فإن الصراع سيكون أفضل وستمنح دعاة الدولة المدنية فرصة بأن يتقدموا أكثر، لكن للأسف الدولة تعمل على إضعاف الأحزاب المدنية الموجودة، وتنزع منها أسباب القوة وتسعى إلى إفسادها وإشعال الفتن بداخلها، إذًا كيف ستواجه الخطر القادم ممثلاً فى دعاة الدولة الدينية؟! لا يمكن أن تواجهه كحزب حاكم منفردًا، لابد أن تواجهه بالأحزاب المدنية القوية، ادعم هذه الأحزاب واسمح لها بالتواجد والانتشار، هذه الأحزاب هى فى نهاية الأمر درع هذا الشعب فى مواجهة مخاطر الدولة الدينية، وإلا فالكارثة قادمة بالتأكيد .

*** فى حديثك عن مخاطر الدولة الدينية ، أشرت إلى فكرة التعصب، وأظن أن ثقافة التسامح غائبة حتى فى سجالات مثقفينا الذين ينطلقون من خلفيات مدنية لا دينية .**

- ثقافة التسامح التى تشير إليها تقلصت فعلاً لعدة أسباب، منها أن مساحة الديمقراطية المتاحة محدودة وهو ما يؤثر على النقاش بين المثقفين، وأحب أن أعود إلى فكرة بديعة طرحها عبد الرحمن الكواكبى فى «طبائع الاستبداد»، هو يقول إن الاستبداد مثل العدوى، ينتقل من شخص إلى آخر ومن جماعة لأخرى ، فإذا كان الاستبداد موجودًا فى قمة الهرم، فإنه ينتقل إلى الطبقات التالية، وتعيد الناس إنتاجه بصور مختلفة، فالمقموع يتلقى القمع الواقع عليه ويعيد إنتاجه على مقموع غيره ، كما قال صلاح عبد الصبور : نحن المقتولين القتلة ..

ولهذا السبب، لا تجد الحوار بين المثقفين يأخذ طابعًا سمحًا إلا فى دولةٍ الهامشُ الديمقراطى فيها واسعٌ، وإلا لماذا لم نسمع فى فترة ازدهار الليبرالية المصرية عن

سوءات حوار المثقفين كما نسمع عنه اليوم، ويكفى للدلالة على هذا أن من دافع عن طه حسين فى أزمة كتابه «فى الشعر الجاهلى» نواب من الوفد، رغم أن طه حسين كان منتميًا إلى الأحرار الدستوريين، وبقية القصة معروفة بعد ذلك، وربما هذا يفسر الكيفية التى عولجت بها قضية «الشعر الجاهلى»، والكيفية التى انتهت إليها أزمة كتاب «الإسلام وأصول الحكم» .. فى الحالة الأولى كانت الحكومة وطنية تؤمن بالليبرالية والاختلاف، وفى الحالة الثانية كانت حكومة على قمتها حزب الاتحاد بميوله الاستبدادية الواضحة، هذا يؤكد لك أنه كلما تزايدت طبائع الاستبداد على المستوى السياسى، تزايدت على مستوى المحكومين .

*** فى إجابتك أيضًا تحدثت عن التعليم والجامعة ، خصوصًا فى قضية طه حسين الذى تعرض للفصل والتشريد من الجامعة واستقال بسببه مديرها أحمد لطفى السيد، كأستاذ جامعى، كيف ترى حال الجامعة اليوم على هذا الصعيد، صعيد الحريات من ناحية، والتعليم من ناحية ثانية؟**

- الجامعة المصرية الآن فى أسوأ عصورها ، وفى أكثر حالاتها انحدارًا لأسباب عديدة، منها أن الدولة وجهت لها ضربتين قاصمتين، الضربة الأولى فى سنة 1954، والثانية فى 1981 ، فى 1954 أصدر مجلس قيادة الثورة قراره الشهير بفصل أكثر من 50 أستاذًا جامعيًا، هذا كان بمثابة ضرب للجامعة وردع لمن يمكن أن يختلف مع الحكومة، والضربة الثانية سنة 1981 تم فيها فصل أكثر من 60 أستاذًا بتهمة مضحكة وهى أنهم أسهموا فى الفتنة الطائفية، هذا أسهم فى أن تصبح الجامعة أقرب إلى التيار المطيع المذعن، والإذعان هنا سياسى وفكرى معًا، وسنلاحظ فى الأزمتين أن أستاذا واحدًا لم يحتج بينما حين أصدر وزير المعارف العمومية قراره بنقل طه حسين إلى الديوان العام بوزارة المعارف ، احتج أحمد لطفى السيد واستقال !!

يمكن أن تضيف إلى ذلك أن الدولة لم تعد تنفق على الجامعة، وأنها تتبع خطة خرقاء تجبر الجامعة على قبول أعداد هائلة من الطلاب، هى ليست مؤهلة لقبولهم، فمثلاً كلية الآداب التى انتسب إليها كانت معدة للتدريس لنحو 200 طالب وطالبة، الآن بها ما يزيد على 20 ألف طالب وطالبة، فى كلية التجارة محاضرات تضم أكثر من 4 آلاف طالب فى القاعة، النسبة فى العالم هى أستاذ واحد لكل 6 طلاب، عندنا النسبة أستاذ واحد لكل 20 ألفا أو 60 ألف طالب، فكيف يمكن أن يتواصل الأستاذ وطلابه، لهذا تخلف التعليم عندنا وسيستمر فى التخلف ما لم نتدارك هذه الأخطاء، أعط الجامعة ميزانيات حقيقية، وامنحها فرصة أن تحدد عدد الطلاب الذين ينتسبون إليها، وامنح الأساتذة فرص الاحتكاك بالجامعات الكبرى فى العالم ليطلعوا على نظم البحث والتدريس هناك، وبالمناسبة دعنى أتساءل عن نظام البعثات العلمية الجامعية، أين هو وما الذى يقدمه للجامعة وخريجها وأساتذتها، زد على هذا الاختراق الذى سمح لممثلى تيار الإسلام السياسى بإرهاب الأساتذة والطلاب منذ عهد الرئيس السادات، وقد لعب هذا الاختراق دورًا أكيدًا فى التضييق على الطلبة والأساتذة معًا ..

*** أريد أن أختم بتصور حول الإصلاح .. يرى أننا لا يمكننا أن نحقق نهضة من أى نوع دون تحقيق استقلالنا الحضارى الذى يستند فى الأساس إلى موروث ثقافى دينى ..**

- ميراثنا الدينى جزء عزيز جدًّا ومهم جدًّا فى تكوين الشخصية، وهو مصدر قوة لهذه الشخصية فى مواجهة تيارات العولمة ، التى تريد أن تقضى على الهوية والخصوصية، ولكن المهم أنك حين تعود إلى ميراثك سواء أكان دينيًّا أم فكريًّا، فإنك يجب ألاّ تعود إليه «بعبله»، إنما أنت تختار وتنتقى منه ما يدفعك إلى الأمام، ففى هذا الميراث على سبيل المثال ما يدعو إلى عدم تعليم المرأة وإلى احتقارها،

وعندك أيضًا ما يحث على مشاورة النساء والاعتداد برأيهن فبأيهما تأخذ .. عندك صورة المرأة الفقيهة العالمة المتفاعلة مع العالم ، وصورة المرأة المنبوذة .

لا أحد يختلف على أهمية الميراث الذى يحصنك فى مواجهة العولمة ويحافظ على شخصيتك، والحقيقة أنه فى مواجهة تيار العولمة الكاسح، هناك تيار تتبناه اليونسكو يعرف بتيار التنوع الثقافى الخلاق .. هذا التيار يدعو إلى تفاعل الثقافات فيما بينها، ولهذا السبب تهاوت نظرية المركزية الثقافية الأمريكية بمعناها التقليدى وبزغت أفكار جديدة، نحن مع هذه الأفكار الجديدة التى تؤكد خصوصيتنا وتدفعنا إلى التقدم، والمهم أن نغربل هذا التراث، ونأخذ منه ما يدفعنا إلى التقدم .

* * *

نبيل عبد الفتاح

أضعف ما فى مصر الآن
هو نخبتها الحاكمة

ستجد فى هذا الحوار كثيرًا مما يؤرق ويبعث على القلق .. كلام من هذا النـوع : مصر الآن صارت أخلاطًا وتهجينات مجهولة المصدر ، غاب شعار مصر للمـصريين وانفصمت عراه، وأصبحنا أقرب إلى تجمع بـشرى لا ينظمـه سـوى المكـان فقـط ، الصفوة السياسية المصرية تدهورت ، وكثيرون ممـن دخلـوا إليهـا جـاءوا مـن بـاب الولاء المطلق والسمع والطاعة ، مصر كلها تم اختزالها عند القمة ولا شيء بعد ..

الدولة تلعب بالإسلام وبالمسيحية الأرثوذكسية، والخلط بين الدين والـسياسة ميدان واسع للتواطؤات فى مصر .. نحن فى مواجهة غزوة اخترقت الروح المصرية ، وغيبت دورها الإقليمى والدولى .

هذه مجرد «عينة» من «استخلاصات» سياسية واجتماعية ، انتهـى إليهـا المفكـر والباحث المرموق نبيل عبد الفتاح الخبير بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، فهل يمكن أن يكون هذا الكلام المؤرق باعثًا على العمل بحثًا عن مخارج ؟ هل يمكن أن يكون إشارات حمراء تستدعى التوقـف والبحـث والتأمـل أخـشى أن كثيرًا مما يقال – وإن كان جديًّا تذروه الرياح ؛ لأنه فى الغالب لا يصادف هوى عنـد صناع القرار ..

لكن لا بأس .. إلى تفاصيل الحوار :

*** ثمة شواهد عديدة على «تآكل» الدولة الحديثة فى مصر، تآكـل يقـترب مـن حافـة الانهيار، أريد أن نؤصل معك لبدايات هذا التآكل ومراحله، كيف بـدأ وإلى أيـن يقودنا؟**

- الذى حدث أنه بعد تأسيس النظام التسلطى فى أعقاب حركة الـضباط الأحـرار، عاشت مصر على فائض مواريث الحداثة، هذا الفـائض مـن الخـبرات والتقاليـد والهندسات الدستورية والسياسية والقضائية والإبداعية فى منـاح عديـدة، شَـكَّلَ خمائر الدفع الأساسية لنظام يوليو، والمصريون على الأقل بالنسبة للفئـات الأكثـر شعبية، كانوا على استعداد أن يعطوا شرعيـة مـا للنخبـة الجديـدة، فى إطـار دعـم مشروعها الإقليمى الكبير، وأيضًا مساندة لفكرة العدالة الاجتماعية، و أن يكـون لمصر وزن وثقل إقليمى ودولى مع حركة عدم الانحياز، لكـن فى الوقـت نفـسه لم يكن هناك إدراك أن الطبيعة التسلطية والثقافيـة الـسياسية الجديـدة القائمـة عـلى التعبئة ونفى الفردنة وتغييب الحريات الأساسية والشخصية وراء مقولات كبرى كالأمن القومى، وغيره من العبارات العامة والغامـضة، لم يكـن هنـاك إدراك أن هذه الطبيعة للنظام سوف تنتهى باعتصار فائض الحداثة الذى كان قـائمًا فى مـصر آنذاك .

وفى حقيقة الأمر ، فإن الذى ساهم فى بدء التآكـل التـدريجى للدولـة هـو أولاً الصراع العربى الإسرائيلى الذى استخدم شـعارًا لقمـع الحريـات العامـة والفرديـة ومزيد من «عسكرة» المجتمع و«بولسة» الدولة، فـضلاً عـن أن هـذا الـصراع كـان مصدرًا من مصادر شرعية النظـام المـصرى وعديـد مـن الـنظم العربيـة الأخـرى، وبالتالى ظل هذا التحدى الخارجى «فزاعة» لقمع حريات الرأى والتعبير فى أكثر من بلد عربى ..

الذى حدث بعد ذلك كان دراميًّا ؛ إذ فى ضوء هذا الصخب الواسع النطاق عند بناء الدولة الناصرية ثم بناء الدولة الساداتية، والجدالات الكبيرة، التى جرت حول هذه المشاريع، لم ير أحد أن الإرث الحداثى المصرى يتآكل وبسرعة .

*** ما أسباب هذا التآكل المتسارع برأيك؟**

– أسباب عديدة، منها مثلاً تركيب الصفوة السياسية الحاكمة ؛ إذ كان المصدر الرئيسى للتجنيد السياسى المؤسسة العسكرية الوطنية وخاصة الكوادر القريبة من الضباط الأحرار، ثم بعدئذ جاء الجيل الذى شارك فى الحرب ضد إسرائيل 1973 والذى أسماه السادات جيل أكتوبر، وبدأ السادات فى إزاحة خصومه السياسيين ، الذين كانوا ينتمون إلى المستوى نفسه فى الهيكل القيادى للضباط الأحرار، وأيضا من الجيل الذى أسس لنظام يوليو ودولة عبد الناصر، لكى يكون المجال واسعًا أمامه للحركة بعد حرب أكتوبر التى اعتقد أنها بداية لتأسيس شرعية جديدة لنظامه، ثم حاول أن يؤسس شرعية قائمة على التوظيفات السياسية للإسلام، أيضًا بدأ فى إتاحة قدر من التعددية الشكلانية المقيدة، التى وصلت إلى مزيد من كتم الأنفاس السياسية والإبداعية للمصريين وقمع مبادراتهم الخاصة والجماعية فى مقابل هذا الماكياج السياسى، الذى مثل قناعًا لدولة تحاول أن تحاذى الغرب فى محاولة لاستعادة الأصداء القديمة للمشروع الليبرالى ، الذى أسس فى مصر منذ 1923 وحتى 1952 ومغازلة فئات ونخب جديدة كانت تنتظر الفرصة لتخرج من أعطاف المشروع العام وجهاز الدولة المصرى، لبدء المشروع الانفتاحى الجديد الذى أسماه الأستاذ أحمد بهاء الدين – رحمه الله – آنذاك انفتاح السداح مداح؛ أى أنه حالة من انفتاح السوق بلا ضوابط قانونية أو أخلاقية ؛ لأن هذه الطبقة الجديدة كانت تفتقد للتقاليد الاجتماعية حتى فى نمط الحياة، وللقيم التى تحملها الطبقات البرجوازية فى مصر والغرب،

وللحقيقة فإنه لا تنمية مستدامة ولا تحديث ولا تقدم دون أن يكون هناك حد أدنى من الرابطة الأخلاقية، التى تنظم من خلالها الفئات الاجتماعية المختلفة، حتى لا نكون إزاء غابة مفتوحة على مصراعيها لمجموعة من الضوارى تنهش اللحم الحى للأغلبية الشعبية فى مصر، والتى دونها لا يحدث تقدم، كما أنه لا تنمية دون طبقة وسطى ذات تكوين رفيع ولديها درجة من التماسك، ولدى بعض طلائعها المسيسة تصورات عن مصر التى يريدون، وهذا لا يتم فى المطلق ولا يتم عن طريق الشطحات السياسية ولا المغامرات، وفى عالمها، وإنما على تقدير موضوعى ونقدى لقدرات مصر الآن، و هى قدرات بالغة المحدودية، والمورد البشرى المصرى ضعيف حتى بالنسبة لمستويات «عالمثالثية»، كما فى إيران وتركيا مثلاً، وفى اعتقادى الشخصى أن أضعف ما لدى مصر الآن هو نخبتها الحاكمة، التى تفتقد إلى خيال سياسى رصين وخلاق.

*** ما ظواهر ضعف هذه النخبة وانعكاسات أدائها على ما تراه فى المحيط العام داخليًّا وإقليميًّا؟**

- تركيبة الصفوة السياسية المصرية تدهورت، فصارت تأخذ بمعيار من هو أضعف من حيث الكفاءة والخبرات، وحتى من تسرب إليها ممن لديهم خبرات وبعض من الكفاءات دخل من باب المعيار الأساسى، الولاء المطلق والسمع والطاعة بالمعنى السياسى والسلطوى، وهذا شىء، ربما يجعلك تستعيد المنطق التنظيمى الحاكم فى جماعة مثل جماعة الإخوان المسلمين أو الجماعات الإسلامية السياسية الراديكالية، بمعنى أنه لا نقاش، وأن النقاش له حدود لا يتجاوز بها المقامات العليا فى النظام..

والمصدر الآخر لتركيبة الصفوة هم من التكنوقراط فى جهاز الدولة، والحقيقة أنه لا يمكن الحديث عن دولة بشكل منفصل ومحايد، فالدولة مندمجة فى النظام،

والنظام مندمج فى الأمن، والأمن مندمج فى صناع القرار عند القمة، فأصبحت الدولة المصرية مختزلة عند القمة، ليس فقط على مستوى البنية الدستورية حتى مع التعديلات الأخيرة التى تمت مؤخرًا، وإنما أيضًا من حيث الواقع ؛ فالقرار يصنع فى القمة، وهذا أخطر ما آل إليه الموروث الحداثى فى مصر، بل هو أمر بالغ الخطورة ؛ إذ هنا تنتشر الشائعات وتتناثر حول توريث للسلطة فى نظام جمهورى، وعلى أساس عائلى، وهو أمر يبتعد ليس عن التقليد المصرى الذائع، وإنما سوف يجعلنا وكأننا نختزل فى تقاليد نظم سلطوية قريبة من محيطنا .. اختصار الدولة واختزالها على هذا النحو هو جزء من ضعف هذه النخب ، التى ليس لديها تجديد أو قدرة على إعادة تأهيل كفاءاتها إن كانت موجودة ..

من الظواهر الخطيرة أيضًا لهذه النخبة أنه لا يوجد وصل لتيار المعرفة فى التخصص الوظيفى بما يجرى ليس فقط فى العالم المتقدم ، وإنما أيضًا على المستويات الإقليمية .. هذه الصفوة أيضًا تفتقد إلى الحس والأخيلة السياسية ..

هذا الضعف فى النخبة السياسية وفى تشكيلها، والجمود الجيلى الواضح داخل هذه النخبة ؛ إذ لا يعقل أن يحدد مصائر الناس ويرسم السياسات أناس ينتمون إلى شريحة عمرية فوق الستين عامًا، ومن هنا استمرت أنماط من التفكير وأساليب فى الإدارة وتقاليد فى نهب موارد الدولة أو إهدارها نتيجة سوء الإدارة والتخطيط .

إذًا أنت بإزاء نخبة صيغت من الماضى فكرًا وتقليدًا وخبرة، تفتقر إلى الحس السياسى والخبرة السياسية، وهذه النخبة من ناحية أخرى طاعنة فى العمر .

*** وما الذى قاد إليه هذا الخلل؟**

– قاد إلى ارتباكات عديدة، حتى إن مشكلة خروج مظاهرة فى وسط القاهرة تضم عدة عشرات من الأشخاص، لا يعرف كيف تدار إلا بالأساليب التقليدية للأمن رغم أنه معروف فى ألف باء السياسة، أن الإدارة الأمنية لا تستخدم إلا كمكون

مهم و لكن ليس حاسمًا فى إدارة أى أزمة من الأزمات، هذا مكون أخير يتم اللجوء إليه عندما تكون هناك درجة من الخطر على الأموال وعلى الأرواح ، التى تستدعى اتخاذ آخر قرار وهو التدخل الأمنى، والتدخل الأمنى الذى يعتمد على إدارة الحوار أساسًا مع المتظاهرين وليس على قمعهم ؛ لأن هذا القمع تعبير عن عجز الدولة وتعبير عن عجز النخبة السياسية الحاكمة عن إدارة الأزمات .

*** فى تحليلك لأسباب تآكل الموروث الحداثى للدولة، أشرت إلى التوظيف السياسى للدين، كيف جرت هذه المسألة حتى وصلت إلى ما آلت إليه الآن؟**

- طبعًا من الأسباب الرئيسية لتآكل هذا الموروث الحداثى، هو هذا الخلط بين الحقول فى مصر وتحديدًا بين الحقل الدينى والحقل السياسى، وبين الحقل الأمنى والحقل السياسى . الخلط بين الدين والدولة هى لعبة وميدان من التواطؤات فى مصر، واستمرت منذ يوليو 1952 ، حين لجأت إلى اللعب بالإسلام السياسى ، ثم بالمسيحية الأرثوذكسية بواسطة رجالها من الإكليروس ، الذى هو الحليف الأكبر الآن للآلة الأمنية فى مصر ..

والصراع الذى تم بين الإخوان المسلمين وعبدالناصر جعله يدرك بسبب تكوينه الدينى و الثقافى وتأثره بالإمام محمد عبده و خالد محمد خالد، أن الدين أخطر من أن يترك فى أيدى جماعة سياسية وأن الدولة عليها أن تؤممه، فكان أول تأميم فى يوليو 1952 هو تأميم الإسلام والأرثوذكسية المصرية معًا، وساعد على تأميم الأرثوذكسية المصرية، العلاقة الخاصة التى ربطت بين قداسة البابا كيرولوس والرئيس عبد الناصر، وتأكد منذ ذلك التاريخ أن الدين ضمن احتكارات الدولة، وربما كان فى ذلك شكلاً من أشكال استعارة تجربة محمد على ، وهو يؤسس للدولة المصرية الحديثة فى بواكيرها الأولى، وحين قرر أن الأزهر ينبغى ألاَّ يترك لأحد، وأن طبقة علماء الأزهر ينبغى ألاَّ تكون لها مواردها الخاصة قط ، ومن ثم سعى إلى تصفية

الأساس الاجتماعى لعلماء الأزهر حتى يكونوا أداة فى أيدى الدولة ، فقد كان أغلبهم ملتزمين ، فعمد هو إلى تصفية نظام الالتزام ، فأصبحوا يعتمدون فى مواردهم، بدءًا من شيخ الأزهر إلى أصغر مجاور بالأزهر على الدولة ..

فى ظل الدولة شبه الليبرالية، كان مصطفى النحاس باشا هو الأكثر وضوحًا من حيث انحيازه للحداثة السياسية وللعقلانية، و كان حاسمًا فى عدم الخلط بين الدين والدولة، والخلط الذى جرى فى أعقاب يوليو 52 ، جعل من الدين أداة سياسية وفى ظل تقاليد غير ديمقراطية، يكون الدين إحدى أدوات السيطرة ؛ لأن الدين والقمع مُوَلِّدَان كبيران للخوف والتأييد ..

الدين يستطيع أن يعبئ لك تأييدًا ما، والخوف الناتج عن القمع المعمم والشديد يستطيع أن يقدم لك أداة للسيطرة الكبرى على المستوى السيكولوجى والرمزى ؛ فهذا التلازم الذى حدث بين مصادر إنتاج الخوف المتعددة، بالإضافة إلى استخدام الدين كمصدر للشرعية السياسية للنظام ومعالجة مشكلة ضعف المورد الديمقراطى الذى تستند إليه السلطة ..

واستخدم عبد الناصر الدين بمنطق أكثر استنارة من لاحقيه، فقد استخدمه فى التعبئة وعمليات الانتقال التى تمت من المشروع الخاص إلى المشروع العام، ثم فى سياساته الإقليمية ودور مصر المحورى فى المنطقة وفى حركة عدم الانحياز .

*** لكن ثمة مخاطر لعملية تأميم الدين تلك ؛ إذ إن تأميم الدين لم يكن حكرًا فقط على دولة عبد الناصر، كان هناك آخرون مستعدون لتأميم الدين لحسابهم .**

- بالتأكيد ، هناك آخرون جاهزون دائمًا لأن يسقطوا مشروعية احتكارك للأداة الدينية، والوسيلة الأساسية فى هذا الإطار، ليس فقط مجرد النطق بالتفسير أو التأويل الدينى، وعندما تخطف الدين، فهناك آخرون سوف ينازعونك ليختطفوا منك هذه الأداة بمزيد من التشدد ؛ فالتأميم الدينى قاد إلى الغلو، وإلى شكل من

أشكال الديكتاتورية باسم الدين على المستوى السياسى وعلى مستوى نشوء تيارات محافظة وراديكالية داخل المؤسسة الدينية، مستعدة لإسداء خدمات للنظام مقابل زيادة مساحات الحضور البشرى باسم الدين فى الحياة العامة، وتحويل المؤسسة إلى طبقة بالمعنى السياسى لديها مصالح ولديها أدوات للسيطرة ، ورغبة فى صون هذه المصالح وإنمائها، فأصبح التأويل، باسم الدين، أو السلطات الناطقة باسم الدين الإسلامى وباسم المسيحية، مظلات لحركة بَشَر ؛ لهم مصالحم ولهم أهواؤهم واختياراتهم وخطاباتهم التى تعبر عن مستويات المعرفة لديهم من حيث العمق أو الهشاشة من حيث الاستنارة أو المحافظة، من حيث التسامح أو الغلو، وما نراه منذ هزيمة يونيو 67 ، هو تعبير عن هذا الخلط الفادح وهذا التدين الشامل لكل شيء ..

إذًا أنت أمام استثمار مكثف للدين وسيطرة تامة له على السياسة والروح المصرية، وهذا ليس موقفًا معاديًا للدين، لكنها محاولة لرصد لماذا جرى هذا الإفقار للروح المصرية ؛ لأن الدين ليس مطلق الدين، وإنما أنا أتحدث عن التوظيف البشرى له والذى كثيرًا ما يقع فى وهدة الخطأ والضلال ..

أنت أمام حالة قد تصل إلى درجة الاختناق فى بعض الأحيان من هذه الكثافة المميتة للتداخل بين الدين والسياسة .

*** لعل من المفيد هنا الإشارة إلى متغير مهم جرى منذ السبعينيات ، حيث هاجر مئات الألوف من المصريين إلى الخليج، فعادوا بتصورات مختلفة عن الدين ووظيفته ودوره فى حياة الناس .**

- هذا متغير مهم ؛ لأن هؤلاء نقلوا تأويلاً وتقليدًا إسلاميًّا مغايرًا للإرث الدينى الشعبى وحتى المؤسسى، هذه الاستعارات من أقاليم البداوة النفطية، إلى قلب الثقافة المصرية ومحاولة تجريف الإرث الدينى المصرى، بل تقاليده وموارده

الخصبة الآتية من شعب هو أحد صناع الإبداع الدينى، فى كافة مراحل تطور هذا الشعب كان الدين حاضرًا، ولكنه كان حاضرًا فى مزاوجة رفيعة بين الحياة والقيم والعقائد الدينية، ولكل موقعه الصحيح، وهذه كانت خبرة الشعب، ليس فقط خبرة النخب وإنما أيضًا عوام المصريين، المزاوجة بين تدين شعبى متسامح مصادره متعددة ولكن مؤتلف وغير متنافر، وهو الذى صنع اللحمة التى تأسست عليها الدولة الحديثة فى مصر، وساهمت الدولة الحديثة فى دعم هذا التوجه، فبقى الدين لله، وبقى فى مساحات ناعمة من الحياة تخفف من غلواء الظلم الاجتماعى والأزمات والتوترات والاحتقانات الاجتماعية ..

هذا التقليد شملته شروخ عميقة فى بنى التدين المصرى، ويمكننا هنا أن نشير إلى ارتفاع حجم الإنفاق السعودى فى دعم دعاة بعينهم واستبدال المقرئين المصريين العظام بآخرين، هؤلاء المقرئون العظام الذين حولوا النص الدينى إلى قطعة فنية ، قبل أن تكون مصدرًا للعبارات والتوجيهات الأخلاقية، فإذا بنا فى مواجهة هجمة من أصوات تمثل غزوًا للأذن والوجدان المصرى، والأمر لم يقتصر فقط على التلاوة، وإنما على تفسير القرآن الكريم والحديث، نمط من الغلو الوهابى المؤسس على تقاليد ثقافة الصحراء، وعلى غياب فكرة الدولة والأمة الحديثة، ومن هنا برز هذا التركيز الدائم على المسلم وغير المسلم ، وفى ظنى أن حضور البداوة السياسية والدينية إلى قلب وروح مصر ليس إلا محاولة لإخصاء الروح المصرية وتحويلها إلى شبح سياسى ، تابع للتحالف الوثيق بين الولايات المتحدة الأمريكية وعرب النفط، أما عرب الحداثة فقد تراجعوا بعد أن تناسوا أن لهم إرثًا تحديثيًّا ، أضاعوه بتحطيم المبادئ التى أسس عليها هذا المشروع .

*** ثمة غياب أو تراجع أيضًا لقيم اجتماعية عبرت عنها الطبقة الوسطى فى سعيها للتغيير، كانت تمثل منظومة شبه متكاملة، لا يبدو أن شيئًا منها بقى .**

- هذا صحيح، الآن يمكنك أن تشهد عودة إلى المعيار الطبقى فى الاختيار للوظائف أو للصعود فى النظام الاجتماعى، هو معيار طبقى لكن دون معايير طبقية ؛ فالشرائح العليا من الطبقة المتوسطة التى كان يذهب أبناؤها للتوظف بالخارجية، يتوجهون الآن إلى الداخلية بالواسطة أو بمعايير غير واضحة فيها يتم استبعاد الأكفاء، والأمر نفسه يجرى فى القضاء أيضًا ..

والسؤال الآن للنظام ونخبته أنتم تغلقون أبواب الأمل أمام الناس، توصدونها أمام أى صعود باسم الموهبة أو الكفاءة، هؤلاء قد يكونون وقودًا لموجات قادمة من عنف ضار .

*** هل تتوقع أن تصل الأمور إلى هذا النحو؟**

- هناك أشكال من السيولة الاجتماعية والفوضى وعدم التوقع ، الناتج أساسًا من اختزال البنية السياسية فى أفراد عند القمة، والبنية الاقتصادية كذلك مختزلة فى مجموعة من الأفراد عند القمة أيضًا يديرون الأمور على هواهم ، ولا يعبأون بفكرة المسئولية الاجتماعية .. لا هؤلاء ولا هؤلاء لديهم القدرة على فهم ما يجرى وتفسيره ..

أضف إلى هذا ضيق السوق السياسى الذى تحول إلى حضانة سياسية بما فيها الحزب الوطنى نفسه الذى هو أحد أدوات النظام ، وحقيقة الأمر هو لا دور حقيقى له، إنما يظهر فى فترات بعينها ولتأدية أدوار محددة ..

ونضيف أيضًا الجمود السياسى الذى جرى فى عهد الرئيس مبارك، وعدم تجديد دماء النخبة السياسية حتى فى جهاز الدولة الإعلامى، فهل يعقل أن تتناثر شائعات بسبب غياب الشفافية والتدفق الحر للمعلومات عن أوضاع المؤسسات الصحفية المالية ، وأن يقال إن أحد رؤساء مجالس الإدارة يحصل على مليون وربع المليون جنيه شهريًا ؛ أى أكثر من الرئيس الأمريكى والرئيس الفرنسى ورئيس

الوزراء البريطانى، أكثر من رئيس تحرير النيوزويك والواشنطن بوست والنيويورك تايمز وغيرها، هل هذا معقول، هل يعقل أن يحصل رئيس تحرير على 700 ألف جنيه شهريًّا ، ثم يتحدث عن إصلاحات تطول الهياكل المالية والإدارية لهذه المؤسسات، ليقل لنا من عينوهم: ما هى أمارات العبقرية لدى هؤلاء؟ ما هى كفاءاتهم التى لم نر لها دلالة داخل الجماعة الصحافية أو الجماعة الفكرية ؟

إذا كنت - كنظام - قد قمت بتجميد مؤسساتك الإعلامية والسياسية وحتى النخبة المؤيدة لمشروعك الذين صدمتهم اختياراتك .

لا يوجد طلب سياسى من القمة على الكفاءات فى مصر، وهذه مسألة تؤدى إلى إحباط شديد واحتقان .

*** وكيف أسهمت طبيعة النظام التسلطية فى هذا الاحتقان؟**

- الطبيعة التسلطية للنظام «صَفَّت» منابع الحيوية لدى المصريين، وتكونت لدينا ثقافة ذكورية على المستوى الدينى والسياسى ، تحجب جزءًا من طاقات مصر الأساسية، التى يراد لها أن تكون أداة للسيطرة الذكورية والسياسية على المرأة وتحييدها لصالح المشروع الدينى السياسى ؛ لأن «الزى مثلاً» جزء من خيارات البشر ومن حرية الاختيار دون قسر أو إرغام، أما أن تكون هناك حملات منظمة لإجبار النساء على ارتداء زى بعينه، فأنت أمام مشروع سياسى وأمام نزعة سلطوية ذكورية باسم الدين ..

هذه الطبيعة التسلطية أيضًا أدت إلى غياب المبادرة ؛ فالفرد فى مصر مازال حالة نظرية أو حالة مأمولة، لم تتحقق بعد، هناك أفراد حققوا فرديتهم بإرادتهم ومكابداتهم وفى إطار الصراع مع أبنية السلطات البطريركية الموجودة باسم الدين وباسم العائلة وباسم السياسة، لكن بشكل عام هناك حالة من الخصاء الممنهج ، الذى يخضع له الإنسان المصرى منذ ميلاده حتى مماته، وهكذا تراجعت المبادرة

الفردية الخاصة، والمبادرة الخاصة حتى لو انطوت على مغامرة وأحيانًا الجموح الإبداعى هو الذى يصنع التقدم، لكن ما جرى هو إخضاع مقولب للشخصية المصرية بحيث تكون شخصية باهتة واهنة، فغابت المبادرة، وهذا ما يمكنك أن تلحظه فى هذا البطء الممل والسوقى والمبتذل فى دواوين الحكومة، فى عدم الإنجاز إلا بتقاضى رشاوٍ، وأيضًا فى المنطق السياسى الذى يقول إن الرشوة والفساد ظاهرة عالمية، وهذه برأيى محاولة تبريرية بالغة الخطورة وآثارها كانت وخيمة ؛ لأنها تؤدى إلى مزيد من سطوة الرشوة والفساد ونهب المال العام .

*** وتداعيات هذا التآكل للدولة الحداثية إقليميًّا وتأثيره على تراجع الدور المصرى .**

- أتصور أن هذا واضح فى مناسبات عديدة، فليس بعيدًا عمَّا نشاهده من تراجع للدور المصرى ، فى ظل تمدد وهيمنة الدور الإقليمى الإيرانى الذى تواجهه أدوار لدول أخرى بينها إسرائيل مصدر التهديد الرئيسى فى المنطقة، ثم الدور التركى، ثم الدور السعودى الذى استعاد دبلوماسية الشيكات بسبب تراجع أدوار الآخرين، فالدور الإقليمى السعودى صعد مع ارتفاع أسعار النفط فى ضوء أزمة الخليج الثالثة بدرجة كبيرة، 60 مليار دولار عام 2004 فائض مالى، ارتفع إلى 75 مليار سنة 2005 ، 100 مليار دولار سنة 2006 ، وبمليار دولار واحد جاءت السعودية بالفلسطينيين إلى مائدة التفاوض للتوقيع على حل فى الرياض، بينما بذل المصريون جهدًا كبيرًا طوال سنوات ولم يحققوا أى نتيجة، هذا شكل من أشكال تآكل الدور بفعل تآكل الدولة الحداثية .

*** ما قلته فى الحقيقة لا يعنى أن الدولة الحداثية فقط تتآكل وإنما هى - تقريبًا - فى حالة انهيار .**

- الدولة تحولت إلى بؤر للإقصاءات والاستبعادات على أساس النوع، فالدولة ذكورية ونظامها أيضًا، والدولة لا تلعب بالسياسة وإنما بالأمن، وهى أداة لتقديم

الاستثناءات لبعض الفئات الاجتماعية، إذًا لم تعد الدولة موطنا لتلاقى المصالح وتمثيلها بما يتجاوز الفئات الاجتماعية المتصارعة، وبما يتجاوز النخبة الحاكمة وأجهزة الأمن ؛ لأن الدولة كيان يتجاوز فكرة الحكومة أو النخبة الحاكمة، هؤلاء عارضون، أما الدولة فهى الأم، وهذا يعنى أن الدولة لم تعد محايدة، صارت أداة للقلة عند القمة يتلاعبون بها ما تشاء لهم أهواؤهم وتفضيلاتها الاجتماعية، ولبعض هؤلاء ولاءاتهم خارج الحدود ، التى تتبدى فى بعض خطابنا الإعلامى، دون أن يوقفهم أحد وينبه إلى خطورة ما يفعلون ..

غاب شعار مصر الأشهر «مصر للمصريين» لصالح هذه الفئات الجديدة، انفصمت عرى هذا الشعار، وأصبحنا أقرب إلى تجمع بشرى يقطن مكانًا ما، كان يطلق عليه فى الماضى مصر، الآن نحن لا ينتظمنا سوى المكان، مشارب وأهواء وأنساق قيم بها كثير من التجاوز والفوضى والعشوائية ..

الكيان المصرى الآن أقرب إلى «السلعوة»، شىء ما لا يعرف توصيفه، وكأنه جاء وفقًا لتخليطات وتهجينات مجهولة المصدر .. هذا نتاج للعشوائيات السياسية والثقافية، والبيروقراطية التى اعترت بر مصر فى السنوات الأخيرة .

*** ربما يتصور الجالسون عند القمة أن ذلك «يؤبد» بقاءهم .**

- تصورات الجالسين على المقاعد الوثيرة عند القمة بأن الأمور تحت السيطرة هى إحدى الأساطير المرتبطة بالتقليد السلطوى فى مصر، هذا وهم، ففوضى المقاهى وفوضى البناء وعشوائيات المحلات وفرض الإرادات الشخصية فوق قانون الدولة، وشراء ذمم البيروقراطية المرتشية أوجدت قوانين متعددة تحكم الواقع المصرى وتفاعلاته، بينها قانون الغلبة المبنى على المكانة الاجتماعية والسياسية، غلبة فكرة العزوة، غلبة فكرة التركيبات التقليدية وفرض قانون الأمر الواقع، هناك تجاذب مستمر لاقتطاع أجزاء من جسد الأمة المصرية ؛ حتى أصبحنا فى

حالة من الوهن الشديد وتهتك الأنسجة التى كانت تجمع الروح المصرية والكيان المصرى ..

هناك أيضًا «فضاءات النت»، وهى فضاءات حرة تلعب أدوارًا إيجابية أحيانًا وسلبية أحيانًا أخرى، إنما المهم أنها تحطم وهم فكرة أن كل الأمور تحت السيطرة، أضف إلى هذا أن أى آلية أمنية فى العالم لها حدود على التماسك الداخلى، وفى مواجهة احتقانات وموجات غضب مستمرة لن تكون قادرة على السيطرة ، ولعلنا نستعيد هنا ما جرى فى الاتحاد السوفيتى وفى إيران فى ظل النظام الشاهنشاهى، وخطورة هذه المسألة أنها قد تقود إلى الفوضى، والخيال السياسى لابد أن يضبط الآلة الأمنية، و الذكاء والمهارة بديلاً عن الانفعال السياسى، العقل بديلا عن العضلات .

فى مصر الآن تفكيكات للأنسجة من نوع جديد، هناك صحوة لسياسة الأعراق، هناك بدايات جينية تنمو سريعًا عن احتكاكات من نوع صعايدة فى مقابل بحاروة، هناك كلام متواتر عن أمة نوبية ووعى النوبيين بذاتهم الثقافية، إلى حد وجود قواميس نوبية عربية أو نوبية إيطالية أو نوبية إنجليزية، والاهتمام بحقوق النوبيين وتاريخهم وثقافتهم، هذا ملف لا يمكن التعامل معه دون الاستعانة بأخيلة سياسية جديدة .. يتحدث البعض الآن عن أن مصر دولة سنية، وهى التى هضمت طوال تاريخها مذاهب شتى، ودخل فى تكوينها الثقافى عشرات المكونات ..

هناك تفكيكات أيضًا على أساس النوع ؛ فأنا لم أفهم أبدًا سر امتعاض بعض من أصدقائى فى نادى القضاة من أن تكون المرأة قاضية، فى السودان المرأة قاضية وفى تونس وفى لبنان، فهل مصر التى هى الدولة الأمة الحديثة، بكل مواريثها وتاريخها تقف ممانعة للمساواة، هذا وجه من التردى بالغ الخطورة .

* * *

أنور عبد الملك

«كامب ديفيد» حولت مصر من دولة مستقلة إلى دولة تابعة تعيش على المعونات

برأى الدكتور أنور عبد الملك، فإننا نرى العالم الذى يراد لنا أن نراه، وليس العالم فى صورته الصحيحة، وهو ما يوقعنا أسرى الثنائيات الخائبة : أصالة ومعاصرة، أحادية وعولمة، وطنية وقومية .. إلخ .

قبل ربع قرن تقريبًا، طرح الدكتور أنور عبد الملك دعوته التى أسماها «ريح الشرق»، والتى تبناها آخرون وأضافوا إليها، غير أننا آثرنا أن نبقى نراوح مكاننا، رغم أن توجهات مصر نحو الشرق بدأت باكرًا جدًّا .. ربما قبل أن يكتشف الآخرون صعوده المدوى .

وبرأى صاحب «ريح الشرق» و«الجدلية الاجتماعية» و« الشارع المصرى والفكر» وأخيرًا «الوطنية هى الحل»، فإن كامب ديفيد هى التى قادتنا إلى ما نحن فيه، فى السياسة كما فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة وكافة شئون الحياة .

وإلى تفاصيل الحوار :

*** منذ ربع قرن تقريبًا ، كان كتابك «ريح الشرق» الذى دعوت فيه إلى الاتجاه شرقًا؛ أى الالتفات إلى تجارب دول مثل الصين والهند واليابان وغيرها من دول جنوب**

شرق آسيا الصاعدة، هذا «الشرق الفنان» كما أسماه الدكتور زكى نجيب محمود يملك من مقومات النهضة ما لا يملك غيره، فضلاً عن حضارات قديمة وتراث ممتد ، أوجد قدرًا من القيم الحضارية والإنسانية المشتركة .. الآن، بعد ربع قرن، وفى عالم أحادى القطبية، ماالذى بقى من ريح الشرق؟

- أتصور أننا يجب أن نضع هذه المسألة أولاً فى سياقها التاريخى، هذا السياق يشير إلى أن التوجه إلى الشرق بدأ فى مصر مع بدايات القرن العشرين، لكنه أخذ شكله المحدد مع مؤتمر «باندونج» فى أواسط الخمسينيات، هذا المؤتمر الذى شهد اجتماع زعماء دول الشرق لأول مرة منذ أجيال طويلة يعلنون فيه عن وجودهم، وأهم الدول التى اجتمعت آنذاك كانت الصين، الهند، مصر، أندونيسيا وغيرها، وكان لمصر دور أساسى ومهم، وقد لفت جمال عبد الناصر نظر رئيس الوزراء الصينى «شواين لاى» لصمته واهتمامه بالتساؤل وبتسجيل الملاحظات أكثر من شغفه بإبداء آراء، بعد ذلك بدأ الاتجاه إلى دول عدم الانحياز ، أو ما يمكن أن نسميه جبهة عالمية للشعوب المضطهدة، وبلغت المسألة ذروتها فى حرب الاستنزاف ، ثم حرب أكتوبر التى كانت نهاية هذا الشوط كله ..

والحقيقة التى ينبغى تسجيلها هنا هى أن الفضل لريح الشرق لم يكن لهذا الكتاب، وإنما للتاريخ الواقعى ودور مصر فيه، وكانت دعوة هذا الكتاب سنة 1983م ، أن ندرك ما حدث، واليوم أصبح الشرق باعتراف الجميع هو مركز التحرك العالمى الجديد، وانتقل مركز الثقل من الأطلنطى إلى دول شرق آسيا، هذا كله جديد لم يكن موجودًا وقت صدور الكتاب ولا وقت انعقاد مؤتمر «باندونج»، والغريب أن المتخلف عن هذه التحولات الجديدة هى مصر، وهى التى شاركت فى هذه الدعوة بشكل أساسى ؛ لأنه بعد معاهدة «كامب ديفيد» قبلت أن تخضع للحصار، وأن تتحول من دولة منتجة مستقلة إلى دولة تابعة، تعيش عالة على الاستيراد

والمعونة الأجنبية من ناحية، وعوائد الدول النفطية من ناحية ثانية، وهكذا انتكست مصر، وانتهى هذا الكيان الكبير الذى كان قائمًا منذ عهد محمد على، ضعفت وتهاوت، وصارت تعيش عالةً يومًا فيوم ، والحقيقة أننى لا أشعر بأى إحباط من ناحية الدعوة ؛ لأن النظام العالمى يتجه نحو ما سبق وقلناه ، لكننى أشعر بإحباط بسبب توجهات الدولة المصرية غير المدركة لهذه التوجهات .

*** رغم الهجمة العولمية الأمريكية التى تبدو مناقضة تمامًا لفكرة ريح الشرق؟!**

- لا يوجد فى مجال السياسة ولا فى الحياة الإنسانية ظواهر أحادية البعد، النظرة السياسية نظرة جدلية، هناك صراع مستمر بين الظواهر وبعضها حتى المتناقض منها ؛ فالعولمة التى أعلنت فى أعقاب نهاية القطبية الثنائية فى سنة 1993 وانفراد أمريكا بالهيمنة على العالم، بلغت فعلاً مداها فى بداية هذا القرن، مع حرب العراق، التى كانت نقطة تحول بالغة الأهمية، حيث سعت دولة الهيمنة الإمبريالية وبتأثير قوى من الجهاز الصهيونى الإسرائيلى المسيطر على الحزب الحاكم فى أمريكا إلى تدمير العراق، ونجحت بالفعل فى ذلك، ثم ماذا؟ أكبر قوة حربية فى العالم اليوم متورطة فى أوحال العراق، الخسائر تزيد، حالة فوضى عارمة، العراق تم تدميره، لكن الذى دُمِّر مع العراق، هو قدرة أمريكا على أن تحكم وتسيطر، والفشل العسكرى ليس هو الفشل الوحيد، رغم أنه بلغ معدلات عالية جدًّا، حتى أن كبار القادة الأمريكان يرفضون أن يتولوا مناصب قيادية كبرى خشية أن يلتصق بتاريخهم هذا الفشل ومن قبله، الفشل فى أفغانستان، لكن الفشل الأكبر هو الفشل السياسى والمعنوى ؛ إذ فقدت دولة الهيمنة سطوتها ومكانتها فى العالم ..

على صعيد آخر ، فإن التطورات التى جرت فى العالم من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية، تؤكد صحوة قومية لم تكن فى الحسبان، انظر إلى الصين،

اليابان، الهند، كوريا، دول أمريكا اللاتينية، هو ما يدفع إلى القول أن ما يحكم الصراع اليوم هو صحوة الصراع على مستوى عالمى ضد الاستعمار والهيمنة، وبالتالى ما يتردد عن أن العالم اليوم قرية واحدة ، وأن القوميات انتهت ليس سوى أكذوبة كبرى، كلام تردده عصابات الفكر الصهيونى السوداوى العدمى .. العالم كله الآن تتصاعد فيه صحوة تنادى بأولوية الأمة والقومية والدولة، وليس التنظيمات عبر القارية، هذا الموضوع غائب عنَّا فى مصر تمامًا ؛ لأن مصر منذ «كامب ديفيد» فى حالة تخدير وغياب تام عن الوعى ؛ لأن الجيل الذى يتولى أمور مصر الآن، ولد مع حرب أكتوبر وهزيمة أكتوبر، الانتصار العسكرى، والهزيمة فى كامب دايفيد، قطاع كبير من هؤلاء تراضى مع هذا الوضع الجديد، بدافع المصالحة أو الخوف أو لأنهم رأوا أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وجزء آخر لا يرى بديلاً، لماذا ؛ لأنه بسبب التكثيف الإعلامى لم يعد يرى غير هذا الذى فرضوه عليه ، عالم واحد ، قطب واحد، عولمة ..

وأمامنا على الحدود إسرائيل ، ولا يوجد لدى الدول العربية أى بديل ؛ لأننا لا نرى سوى هذا، لا نرى العالم الأوسع الذى فيه الصين واليابان وكوريا وفيتنام وبوليفيا والبرازيل والهند والأرجنتين، والإعلام لا يقدم لنا ما يجرى فى هذا العالم، حتى الفضائيات التى فتحت بعض النوافذ تبدو فى عالم آخر، يعنى 90٪ مما تبثه متعلق بقضايانا العراق، فلسطين، لبنان، التبعية، الإسلام السياسى، لكن العالم غير موجود، وإذا وجد، فبنظرة غربية، وحتى فى الصحف إذا تابعت ما تنشره من مقتطفات عن صحف العالم ستجد أن ما ينقل عن صحف أمريكا وبريطانيا حوالى الثلث، وثلث آخر لجرائد خليجية وسعودية، والبقية عشوائية، ونادرًا ما تجد شيئًا عن الصين أو الهند أو اليابان، طيب، كيف للصفوة أن تتابع ما يجرى هناك والمعلومات محجوبة عنها إلى هذا الحد ؟! ومما يدلل على ما أقول أننى منذ أيام كنت

أجلس مع صديق من المفكرين المحترمين ، نتناقش فيما يجرى فى العالم وخصوصًا فى الصين، واكتشفت أن متابعاته لما يجرى هناك لا تخرج عما يتردد فى جلسات المقاهى، فعرضت عليه بعض التقارير الصحفية «المتاحة» فى صحافة الغرب واكتشفت أنه لا يعرف عنها شيئًا، بينها مثلاً تقرير مرفوع إلى الكونجرس من إحدى اللجان المتخصصة عن مستقبل القوى البحرية الأمريكية، يقول إن الغواصات الصينية وصلت إلى مستوى معادل لقوة الغواصات الأمريكية، وفى سنة 2010م ، الأساطيل الصينية ستتفوق على القوة البحرية الأمريكية، فى وقت تقلل فيه إنجلترا وفرنسا وألمانيا الميزانيات المقدرة للتسليح ..

أيضًا يدهشنى جدًّا أن لا أحد فى مراكز البحوث أو الأحزاب السياسية يبذل جهدًا لمتابعة أحوال العالم، رغم أن هذه المعلومات متاحة، لكنها تحتاج إلى العزيمة، إلى الهمة والرغبة فى اكتشاف هذا العالم ومعرفة ما يدور به، وهذا أيضًا من توابع كامب ديفيد الذى أدى إلى «دفن العزيمة المصرية»، نحن نبحث فى الخارج عن الديمقراطية رغم أن تراث الديمقراطية فى مصر عريق جدًّا، فى مصر قدرات بشرية وذاتية هائلة، مفكرون وأحزاب وعلماء، من خلال التفاعل بين هؤلاء يمكن أن نحقق الديمقراطية التى ننشدها ، وليس من خلال لجان الحريات والديمقراطية فى الكونجرس الأمريكى، صرنا الآن عائشين على «الشحاتة»، المعونة الأمريكية، وتحويلات العوائد النفطية، واستجداء تجارب ديمقراطية من دول حديثة العهد بها .

*** أنت تلوم النخبة المثقفة أم النخبة الحاكمة؟**

- الحقيقة أننى لا أجد فروقًا بين النخبتين، ما أراه سواء على جانب الأغلبية والمعارضة مؤلم جدًّا، لا أحد يريد الخروج من هذا المأزق، واسمح لى أن نعود مرة ثانية إلى دول آسيا، مصر أول دولة اعترفت بالصين بين دول العالم الثالث، منذ حوالى 60 سنة، فما الذى فعلناه بهذه الأولوية، لا شىء !

لماذا لا نفكر أن نقيم مع الصين جسرًا لإحياء هذه العلاقات، لماذا لم ننتبه إلى أنه منذ شهر فى دلهى اجتمع لأول مرة ، وزراء خارجية الصين ، الهند ، روسيا ، لماذا لا نبحث فى دلائل هذا وأسبابه ونتائجه، أغلبية معارضة، الكل ينكفئ .

*** المفكرون مثلك والنخبة فى المعارضة ومراكز البحوث والإعلام وغيرها، يقترحون ويقدمون بدائل لكنهم ليسوا أصحاب قرار .**

- مع شديد احترامى لأحزاب المعارضة جميعها دون تمييز، دعنى أتساءل ما هو دورها فى إحياء وإذكاء ورفع مستوى هذا القرار؟ قل لى : أى من أحزاب المعارضة تبنى سياسة خارجية مصرية بديلة؟ وهناك تساؤل أكثر جذرية : أين هى السياسة الخارجية فى السياسة المصرية؟ لقد حلت الدبلوماسية بديلاً عن السياسة الخارجية، والدبلوماسية ليست سوى أداة من أدوات السياسة الخارجية التى تستهدف تجويد العلاقات الخارجية، يعنى أنا شهدت بعينى محمد صلاح الدين وزير الخارجية المصرى فى حكومة النحاس يخضع لآراء ومطالب الجماهير ، التى احتشدت فى ميدان الإسماعيلية - ميدان التحرير الآن - بضرورة إلغاء معاهدة سنة 1936م ، رفع أكثر من 200 ألف شاب شعارًا واحدًا رددوه بأعلى صوت : نريد السلاح يا صلاح، فما كان منه إلا أن ناقش الأمر فى مجلس الوزراء مع رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا الذى قرر إلغاء المعاهدة، هذه هى السياسة الخارجية التى تضم بين أدواتها الدبلوماسية، والعلاقات الثقافية الدولية، والعلاقات التجارية وغيرها، لكننا عطلنا أغلب هذه الأدوات ولم نبق إلا على الدبلوماسية ..

على الجانب الآخر، ما الذى يمنع أحزاب المعارضة أن تذهب فى رحلات إلى دول العالم، لماذا لا يحضرون مؤتمرات الأحزاب الكبرى فى الخارج، وإننى إن كنت ألوم الحزب الحاكم على بعض الممارسات السلبية، فإننى ألوم أيضًا أحزاب المعارضة

على سلبيتها وتقاعسها وعدم اضطلاعها بأدوارها كما يجب، وعلى الدولة ذاتها أن تستفيد من كوادرها البشرية فى كل المجالات، على الدولة أن تفيد من هذه الطاقات ليس بمعنى استقلالها لتحقيق أهداف حزبية ضيقة، وإنما أن تجعلهم جزءًا من تحركاتها فى بناء سياساتها الخارجية مستفيدة من علاقاتهم ومعارفهم وقدراتهم العلمية، لكن هذا لا يجرى بكل أسف .

*** أود ألا نتجاوز حديثنا عن العولمة والهيمنة الأمريكية فى عالم أحادى القطبية ، دون الإشارة إلى الموضوع الإيرانى، وإيران أيضًا من دول الشرق الصاعد .**

- أنا فى طليعة من يرون فى الموقف الإيرانى من التهديدات الأمريكية موقفًا مستقلاً وشجاعًا، ولعلنا لاحظنا الترحيب والحفاوة التى قوبل بها الرئيس الإيرانى الأسبق محمد خاتمى فى مصر من المسئولين والمفكرين ، وهو ما عكسته الصحافة المصرية والعالمية، وأكثر من شعروا بالغيرة، والألم لهذه الحفاوة ليس الأمريكان فحسب، وإنما بعض من الدول العربية التى تعادى إيران، ربما بأكثر مما تناصبها أمريكا العداء، هؤلاء هم عملاء أمريكا فى المنطقة العربية، الذين يروجون لفكرة تقسيم العالم العربى على أساس العقيدة : شيعة وسُنة، من يروجون لهذا التقسيم هم أعداء الأمة العربية، ومن ينادون بالتحالف بين العرب وإيران هم من يرجون الخير ويناصرون الشعوب العربية ..

إيران قوة جبارة، دولة كبرى طالعة، هكذا يوصفونها فى مراكز البحوث السياسية والاستراتيجية العالمية التى أشرف بعضوية بعضها، ينظرون إليها كما كانوا ينظرون إلى مصر الصاعدة أيام عبد الناصر .

*** هذا يعنى ربما أنها ستواجه ما واجهه نظام عبد الناصر الطامح إلى الاستقلال على يد القوى الإمبريالية العالمية .**

- هى معرضة لذلك، لكنها أقوى بكثير جدًّا مما كان عليه نظام عبد الناصر، هى الآن محاطة بأمة بالمعنى الحقيقى، بينما كان عبد الناصر يواجه عداء من محيطه العربى فيما كانت إيران آنذاك تمد له يد العون، ومصر بدورها كانت مع إيران حتى من قبل وصول الشاه إلى الحكم .

*** ألا تتوقع إذًا أن توجه ضربة إلى إيران ؟**

- قد يحدث، لكنها مهما كانت موجعة لن تقضى على إيران، من ناحية ثانية، فإن القيادة العسكرية الأمريكية بعد ماجرى فى العراق، مترددة جدًّا فى أن تخوض حربًا ثانية، الأكثر حماسًا لضرب إيران هى إسرائيل وبعض الأنظمة العربية المعادية لإيران بدعوة الخلاف بين الشيعة والسُّنة .

*** أريد أن ننتقل إلى الشأن الداخلى، وأنت لك كتابات مهمة حول الشارع المصرى والفكر ، إلى أى حد يتأثر الشارع بالفكر ، وإلى أى حد يؤثر فيه، أود أن نتحدث عن فوضى الشارع ومدلولاتها الثقافية ؟**

- المسألة فى الحقيقة أبعد كثيرًا من فوضى الشارع، وربما يلخصها تساؤل الدكتور جلال أمين فى واحد من كتبه المهمة «ماذا حدث للمصريين؟» .

مصر حضارة عمرها سبعة آلاف سنة، يجرى فيها نيل، وبفضل النيل هناك زراعة، وبفضل الزراعة وجد الاستقرار وعاش الناس، كانت هذه بتبسيط شديد حياة المصريين، الذين حرصوا دائمًا على تحقيق استقرارهم واستقلالهم، وهو ما تبدى فى صورة حديثة فى محاولات طلعت حرب تمصير الاقتصاد الوطنى، ومحاولات تأسيس قطاع عام قوى فى عهد عبد الناصر، ذلك كله انتهى ؛ لأن كامب ديفيد لم تكن فقط لها نتائج سياسية، لكنها أيضًا دمرت الاقتصاد الوطنى، وحدث ضعف متزايد للدولة المصرية، للنظام الاجتماعى والسياسى، كأنك فى سفينة أصابتها العواصف وهى فى عرض البحر، والسفينة «مساميرها مفككة»، الموتور ليس

منضبطًا، القمامة انتشرت فى كل مكان ، الأخلاق صارت مزيجًا من السلفية والتحلل، التعليم تدهور بشدة، كل القطاعات تفككت، الدولة تنازلت عن أدوارها ظنًّا منها أن الخصخصة تتطلب أن ترفع يدها عن كل شىء، وهذا فهم مغلوط لمعنى الخصخصة، حيث يمكن أن نجد الخصخصة، لكننا نجد أيضًا الدولة فى منتهى القوة ، فرنسا ، ألمانيا ، الصين ، اليابان ، كلها تمارس الخصخصة ، لكنها دول قوية ..

المشكلة عندنا أن «الناس اللى فوق» اقتنعوا بأنه آن الأوان أن «يريحوا» و«يفكوا الصواميل»، وكانت النتيجة أنه تم تفكيك الدولة المصرية والمجتمع المصرى من الداخل باسم الانفتاح أو الخصخصة أو العولمة وغيرها، وسأعود بك إلى الصين وهى من أعلى معدلات التنمية فى العالم ولسنوات متصلة، مازال القطاع العام بها ممسكًا بكل القطاعات الرئيسية فى الإنتاج الوطنى مواصلات، تأمين، بنوك، صناعات حربية، صناعات استراتيجية، وتم فتح مجالات أخرى للقطاع المشترك والتعاونى والخاص ..

والقطاع العام هناك يستمر ، بشرط أن يكون منتجه منافسًا لأرقى المنتجات من السلع المشابهة فى السوق العالمية ؛ أى إنك أدخلت منهجية التنافس والإنتاجية الفائقة داخل القطاع العام ولهذا نجح، فأصبح هذا القطاع «طليعى» بمعنى الكلمة، وهذا يؤكد أن الخصخصة الجزئية لا تتنافى مع مركزية القطاع العام، وأن ضبط الاثنين معًا هو ما يصنع الطفرة الاقتصادية، ولكن ما يجرى عندنا شىء آخر، ما يجرى عندنا بيع لثروة مصر وليس خصخصة، والأخطر أن نبيع للأجانب ..

وسأذكر لك مثلاً بَيِّنَ كيف تجرى الأمور عندنا، حين زار الرئيس مبارك الصين عُرِضَ عليه أن تعيد كبرى شركات الهندسة الصينية إصلاح وتشييد خطوط السكك الحديدية فى مصر، بأسعار أقل من نصف التكلفة العالمية ، وبجودة لا تقل عنها إن

لم تزد، وكان الرئيس مقتنعًا بهذا، لكن للأسف، تداخلت خيوط وضغوط انتهت إلى أن نستبدل بالعرض الصينى عروضًا غربية أخرى، وهذا أيضًا من توابع كامب ديفيد، أنا لا أدعو إلى قطيعة مع الغرب، لكننى أدعو إلى أن نغلِّب مصلحة مصر فى كل ما نختار، والحقيقة أنا أحيى جهود الرئيس مبارك فى توجهه إلى فتح أبواب جديدة ، تبدت فى زيارته الأخيرة إلى الصين وكازاخستان وروسيا، وللعلم فإن كازاخستان لديها أكبر مساحة من الأراضى الزراعية المروية التى لا تجد من يزرعها، ألا يمكن التفكير فى نقل الفلاحين المصريين إلى هناك لاستزراعها، وهى أرض إسلامية وتربطنا بها روابط عديدة ، المشكلة أن الكثيرين ممن يحيطون بالرئيس لا يشغلهم هذا الكلام !

*** فى الشأن الداخلى ، أيضًا لا تغيب العلاقة بين النظام والإخوان، خصوصًا مع طرح فكرة المواطنة فى الدستور المصرى بتعديلاته الأخيرة .**

- الحقيقة أن انحطاط أداء الحزب الحاكم فى معظم القطاعات شىء، ومعالجة هذا الانحطاط شىء آخر، هذه المعالجة تستلزم دائمًا أن تقدم البديل، والملاحظ على أداء الإخوان الذين صارت لهم نوافذ واسعة ومشروعة فى الإعلام وفى عديد من الصحف المستقلة وغيرها، أن هناك رغبة فى تحويل حياتنا إلى مأتم، بحيث تبدو كل القطاعات منهارة فاسدة ومفسدة، وأن يبدو كل شىء أسود ومسممًا، وأن الفرج لن يأتى إلا بقدومهم، وحين تتفحص ما يقولون لن تجد سوى شعارات فارغة، لا توجد برامج واضحة، لا توجد حلول يمكن الارتكان إليها، نحن هنا أمام مأتم وزوبعة، أمام مظاهرة تستفيد من كل السلبيات التى ارتكبها الحزب الحاكم وهى كثيرة وعظيمة، للقضاء على ما تبقى من استقلالية القرار الوطنى لحساب قوى خارجية، بدليل ما ورد فى تصريحات صحفية قيل فيها «طظ فى مصر واللى جابوا مصر»، وهذه سابقة لم نسمعها من أى معارض مهما كانت شدة معارضته للنظام ؛ لأن النظام أو الحكومة أو الحزب الحاكم شىء، ومصر شىء

آخر، كما أننا لم نسمع عن ترحيب مصرى بأن يحكم بلده أى حاكم مسلم حتى لو لم يكن مصريًّا، كيف هذا، لم نسمع هذا حتى من قادة أحزاب الأقلية أيام الاحتلال الإنجليزى، كان الكل يزعم أنه يمثل مصالح مصر أكثر من غيره، ولكن أحدًا منهم لم يشتم مصر أو يطالب بأن يحكمها أجنبى، هذا الكلام دخيل ينكر مصر التى هى أمة منذ سبعة آلاف سنة، والتى هى أقدم حضارة فى الدنيا، نحن دولة وطنية ثابتة، لسنا دولة بئر ستزول بعد نضوب هذا البئر ..

وليس الهدف من نقد النظام أن نهدم الدولة، بل أن نعيد صياغة هذا النظام وبناءه بما يعيد للدولة قوتها وشموخها واستقلالها .. وأريد أن أنبه من يتصورون أن بإمكانهم القفز على الحكم واستلاب الدولة بأنهم واهمون، هذا لن يحدث، «الدولة العميقة» فى مصر بتعبير الأتراك لن تسمح بهذا، من يتوهمون ذلك سيدمرون أنفسهم، وتقديم هذه الأفكار باعتبارها تحليلات سوسيولوجية، كلام فارغ ..

جملة القول أن جوهر التخلف المصرى ولا أتحدث إلا عن عموم الساحة العربية يكمن فى تصور أن الموقف العالمى كما هو وكأنه أزلى أبدى وأننا بلغنا «نهاية التاريخ» بينما الواقع يؤكد أن التاريخ التقليدى أى تاريخ النظام العالمى القائم منذ القرن السادس عشر حول غرب أوروبا ، ثم أمريكا مركزًا، دخل فى مرحلة الأفول، هذا بينما تعيش شعوب العالم وأممه ودوله الوطنية وثقافاته صحوة كبرى خاصة فى دائرة الشرق الحضارى حول آسيا الشرقية والصين مركزًا، ومعنى هذا أنه لا يمكن الاستمرار فى الخمول والانبطاح والتباهى بما كان، أو بفتات المائدة حسب الظروف لابد أن تخرج مصر دولة وأحزابًا ومؤسسات المجتمع المدنى والمدارس الفكرية والمؤسسات الإعلانية والشخصيات الفاعلة فى مجالات الفكر المختلفة، يجب أن يخرجوا إلى العالم الفسيح ويشاركوا فى المؤتمرات والندوات الفكرية العالمية ودوائر الحوار، كما يجب أن نعيد فتح شرايين الاتصال بين الجسد الهامد ، الذى كان يومًا ما رائدًا وبين العالم الجديد، وعلى وجه التخصيص يجب أن نتجه إلى مؤسسة «شنغهاى

للتعاون»، يدًا فى يد مع مجموعة الـدول العـشر المتطلعـة إلى الانـضمام إليهـا فى هـذا العام، كما يجب أن ننبه إلى مثلـث الـسياسات الخارجيـة الجديـد بـين روسـيا والهنـد والصين، وأن نمد أيادينا إلى أشقائنا فى أمريكا اللاتينية ثانى أكبر تجمع بين القـارات المعمورة بقيادة تحالف «ميدكوسور» حول البرازيل وفنزويلا والأرجنتين، على رأس أكثـر مـن 80٪ مـن دول أمريكـا الوسـطى والجنوبيـة وقـد اختـارت التوجـه إلى الاشتراكية نظامًـا لهـا خـلال عـام 2005 ، 2006 ، ونحـن هنـا ننعـى زوال الحـراك السياسى وسيطرة أخلاقيات السوق المنحطة على قرية قالوا لنا أنها مصيرنا..

ثم بين هذه التجمعات الكبرى التـى تحـدد الآن معـالم النظـام العـالمى الجديـد متعدد الأقطاب تقع مصر، ليس فقط لأنها أم الدنيا، وإنما لأن مكانتها الجيوسياسـية لا تبارى، إيجابًا وسلبًا، وبالتالى فإن على مصر أن تقيم مثلثًا فى شرقهـا الأوسـط مـن الدول الثلاث القومية ؛ لكى يكون هذا المثلث همزة وصـل بـين الـدوائر والمثلثـات الطالعة . وأعنى بهذه الدول الثلاث : مصر يدًا فى يد مع سـوريا والـسودان بطبيعـة الأمر، جنبًا إلى جنب مع إيران وتركيا ..

قد تكون هذه رؤية فيها بعض المبالغة أو النقص، ولكنها فى اعتقادى تـصب فى جوهر مشاركتنا الفاعلة فى صياغة العالم الجديد .

* * *

وزير الثقافة السورى رياض نعسان أغا

إسرائيل عاجزة عن العيش فى سلام
ولا يمكنها تحقيق أهدافها بالحرب

كان مقدرًا لحوارٍ مع وزير الثقافة السورى رياض نعسان أغا أن يسبح فى فضاء الثقافة العربية وأزماتها ؛ خصوصًا وأن الوزير السورى مشغول فعلاً بالهم الثقافى العربى ومتابع لأدق تفاصيله، لولا أن الأحداث السياسية فرضت نفسها بقوة فأزاحت الثقافى ليشغل السياسى المساحة كلها .

واجهت وزير الثقافة السورى بالاتهامات التى تتردد حول مسئولية سوريا عن مقتل رئيس الوزراء اللبنانى السابق رفيق الحريرى ، فتساءل ضمن إجابته المستفيضة ولماذا تقتله سوريا وهى التى صنعت زعامته، ولولاها لبقى مجرد رجل بر وإحسان؟! سألته عن المحكمة الدولية فعدد تحفظات سوريا عليها وما يراد لبلاده من ورائها وتساءل أيضًا : ولماذا لا تكون المحكمة عربية؟! وانتهى بإدانة صريحة للموساد بقتل الحريرى .

سألته عن مفاسد الوجود السورى فى لبنان فرد بأن الفساد كان شراكة بين سوريين ولبنانيين ، وأن الاقتصاد السورى كان الأكثر تضررًا منه .

سألته عن احتمالات حرب فى الصيف المقبل فاستبعدها، مؤكدًا أن إسرائيل استوعبت الدرس جيدًا ، ولا يمكن أن تشرب من البئر ذاته مرتين .

أما كيف ستنتهى الأزمة اللبنانية فبنهاية لعبة «عض الأصابع» بحسب قوله .. هنا تفاصيل حوار سياسى مع وزير الثقافة السورى رياض نعسان أغا ..

*** تثير مسألة المحكمة الدولية المقرر عقدها لمعاقبة المتهمين بمقتل رئيس الوزراء اللبنانى السابق رفيق الحريرى مخاوف عديدة، أهمها أن تتحول إلى محاكمة للنظام السورى ، وتصبح ذريعة للتدخل الأمريكى فى الشأن السورى أو حتى تغيير قيادته وخلعها، خصوصًا فى أعقاب الحكم بإعدام الرئيس العراقى المخلوع صدام حسين .**

- الواضح الآن أن الأمريكان يسفرون عن وجههم البغيض، والذى يحمل شعورًا عدائيًّا كبيرًا نحو الأمة العربية، ونحن نعتقد منذ البداية أن الذين دعموا صدام حسين وصنعوه، هم الذين قتلوه، ولذلك دومًا يلوح فى الأذهان إحساس خطير بأن ما يرسم لهذه المنطقة هو إشاعة الفوضى، وانتهاك سيادة الدول، ولكل دولة سيناريو خاص بها، فإذا كان السيناريو الذى وضعه الأمريكان لاحتلال العراق هو أكذوبة ما سمى بأسلحة الدمار الشامل فى العراق، فإن الأكذوبة التى يراد ترتيبها لسوريا هى مسئولية سوريا المفتعلة عن مقتل الشهيد رفيق الحريرى، الأمر ذاته ربما كان مصطنعًا فى أفغانستان حول مسئولية الملا عمر عن حماية ابن لادن، كأن الملا عمر كان وحده يستطيع أن يواجه «القاعدة» التى تعجز الولايات المتحدة كما تقول عن مواجهتها، فالعملية فبركة، الولايات المتحدة هى التى أقامت حكم طالبان فى كابول، وهى التى دعمت توجه صدام حسين للحرب على إيران ثم لغزو الكويت، وهى المسئولة بشكل ما عن الفوضى التى تحل فى لبنان، الولايات المتحدة هى أقوى قوة ضاربة فى العالم ومسئوليتها كبيرة أمام الشعوب الضعيفة، وبدلاً من أن تتقدم بالعون والمساعدة لهذه الشعوب، تتقدم لهم بالغزو وبطائرات تقتل وتبيد وتسفك الدماء ..

لذلك .. نحن أمام مشروع خطير فى لبنان وسوريا، حيث يراد من خلال «الموساد» سبك سيناريو جديد، مفاده اتهام سوريا بمقتل الحريرى وهو أمر يبدو لنا مضحكًا تمامًا، كما يبدو مضحكًا ما افتعله الأمريكان حين قالوا إن لدى العراق أسلحة دمار شامل تهدد البشرية ..

وأبسط مواطن يتساءل ما هى مصلحة سوريا فى قتل الحريرى؟ ولعلنا نتساءل أيضًا من الذى كان يدعم الحريرى فى مسيرته السياسية؟ إنها سوريا، سوريا هى التى وقفت خلف الزعامة السياسية التى حققها الحريرى، ربما لو أن سوريا لم تمنحه هذا الدور لبقى ينظر إليه كرجل بر وإحسان مثل كثير من السعوديين والخليجيين، لكن سوريا هى التى حولت دوره إلى دور سياسى، فالرجل قومى عربى، نلتقى معه فى الأهداف وفى المبادئ، وقد كان صديقًا لعديد من الشخصيات فى القيادة السورية، وكان يعتز كثيرًا بالرئيس حافظ الأسد وبعده بالرئيس بشار الأسد، وحين حدثت خلافات بينه وبين القيادة السورية حول التمديد للرئيس إيميل لحود، فقد منح الرجل فرصة أن يكون صاحب قرار، حتى أن الرئيس بشار قال له فكر فى الأمر أسبوعًا ، ثم أبلغنا برأيك، فنحن نخشى من وجود مؤامرة كبيرة على لبنان، هدفها تصفية سلاح حزب الله واستعادة إسرائيل دورها فى لبنان كما كان أيام الاجتياح، هناك محاولة من الفرنسيين لتقاسم المنطقة مع الأمريكان من جديد، وكانت وجهة نظرنا أن نحافظ على بقاء الرئيس لحود فى الحكم ؛ لأن بقاءه يجنبنا احتمالات لسنا فى حاجة إليها، وحين فكر الحريرى مليا فيما قلناه قال لنا : لقد وافقت على التمديد للرئيس لحود، وأرى أن مخاوفكم فى محلها، ولكننى أرجو أن أعفى من رئاسة الحكومة، وهذا ما جرى، وفى هذه الآونة كان هناك من يطبخ القرار 1559 ، وقد وقف الرئيس الحريرى على الحياد، حتى أنه يوم وفاته فى فبراير 2005، قال إنه ليس مع القرار 1559 ، ولكنه مع اتفاق الطائف، واتصل هاتفيًا بوزير الخارجية السورى ليسأل عن الموعد المرتقب للقاء الرئيس بشار، ولو أن الحريرى لم

يقتل فى هذا اليوم لكان رئيسًا للحكومة اللبنانية ؛ لأن هذا اللقاء كان يمكن أن يقوده مرة أخرى إلى الرئاسة .

*** ما الأسانيد التى يقدمها من يتهمون سوريا بقتل الحريرى إذا كان الأمر يسير بينه وبين القيادة السورية على النحو الذى ذكرت، إلى حد أنه كان موعودًا برئاسة الحكومة اللبنانية مرة ثانية.**

- هذا هو السؤال الذى ينبغى أن يسألوه لأنفسهم، لماذا تقتل سوريا الحريرى؟! هل شن حربًا عليها؟! هل هددنا بشىء؟! ولو أن سورية تريد أن تصفى خصومها فى لبنان، لكانت قتلت رجلاً تحترمه ؛ لأنه شريف ونظيف ، وإن اختلفت معه فى الرؤية السياسية ؛ لأنه أحدث انشقاقًا ذات يوم، وأعنى به العماد ميشيل عون، هل فكر أحد من السوريين أن يخدش الجنرال عون؟! لقد وقف الرجل معارضًا شريفًا وشهمًا على مدى أكثر من أربعة عشر عامًا، ومع ذلك لم نهاجمه أو نبرر لقتله، وكان قتله مبررًا إذا وقع ضمن الحرب التى كانت بينه وبين الجيش السورى فى لبنان، لكننا لم نفعل ذلك، بالعكس، قدم إليه ضابط سورى التحية ونقله هو وأسرته إلى مأمنه، ورغم أنه استمر فى معارضتنا على مدى سنوات بعد ذلك .. إلا أنه ظل يحظى باحترامنا لأن ما بيننا كان اختلافًا فى وجهات نظر سياسية، وسوريا لم تقتل أحدًا من معارضيها السياسيين ، رغم أنهم استمروا سنوات يكتبون ضدنا فى الصحف، حتى أن صديقى الشهيد جبران توينى رئيس تحرير «النهار» اللبنانية ، كان يكتب ضدنا يوميًا وكنت وقتها سفيرًا لسوريا فى الإمارات دون أن يؤثر ذلك على صداقتنا، وكان أقصى ما قلته له : سنوجه دعوة إليك لزيارة دمشق لترى بنفسك أننا لسنا سيئين كما تظن، نحن لا نرد على المقالات باغتيالات، لكن هذا كله يأتى ضمن مخطط أمريكى صهيونى ، هدفه فصم العروة الوثيقة بين سوريا ولبنان، وإضعاف لبنان عبر فك ارتباطه بسوريا، وإخراج سوريا من لبنان بطريقة فظة رغم أننا كنا بالفعل نتأهب للخروج من لبنان ؛ إذ كنا قد أنهينا الدور الرابع

من الانسحاب وفى طريقنا للدور الأخير، لذلك وجدت أن سوريا خرجت بسرعة حين طلب منها ذلك ؛ إذ لم يكن قد تبقى من جانبنا عدد كبير من الجنود، كنا بالفعل نريد أن نخرج من لبنان لأننا كنا نعتقد أن المهمة انتهت بتحرير الجنوب .

*** خصوصا وأن سوريا تدخلت فى الشأن اللبنانى بطلب عربى رسمى من جامعة الدول العربية ؛ لمراقبة تطبيق اتفاق الطائف وضمان تنفيذ بنوده .**

- ليس هذا فقط، بل بدعوة من رئيس جمهورية لبنان سليمان فرنجية، فضلاً عن قطاعات كبيرة من إخواننا المسيحيين، فقد كان هناك نوع من التحريض الطائفى، والسوريون لا ينظرون عادة إلى تقسيمات الطوائف والمذاهب، فما تقوم عليه الدولة برأينا هما مبدآن فقط : المواطنة والعروبة، لذلك عندما وجدنا أن بعض الأطراف تريد أن تثير هذه النزعات فى لبنان، وأن يكون هناك بعض القسوة على الإخوة المسيحيين، تدخلنا لكى نمنع هذا الظلم عن المسيحيين فى البداية، ولهذا أنت تسمع فى تاريخنا الحديث أن سوريا قاتلت فلسطينيين، والحقيقة أنها لم تقاتل فلسطينيين لكنها منعت بعضهم من اقتحام الحى المسيحى اللبنانى ؛ لأننا لم نكن نريد أن يصل بهم الإحساس بالظلم إلى درجة الاستعانة بالفرنسيين، وأمامنا الدرس القاسى الذى جرى فى الكويت، فقد كانت الأمة العربية كلها ترجو صدام حسين ألا يغزو الكويت، وحين لم يهب أحد لنجدتها اضطرت الكويت أن تستعين بالأجنبى ، وجاءت 36 دولة لإنقاذ شعب الكويت، ولذلك كان تصرفنا صحيحًا حين دخلنا لإنقاذ لبنان ، وهو دخول لم يكن لمصلحة طائفة على حساب أخرى .. كان دخولنا تحت مسمى قوات الردع العربية ؛ أى أن نردع من سيقوم بظلم، أيا كان هذا الطرف، ومنطقى فى هذا الظرف أن تحدث تجاوزات ، وأن يظهر فاسدون وكثيرون يسعون إلى الإفادة من هذه التدخلات .

*** سنعود إلى مسألة الوجود السورى فى لبنان، لكن أود أن نستكمل الرؤية السورية الرسمية حول المحكمة الدولية لماذا تخشاها سوريا إذا كانت بريئة من قتل الحريرى؟**

- نحن ننظر لهذه المحكمة بريبة ؛ لأننا لسنا واثقين فى نزاهتها، يعنى لعلك تذكر أن هناك أربعة ضباط كبار معتقلين فى لبنان منذ اغتيال الحريرى، ولا يوجد أى دليل اتهام ضدهم، ويمكن أن تستمر المحكمة عشرين عامًا وهم معتقلون، ثم بعد مرور ربع قرن قد يصدر القاضى حكمًا بالإعدام وقد يصدر حكمًا بالبراءة، فالمحكمة الدولية إذًا تنعقد قبل أن يجرى التحقيق أصلاً، ويبدو لى أن الإسراع فى طلب عقد المحكمة الدولية سببه عدم وصول التحقيق إلى أدلة، ولذلك يريدون أن يلقوا بآلاف الأوراق أمام المحكمة ليمضى فيها القضاة سنوات من عمرهم، وهم يفتشون عن أدلة، فيما يبقى المتهمون قيد الاعتقال ..

لا يوجد اتهام حتى الآن ، والسبب الثانى الذى يجب أن نحذر منه ، هو أننا لا نستبعد أن يكون هدف هذه المحكمة هو أن تخدع البشرية عبر إعلام قوى عالمى، فتلقى بتهم جزافية على شخصيات وطنية كبيرة فى المنطقة ..

وسؤالى ردًّا على السؤال هو لماذا لا يكون التحقيق عربيًّا خالصًا ؟ هل وصلت الأمة العربية من العجز إلى درجة أنها لا تجد ثلاثة قضاة نزيهين فى الوطن العربى، وأن يكون هناك محقق عربى فى جريمة وقعت فى بلد عربى ، والمشتبه بهم عرب والشهود عرب؟! ما دخل الولايات المتحدة الأمريكية بالقضية؟ ولماذا لم تنهض الولايات المتحدة وتجبر الأمم المتحدة على التدخل فى قضايا خطيرة جدًّا حدثت فى العالم؟! لماذا لم تحقق الأمم المتحدة فى جريمة قتل الشيخ ياسين أو الرنتيسى مثلاً؟! أليس هؤلاء قتلوا فى وضح النهار؟! لماذا لم يثر العالم، خصوصًا وأن القتلة هنا معلومون وليسوا مجهولين؟! إذًا الولايات المتحدة تضغط لتحقيق أهداف معينة ، أولاً : أن تلقى بالشبهات على سوريا وعلى الذين يعيقون تنفيذ مشروعها فى لبنان،

ولهذا كله نحن نشعر بالريبة من هذه المحكمة، ولا نفهم سببا لاستعجال رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة قرار المحكمة وقوله إن اقتصاد لبنان متعلق بهذه المحكمة، ولا أدرى سببًا لاستعجاله ؟! وما نشر حتى الآن من تقرير «بيريمتيس» لا ينطوى على أى دليل مهم تجاه متهم رئيسى، لكننا فى أعماقنا نعرف أن الموساد هم من قتلوا الحريرى .

*** وما مصلحة الموساد فى قتله؟**

- كل ما جرى يصب فى مصلحة إسرائيل، خروج سوريا من لبنان، انهيار الحكم، تعطيل الحياة الاقتصادية فى لبنان، الوصول بالفتنة الداخلية إلى أقصاها، ثم الحرب التى شنت على لبنان، كان مقتل الحريرى هو المفتاح الذى دخلت به إسرائيل إلى لبنان لإنهاء حضور المقاومة وسحب سلاحها، وكان المخطط، إذا قتل الحريرى، فإن أهل السنة وهم تاريخيًّا حلفاء لسوريا سيقفون ضد سوريا، وستتاح فرصة للدروز أيضًا أن يقفوا ضد سوريا ، على الرغم من أنهم على مر التاريخ أيضًا حلفاء طبيعيون لسوريا، كما أن مقتل الحريرى سيتيح فرصة للتشكيك بحزب الله واعتباره مسئولاً عن عدم الاستقرار فى لبنان ؛ لكى ترتفع أصوات تنادى بنزع سلاحه، والقضاء نهائيًّا على المقاومة والحقيقة أننا نأسى جدًّا ونحزن لما يحدث فى لبنان، لكننا لا نتدخل فى الشأن اللبنانى، واللبنانيون بوسعهم أن يجدوا حلولاً لمشكلاتهم، لكننا لن نقبل أبدًا أن تصبح المقاومة لقمة سائغة تهضمها إسرائيل وستبقى دومًا شوكة فى حلق إسرائيل .

*** على ذكر الوجود السورى فى لبنان، سمعت من أطراف عديدة فى بيروت، وبعضها مؤيد للوجود السورى هناك، أن السوريين ارتكبوا تجاوزات عديدة جعلت وجودهم فى لبنان أمرًا غير مرغوب فيه، وأن بعض الممارسات أساءت إلى العلاقات بين البلدين .**

- بما أنى وزير ثقافة دعنى أُجِبْ بقول أبى فراس الحمدانى :

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم   وفى الليلة الظلماء يفتقد البـدر

وأعتقد أن ليلة ظلماء مرت على لبنان فى شهر تموز «يوليـو» وافتقـدت سـوريا، وهرع الناس إلى أهلهم فى الشام قادمين من كل المناطق اللبنانيـة، هـذا هـو الوجـود السورى فى لبنان، دعك من الوجود العسكرى ؛ لأنـه حـين تقـع الحـروب تـضيع الأخلاق، وبعد أن تهدأ الحروب، تأتى الأطراف كلها لحصد الغنائم، هذا يحـدث فى كل المجتمعات، وأنا لا يمكننى أن أبرر الفساد الذى حدث، لكن هذا الفـساد كـان نوعًا من الشراكة بين فاسدين مـن سـوريا وفاسـدين مـن لبنـان، وهـو فـساد مـالى بالأساس، وهذا الفساد تضرر منه الشعب السورى فى الأساس .

*** كيف ؟**

- لأن سوريا ليست بلدًا مفتوحًا على الطريقة اللبنانية، بوسعك أن تجد فى لبنان كـل البضائع ومن كل العالم، لكنك لا تجد ذلك فى سوريا، ولذا كان الاقتصاد اللبنانى فى قطاع كبير منـه يعـيش عـلى مـا يتـضرر منـه الاقتـصاد الـسورى، وخـصوصًا عمليات تهريب البضائع بين البلدين .

*** لكننى سمعت أيضا أن سوريا شجعت الخلافات المذهبية والطائفيـة عـلى طريقـة «فرق تسد»، لكى تتمكن من إحكام قبضتها على لبنان .**

- الذين يرددون هذا الكلام هم من كانوا يتسكعون عـلى أبـواب الفاسـدين داخـل النظام، لكن الشرفاء من كل الأطراف كانوا يزورون دمشق يوميًّا للقـاء الـرئيس حافظ الأسد ومن بعده الرئيس بشار، وكيف يمكن أن تتهم سـوريا بـالتحريض على الخلافات المذهبية والطائفية ، وهى التى رعت اتفـاق الطـائف، وهـى التـى دافعت عن كل الطوائف والفرق اللبنانية فى إطار الوحدة الوطنية، ولولا التدخل

السورى لكان لبنان الآن 6 أو 7 جمهوريات، ونحمد الله أن ذلك لم يحدث ونظن أنه لن يحدث ؛ لأن الشعب اللبنانى قوى ومتماسك عند الشدائد .

*** ثمة تحليلات سياسية تشير إلى أن الصيف المقبل سيشهد حربًا فى المنطقة على خلفية الصراعات الدائرة الآن فى لبنان، وستكون سوريا وإيران طرفين رئيسيين فيها، هل توافق على هذا التصور ؟**

- أنا أستبعد تمامًا حدوث حرب، هذا ما تريده الولايات المتحدة لكنه لن يحدث ؛ لأن التجربة التى خاضتها إسرائيل فى حرب تموز « يوليو » الماضى علّمتها أنها لا تستطيع أن تحقق انتصارات مستقبلية، مضت تلك الأيام التى كانت الجيوش النظامية هى التى تحارب، والتى كانت إسرائيل تعتمد فيها على الفساد داخل هذه الأجهزة النظامية، مضت تلك الأيام التى وجد الجيش المصرى فيها فى الخامس من يونيو بلا قيادة، مضت تلك الأيام التى كان الجيش السورى فيها يحارب بطريقة كلاسيكية، مضت تلك الأيام التى كانت تهزم فيها إسرائيل الجيوش العربية خلال 48 ساعة، الحروب القادمة هى مواجهات مع مقاومات وشعوب، أنت ترى الآن 150 ألف جندى أمريكى لا يعرفون ماذا يفعلون ووصل بهم الغباء السياسى إلى حد إعدام صدام حسين فى عيد الأضحى .. هذا دليل رعونة وحماقة وفقدان للرؤية، فالانتصار الحقيقى لا يكون بإعدام شخص فى قفص، الانتصار الحقيقى يتحقق لو أنهم وصلوا بالعراق إلى بر الأمان، لذلك هم تائهون ضائعون وما أظن أنهم قادرون على تكرار التجربة، نحن فى حرب الصيف الماضية كنا مستعدين تمامًا للدخول فى حرب ، لو أن إسرائيل اعتدت علينا ؛ لأن الدرس علمنا جيدا كيف تهزم إسرائيل، فبوسع إسرائيل مثلاً أن تدخل دمشق، لكن السؤال هو كم ساعة تستطيع أن تبقى فيها، لدينا أعداد كبيرة من الناس مستعدون للشهادة فى سبيل الله، لكننا نعرف أن إسرائيل لا يمكنها أن تتحمل عدد القتلى، لدينا حب الشهادة أكثر من حبهم للحياة، وأمامنا التجربة الفلسطينية

مثالاً حيًّا لما أقول، فرغم تكالب الدنيا كلها على الفلسطينيين، فما زال أولمرت يفرك يديه لا يعرف ماذا يفعل، وفى ذهنه صورة شارون الذى انتهى مشلولاً عاجزًا عن التفكير والحركة، فيما كان الشيخ أحمد ياسين يرعب شارون وهو مقعد على كرسيه، وقد احتاجت إسرائيل والولايات المتحدة صواريخ لقتله على باب مسجد ..

وبرأيى ، فإن مشكلة إسرائيل الآن صارت مزدوجة، فهى لا تستطيع أن تعيش فى سلام ؛ لأن السلام يجعلها تذوب فى المحيط العربى الإسلامى، والآن فهى لم تعد تستطيع الحرب بعد أن انكشفت أمام المقاومة، فالأزمة الحقيقية هى فى إسرائيل وليس فى منطقتنا ، وهى فى الواقع أزمة وجود، إلى أين ستذهب ، إلى السلام الذى لا تستطيع أن تعيش فى إطاره، أم إلى الحرب فى صيغتها المقاومة التى لم تعد قادرة على تحمل أعبائها أو تحقيق أهدافها من خلالها، لذلك كله «أنا لست متشائمًا» بشأن الصيف المقبل وأعتقد أن الحلول السياسية يجب أن تتقدم وهى القابلة لأن تنجح، وسيهزم من دعوا إلى هذه الحروب، ونتمنى أن نرى قريبًا من شنوا هذه الحروب على منطقتنا فى قفص الاتهام .

*** الحلول السياسية التى تتمناها لا نعرف حتى الآن من أين تأتى، فمبادرة الأمين العام لجامعة الدول العربية حققت «نصف نجاح» ، أو اتفاق هدنة فى أحسن التقديرات، من أين إذًا يأتينا الحل السياسى ؟**

- فى تقديرى أن الحل سيأتى من نهاية لعبة «عض الأصابع»، فحزب الله والتيار الوطنى الحر بزعامة العماد ميشيل عون أقدر من الآخرين على تحمل قسوة اللعبة، نحن بالطبع خارج الدائرة اللبنانية، وأرجو أن يتضح للقارئ المصرى بأننا ندعم حزب الله لكننا لا نأمره، وهناك فارق كبير بين المعنيين ، ونحن لا نريد بأى حال أن ينزع سلاح المقاومة ؛ لأنها الغطاء الذى يحمى سيادة لبنان، لكننا لا نتدخل فى

التفاصيل بل ونجرم التدخل، ونحن مطمئنون إلى أن سوريا هى الجدار الضخم الذى تستند إليه القوى الوطنية فى لبنان، ولا يعنى ذلك أيضًا أننا مع لعبة كسر العظم فى لبنان، نحن لا نريد أن ينتصر طرف على آخر فى لبنان، ولا أن تطغى طائفة على طائفة، لبنان لا يمكن أن يعيش إلا بالتوازن، نحن مع أن ينتصر لبنان كله، وقد فتحنا بابنا للجميع حتى للذين يشتموننا ..

وأقول لك من خلال تجربة طويلة بالشأن العربى أن الأزمة لن تحل إلا إذا انفتحت القلوب لدور جديد، وإذا ما أعاد الآخرون النظر فى رؤيتهم للمنطقة ، وأن يتساءلوا إلى أين هم ماضون، فهل ما يريده اللبنانيون هو استبدال الدور السورى بآخر أمريكى وفرنسى وإسرائيلى، لا أظن .

*** كوزير للثقافة، هل تراهن على قدرة «الثقافى» على ترميم الشرخ السياسى، خصوصًا وأن المشترك فى الثقافى أوسع بكثير من نظيره على الصعيد السياسى ؟**

- سأكون صريحًا معك فى هذه الناحية، مستفيدًا بطبيعة الحال من هامش الديمقراطية الواسع الذى تعيشه مصر، الحل هو أن تستعيد مصر دورها الريادى، فغياب الدور المصرى أضعف الأمة، فمصر هى القلب والرأس وهى الملاذ لملايين العرب، وحين يغيب دورها تتشتت الأطراف فى ولاءات متعددة، كان العرب إذا ألمت بهم المصائب يقصدون القاهرة، الآن يقصدون واشنطن، إذا استعادت مصر دورها وتآزرت مع سوريا ويشتد ساعداهما، فسترى العرب أمة جديدة ..

مصر هى «الجبلاوى» «يشير إلى أب العائلة الأكبر فى رواية نجيب محفوظ أولاد حارتنا»، مصر مركز إشعاع حضارى وثقافى وسياسى ودورها لا يمكن استبداله .

❋ فى ظل غياب القطبية الثنائية وانفراد أمريكا بالساحة العالمية وشيوع العولمة بتجلياتها الثقافية والاقتصادية والسياسية، هل مازلت ترى إمكانية لوحدة عربية أو شعارات قومية من تلك التى سادت فى حقبة الستينيات ؟

- وبالعكس، أنا أرى أن حاجتنا إليها اليوم أكبر وأعمق، وتحضرنى هنا مقولة أطلقها واحد من المفكرين العرب الكبار وسمعتها منه فى باريس، حيث قال : إن العرب خرجوا من التاريخ، وما أراه أن الأمة العربية ستعود أقوى مما كانت ؛ لأن المخطط الذى دبر لها تم تنفيذه فعلاً ونتائجه باتت واضحة، وأهمها أن العرب ازدادوا التحامًا بعروبتهم وأحيانًا بدينهم، وأحيانًا بالاثنين معًا، ومن سيخرج من التاريخ هو بوش وتابعوه، وهناك موعد مرتقب للصعود العربى الإسلامى، هذا الموعد هو يوم أن تنكشف حقيقة ما جرى فى 11 سبتمبر 2001 ، يوم أن يعرف العالم أن الموساد هم من قاموا بهذه الجريمة، سيعيد العالم كله النظر فيما حصل ، وسيبدأ فى ممارسة الغفران مع المسلمين الذين ظلموا، وسيكتشف العالم أنها مؤامرة أمريكية إسرائيلية استخدمت ذريعة لاحتلال بلاد المسلمين .

❋ ❋ ❋

محمود أباظة يتحدث عن النكسة

فى 5 يونيو انهزمت الدولة لكن الأمة لم تنكسر

ودافعت عن وجودها بصلابة وجلد

ليس الهدف من هذا الحوار أن نقيم سرادق عزاء بعد أربعين عامًا، من هزيمة يونيو 1967 نتلقى فيه المواساة على شهداءنا الذين راحوا ضحية الاستعلاء الكاذب وفقدان الرشادة والغرور الأحمق .. والصراعات الخفية بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية .. لم نقصد أن نقيم «مندبة» .. نتبادل فيها لطم الخدود ونستعرض قدراتنا على النواح وتعذيب الذات .

العكس تمامًا هو الصحيح .. أردنا هنا أن نؤكد أن ما جرى، وأن كشف عوار الدولة وسوءاتها .. أكد صلابة الأمة التى استعادت ذاتها بأسرع مما توقع أعداؤها .. وتمكنت من تضميد جراحها كى توجه «الآتى» الذى لم يكن سوى الصراع على وجودها ذاته .. فكان الانتصار فى أكتوبر.

السؤال الأهم الذى نطرحه فى حوارنا مع محمود أباظة رئيس الوفد الذى كان طالبًا فى كلية الحقوق حين وقعت الهزيمة هو : هل استوعبنا الدرس؟ هى بتنا أكثر قدرة على التعاطى مع المستقبل اتكاءً على خبرة الماضى؟ هل تعاملنا بجدية مع ما جرى لنصلح ما فسد؟ الإجابة الحاسمة هنا : لا .

بل زادت الأمور سوءًا لأن الدولة ، يقول رئيس الوفد ، عملت على توسيع الجفوة بينها وبين الأمة، فاستبعدتها وأصرت على عزلها والوصاية عليها ولذلك .. «ضاعت الفرصة التاريخية لعملية إعادة البناء» .

جرى ذلك قبل يونيو 1967 وبعده، وما زال يجرى حتى اليوم .. والنتيجة أن زادت الجفوة اتساعًا، ولجأ النظام إلى مزيد من التضييق وإضافة القيود فزاد الاحتقان وتركت الأمة الدولة تغرق فى بحرها، يضيف رئيس الوفد .

أما ما يطرحه رئيس الوفد ، هنا فليس أقل من اعتذار مصر الرسمية «الدولة» لمصر الشعبية «الأمة» عن كل ما جرى .. وأن نبدأ فورًا المصالحة بين «المصريين» .. ودون هذا المشروع لن تتحقق التنمية .. ولن نتمكن من التغلب على قصور الداخل لمواجهة ضغوط الخارج .

هكذا أردنا أن نقرأ ما جرى فى يونيو 1967 .

وإلى تفاصيل الحوار :

*** كنت فى الجامعة حين حدثت هزيمة يونيو سنة 1967 ، كيف كان شعوركم .. هل توقعتم ما جرى؟**

- نحن جيل كان يعتقد أن التجربة المصرية رائدة فى العالم كله، وأن قيادة العالم الثالث منعقدة لمصر، وأن القوات المسلحة المصرية هى شىء مهم جدًّا، وقد ضحت الأمة المصرية تضحيات كبيرة من أجل صناعة هذا الجيش الذى يحمى الوطن، وكان الإعلام فى ذلك الوقت يحظى بمصداقية لدينا، على العكس مما تبين بعد ذلك، وبالتالى كان هناك إحساس عام بأنه إذا قامت الحرب فسوف نحرر فلسطين، وحين أعلنت الحرب وأتذكر أننى وقتها كنت أؤدى الامتحان فى كلية الحقوق قيل لنا لقد وقعت إسرائيل فى الفخ، وبدأت حرب التحرير ..

وبعد أن أنهينا الامتحان هرعنا لسماع الإذاعة التى كانت تبشرنا بانتصار حاسم بدليل هذا العدد الهائل من طائرات العدو الذى يتساقط بين لحظة وأخرى، وقد شجعنا ذلك على طلب التطوع فى صفوف الجيش من خلال مكتب الشئون العسكرية بالجامعة، لكنهم أفهمونا أن الحرب هذه المرة تختلف عن حرب سنة 1956، والتى كانت حربًا شعبية، أما هذه الحرب «يونيو 1967» فهى حرب جيوش، قبل أن تندلع الحرب بعدة شهور كانت الصحف المصرية تحتشد بعناوين صارخة عن قدرات الجيش المصرى الفائقة، وبين ما أذكره ما نشرته إحدى الصحف من أن المدرعات المصرية بوسعها أن تنطلق من حدودنا الشرقية فلا تجد من يوقفها حتى الهند، وكذلك قيل عن سلاح الجو والبحرية وغيرها، ثم بدأنا نسمع من خلال الإذاعات الأجنبية عن الخسائر التى يتكبدها الجيش المصرى، ورفضنا أن نصدقها، إلى أن جاء خطاب التنحى، هنا كانت الكارثة دون حدود، ولم يعد ممكنًا الاستمرار فى تكذيب الحقائق، أصيب جيلنا كله بصدمة، صدمة الشعور بأنك سقطت خلف القائد فى هاوية عميقة.

*** أنت تتكلم عن شريحة الطلبة، كما لو كانت كتلة صماء واحدة .. ألم يكن داخل هذه الكتلة وعى مختلف يتوقع الهزيمة فى ضوء ما يجرى؟**

- إطلاقًا، ولا حتى خارج الطلبة، يعنى أنا من بيت سياسى وكنت أسمع الكثير من الانتقادات والتحفظات، ومبكرًا كنت أختلف مع النظام فيما يتعلق بطريقة الحكم، لكن لم نكن نتوقع على الإطلاق فيما يتعلق بقدراتنا العسكرية وقوة الجيش أن يكون الأمر على هذا القدر من الخواء، ولم يكن هذا الشعور مقتصرًا فقط على الطلبة، إنما أيضًا على الناس فى الشارع، الذين خرجوا يعبرون عن مشاعر حزن حقيقية ورفض قاطع للهزيمة حين سمعوا الرئيس عبد الناصر يعلن التنحى، طبعًا النخبة كانت تعرف كثيرًا من العيوب ومواطن الخلل فى النظام، لكننى أنا

وجيلى كنا جزءًا من الرأى العام غير القادر على الحكم الموضوعى، كنا واقعين تحت تأثير شحن عاطفى كاسح، ولذلك كانت الصدمة هائلة ..

والمفارقة التى يمكن أن نتفهمها الآن بعد 40 سنة من هزيمة يونيو، أن الدولة «مصر الرسمية» خلقت الأزمة وأشعلت الحرب وخاضتها، وتبين أنها لم تكن مستعدة لا عسكريًّا أو اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا أو سياسيًّا، ولذلك حدث انهيار وانكسرت الدولة، ولكن صمدت الأمة «مصر الشعبية»، والحقيقة أن هذه المسألة تتكرر كثيرًا فى التاريخ المصرى، وهى تعبر عن معدن هذا الشعب، فالشعب المصرى عنده طاقة هائلة على الاحتمال والجلد عند الشدائد، وهذه السمات هى التى جعلت بعض المؤرخين يشبهونه بالتمساح العجوز، القادر على التهام أى شىء وهضمه ..

بعد الهزيمة لم تكن هناك دولة، وكان يمكن للمظاهرات التى خرجت ترفض تنحى الرئيس عبدالناصر أن تطالب بالقصاص من المسئولين عن الهزيمة، ولكنها لم تفعل، خرج الناس يطالبون بالتماسك والاحتمال ..

قد يرى البعض من الخارج أنها نوع من عبادة الفرد، لكن ذلك ليس صحيحًا، لأنه بعدها بعدة شهور كان الموقف مختلفًا، فقد خرجت مظاهرات ترفض ما انتهت إليه محاكمات قادة الطيران، هذا تعبير حقيقى عن قوة الأمة وقدرتها على التماسك حين تصبح المسألة قضية وجود .

*** لكن ثمة تفسير آخر يرى أن اندفاع الناس بهذه الكيفية ومطالبتهم عبد الناصر بعدم التنحى، كان شعورهم بأنه «ورطهم» وأوقعهم فى هاوية، عليه هو لا غيره أن ينتشلهم منها، ويشير آخرون من الخبراء النفسيين إلى أن المسألة تشبه الأب الذى تولى كل شىء نيابة عن أولاده، طعامهم، كساءهم .. توظيفهم، أمنهم .. إلخ، فلما مات لم يعرفوا ما الذى سيفعلونه بعده .**

- هذا تفسير أقرب للجنازة لفكرة الموت لكن فى الهزيمة الأمر مختلف، عندك دولة منسحقة وأبطال منكسرون وأنت الضحية، فرد الفعل الطبيعى هنا هو الغضب لكن هذا الغضب، تأجل لأن الشعب وجد نفسه يواجه صراع بقاء، ومن ثم اكتشفت الأمة أنها فى خيار بين الحياة والموت ، وأن الأمر يستوجب الصمود لا الغضب، ولهذا ارتضى هذا الجيل من الشباب أن يقضى زهرة شبابه فى رمال الصحراء أملاً فى رد الاعتبار، والمظاهرات والانتفاضات التى جرت كلها لم يكن لها هدف سوى الحرب ومحو آثار الهزيمة، والمسألة ليست مسألة عواطف فحسب، لكنها متسقة مع تاريخ هذا الشعب الذى تعلم متى يصبر ويتجلد ويتحمل، ومتى يغضب، ولذلك فإن الذين هزموا فى سنة 1967 ، هم أيضًا الذين انتصروا فى أكتوبر سنة 1973 ، بما يعنى أن مواطن الضعف فى الدولة عوضتها مواطن القوة فى الأمة، وطوال تاريخ مصر ستجد هذا المشهد، يعنى الدولة الأيوبية كانت إلى أفول، والسيدة التى حكمتها شجرة الدر قتلت، وانقسم المماليك فيما بينهم، وكانت مصر فى حالة هائلة من الفوضى، فى هذه الأثناء جاء التتار الذين أحرقوا بغداد واقتحموا الشام، فما الذى جرى؟ واجههم المماليك برغم ما بثه التتار من رعب قبيل وصولهم، والمجازر التى قاموا بها فى كل عاصمة إسلامية دخلوها، لكن حين شعر المصريون بأن الأزمة هى أزمة بقاء، تراجعت كل تناقضاتهم الداخلية وقرروا الصمود فى وجه العدوان ..

انظر أيضًا إلى تجربة محمد على، فحين انكشف ضعف الدولة العثمانية، وواجهت مصر أوروبا بقوتها الحديثة آنذاك، كنا فى العصور الوسطى، وكانوا هم فى عصر الحداثة، يعنى خمسة قرون فرقًا، المهم أنه حدثت مقاومة شعبية، وبدأت النخبة المصرية تبحث عمن يقود مصر فى هذه المرحلة، واختارت محمد على ونجحت فى أن تفرضه على الباب العالى، ونجح محمد على فى أن يقيم دولة حديثة بأيدى المصريين ..

انظر كذلك إلى ما جرى بعد هزيمة عرابى على يد إنجلترا، ثم هزيمة إنجلترا فى الحرب العالمية الأولى، فإذا بثورة 1919 تنفجر وتأخذ فى مسارها الحركة الوطنية الأيرلندية «أقدم وأقرب المستعمرات البريطانية» والحركة الوطنية الهندية «أكبر المستعمرات البريطانية»، وتنطلق هذه الثورة، فيما لم يكن أحد يتوقع اندلاعها بما فى ذلك المخابرات البريطانية التى كانت آنذاك المخابرات الوحيدة فى العالم، ويتمكن سعد زغلول «المنفى آنذاك» من إدارة الثورة عن بعد وتحريك الناس ..

الشاهد أن الشعب المصرى يفاجئك دائمًا عندما تكون قضية البقاء هى الخطر الداهم الحالى، وما حدث فى 1967 ، لم يكن بعيدًا عن هذا المسار .

*** هل ثمة درس لجيلكم مما جرى؟**

- الدرس الأكبر هو ألا نعطى أحدًا شيكًا على بياض ، وأن نتشكك فى الحاكم ، ولا نصدقه حتى تثبت أفعاله أقواله، وهذا هو الأثر الأكبر الذى تركته فينا هزيمة يونيو ؛ إذ إن الأثر المادى يمكن معالجته، أما الشك والريبة وعدم الاطمئنان بين الحاكم والمحكوم، وكذلك الشك فى النفس وعدم القدرة على الإنجاز، شعورنا أننا أسرى مثلث العجز : العجز عن الحفاظ على الأرض أو استعادتها سياسيًّا أو بالقوة، لكننا خرجنا من مثلث العجز هذا بانتصار 1973 ، لكن التشوهات التى بقيت على المستوى النفسى كانت أشد .

*** لدى سؤال قد يبدو شخصيًّا إلى حد ما، أنت تنتمى إلى عائلة أرستقراطية، وهى مثل عائلات كثيرة أضيرت من الإجراءات التى اتخذها نظام يوليو ، فيما يتصل بتوزيع الثروات وتحديد الملكيات .. إلخ، فى هذه الحالة يمكن تصور أن ثمة إحساسًا بالتشفى لانكسار النظام دون أن ينفى ذلك الإحساس بالحزن بسبب الهزيمة؟**

- هذا يمكن اعتباره تفكيرًا عقلانيًّا، لكن المشروع القومى كان يجرى على مستوى آخر، مستوى أكثر عاطفية ، والحقيقة أن بعض الإجراءات التى اتخذت تضرر منها البعض، لكن لم يحدث فى لحظة من اللحظات أن كان ذلك مرتبطًا بمكانة مصر ودورها فى المنطقة وفى العالم..

وربما لو تقيّم الهزيمة الآن، تستطيع أن ترى ببساطة أن الهزيمة ما كانت أن تحدث لو لم يكن النظام شموليًّا ديكتاتوريًّا عسكريًّا . أما فى حينها، فلم يكن بوسعك إلا الالتفاف حول هذا المشروع، خصوصًا أنه لم تكن هناك وسيلة لتعرف على وجه الدقة حدود الصدق والكذب فيما يقال بشأن قدراتنا العسكرية، أو شكل الصراع بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية ..

اليوم تستطيع أن تربط، وهذا الربط حدث فى الحقيقة بعد الهزيمة، حدثت مطالبات بالديمقراطية والحرية والشفافية... إلخ، وجاء بيان 30 مارس تعبيرًا عن هذه المطالبات، لكن المشكلة الأساسية أن هذا المشروع كان مجردًا عن الواقع ومفصولاً عنه، فقد كانت هناك أزمة اقتصادية طاحنة بدءًا من العام 1965 ، كان هناك تآكل واضح فى المرافق العامة، وكان يمكن للمراقب أن يربط بين هذا التآكل وسير الأمور فى القوات المسلحة ..

والمشكلة تحدث عندما يكون المشروع القومى ذا ضغط عال جدًّا «أى متوهج أكثر من اللازم»، فإنه غالبًا ما يؤدى إلى كارثة ؛ لأنك فى سبيله تهدر كل العناصر الواقعية ، التى تمكنك من رؤية الطريق دون أن تفقد علاماته الصحيحة .

*** على المستوى الشخصي .. هل أدت هزيمة يونيو إلى أن تغير خططك للمستقبل؟**

- أنا وكثيرون غيرى، هناك من هرب، إما هاجر خارج البلد أو عاش غريبًا بإرادته داخلها، وهناك أناس رفضوا هذا الواقع، عاشوا فيه وكأنهم موتى، ورفض قطاع ثالث هذا الواقع واعتبر ما جرى «حادثة طريق»، وأن كل شىء سيتم إصلاحه،

وجميع هؤلاء اشتركوا فى فكرة التشكك فى الحاكم، واعتبر فريق رابع أنفسهم ملتزمين بإخراج الأمة مما آلت إليه .

*** أتحدث عن خططك الشخصية؟**

- قبل 1967 لم تكن لدى ميول سياسية، كانت عندى ميول أدبية، كنت أجرب فى الشعر، وكان تصورى أن هذا هو المجال الذى أحبه وأرى نفسى فيه، وقراءاتى فى العلوم السياسية كانت لأسباب عقلانية أو بحثية وليس لأغراض عملية ..

وقد خلقت مظاهرات 1968 ، حالة من الاستقطاب السياسى، وبدأت تظهر التيارات المختلفة، كما ظهر فى الجهاز التعبوى للدولة حديث مغاير عن الديمقراطية والحرية، هل الاشتراكية تم تطبيقها تطبيقًا صحيحًا أم لا، هل ما جرى سببه أننا ابتعدنا عن الله ولم نتمسك بتعاليم الدين .. إلخ . من هنا بدأ هذا الجيل يأخذ مواقف كان بعضها حادًا ..

بعد التخرج سافرت إلى بارس سنة 1970، ووجدت أن الطلبة المصريين هناك منقسمون إلى فريقين : فريق يسارى وفريق ليبرالى، وكل منهما كان يلتقى بأعوانه فى مقهى مختلف عن الآخر، ورأيت هناك كيف أن هزيمة يونيو 1967 أثرت على النظر إلى المنطقة ككل، بما فيها دول لا صلة لها بالاستقطاب الحادث، مثل الأردن على سبيل المثال التى لم تكن فى معسكر الدول الثورية، بل معسكر الدول المحافظة المتحالفة مع الغرب ، ومع ذلك لم تستطع أن تحمى نفسها ولا أن يحميها أحد.

*** هل تبلورت لديكم أفكار معينة حول الكيفية التى يمكن أن تخرج الأمة من كبوتها، خصوصًا أنكم على البعد ترون الصورة أوضح، فضلاً عن أن المتاح من المعلومات أوفر وأدق ؟**

- أعتقد أن الأفكار التى أحملها اليوم أنا ومجموعة من الوفديين وبعضهم كان فى باريس معى، هى الأفكار نفسها التى توصلنا إليها فى بداية السبعينيات، وهى

أفكار الإصلاح الدستورى مع تغييرات بسيطة، يعنى كنا فيما مضى نرى أن القطاع العام ضرورى، الآن نراه واقعًا غير ضرورى ينبغى أن نستبدل ما هو أحسن منه به ، مفاهيم الاستقلال لدينا تغيرت ؛ لأنه فى زمن السبعينيات كان يمكن الحديث عن نظام القطبية الثنائية، الأمور الآن لم تعد كذلك، وكما تعرف فإن فكرة سيادة الأمة بوجهيها، سيادة الأمة فى مواجهة الخارج «استقلال الإرادة»، وسيادتها فى مواجهة الحاكم «الديمقراطية والدستور وحماية الحريات العامة»، ولم تكن فى السبعينيات كذلك مشكلة مصرية حول الدين، يعنى الوحدة الوطنية لم تكن مهددة ..

والسؤال الذى يؤرقنى فى الحقيقة هو : بعد 40 سنة ما الذى فعلناه لتلافى آثار كارثة يونيو 67 ، وإن كان يجب أن نعترف بداية بأن الأمة كان لها موقف رائع، واستطاعت بما لديها من صبر وجلد أن تعبر هذه المحنة ..

المسألة الثانية أن آخر حرب خضناها، حرب 1973 ، مضى عليها 34 عامًا، ومازلنا نتكلم عن آثار الحروب، انظر إلى ألمانيا واليابان اللتين دمرتا فى الحرب العالمية الثانية، كيف تمت إعادة البناء وفى كم من الأعوام، حتى أصبحت هاتان الدولتان من أكبر الدول اقتصاديًّا فى العالم، فى مدى زمنى لا يزيد على 20 سنة، من 1945 حتى 1965 ، وهذا لم يحدث عندنا .

*** ما الذى يعنيه هذا؟**

- إنه يعنى أن هذه الأمة التى نجحت فى مرات كثيرة أن تنهض وتتجاوز محنتها، وأن تعوض بمقوماتها الذاتية إخفاقات الدولة، لم يسمح لها إلى الآن أن تقول كلمتها وتسترد قوتها، ولذلك لم تبدأ بعد عملية إعادة البناء، وما يحدث الآن هو عمليات ترقيع، سوف تلاحظ مثلاً أن فكرة «الدولة المعجزة» فى بريطانيا وُجدت لتعوض الشعب الإنجليزى عما فقده أثناء الحرب، ولا تنس أن الشعب الإنجليزى غير حكومته المنتصرة وأسقط تشرشل بعد الحرب .. لماذا؟ لأنها مرحلة جديدة ..

نحن إلى الآن، حكوماتنا المتتالية على الأقل منذ سنة 1981 ، زمن استردادنا لأراضينا بعد حرب 73 ، لم تفعل شيئا ذا بال، لماذا؟ لأن هناك جفوة بين الدولة والأمة، وكل ما يبذل هو جهد ضئيل، لا تشارك فيه الأمة بمعناها الواسع، بعضهم يقول إننا جددنا البنية الأساسية، والآن فإن هذه البنية الأساسية تنهار ؛ لأنك لم توفر لها سبل الصيانة، لكن الأهم أنه على مدى ربع قرن لم يحدث تصالح بين الدولة والأمة، بل تفاقمت الجفوة حتى صارت قطيعة، وسأضرب لك مثلاً من مرفق التعليم الذى ينهار منذ ثلاثين عامًا أو يزيد، أعمدة هذا المرفق هى : المدرس والتلميذ وولى الأمر ؛ أى عنصر الإنسان ..

لو أن هذا المدرس يشعر بأن بينه وبين الدولة ثقة، وأن هناك احترامًا متبادلاً، وأن هناك اهتمامًا به وتقديرًا له، فإن هذا يسهل علىَّ جدًّا عملية إصلاح التعليم، لكن لو أن هذه القطيعة قائمة فإن كل ما أنفقه فى هذا المرفق يمثل إهدارًا للمال العام، هم يتحدثون عن الدروس الخصوصية، ويلومون المدرس بسببها، والدروس الخصوصية فى الحقيقة هى نتيجة لانهيار التعليم، وليست سببًا فى انهياره ..

انظر كذلك إلى مرفق الصحة، فمنذ البداية لا يدخل كلية الطب سوى الطلاب الحاصلين على مجاميع مرتفعة جدًّا ؛ أى إن كلية الطب تقذف بأفضل وأقوى العقول، لكن حين يصبح هذا الطالب النابغة بعد تخرجه غير قادر على تلبية حاجاته الأساسية، فلا يمكن أن تأخذ أفضل ما عنده، والمسألة ليست فقط مادية، لكن شعوره بأن الدولة ترعاه وتقدره وتستمع إليه، هذا هو الجانب الإرادى السياسى وهو الأهم ؛ لأن من يصنع التنمية فى النهاية هو الإرادة العامة، أما المجهود الفردى .. فإنه يصنع أثرياء، والجميع لن يشارك فى جهود التنمية الشاملة مادامت هذه الجفوة بين الأمة والدولة قائمة .

*** ما سبب هذه الجفوة برأيك، ولماذا اتسعت إلى هذا الحد؟**

- سبب هذه الجفوة أن نظامنا السياسى لم يعد يمثل هذا المجتمع الذى تغير بعمق وسرعة خلال الثلاثين عاما الماضية، وبالتالى فهو لايرى نفسه فيه، وإنما يراه شيئًا آخر، ومن ثم فهو على استعداد لأن يحاسبه، لكنه لا يقبل أن يعاونه .

*** وما صلة هذا بهزيمة يونيو 1967 ؟**

- كل المشكلات التى نعيشها هى نتاج هذه الصدمة ..

*** لكننا انتصرنا فى أكتوبر 1973 ، ومع ذلك نتكلم عن أن هزيمة يونيو هى سبب كل ما جرى، فلماذا لم يعدل الانتصار الأوضاع؟**

- أتصور أننا يوم 10 يونيو 67 كنا بدأنا ننتصر ؛ لأن هذه الهزيمة لم تكن مجرد هزيمة عسكرية، كان المقصود منها إلقاء الرعب والذعر فى نفوس المهزومين، ولكن عندما وقفت هذه الأمة تعلن استعدادها للتصدى والصمود ومحو آثار الهزيمة، كان النصر قد بدأ، كان هذا هو دور الأمة وليس دور الدولة، فما الذى حدث بعد ذلك؟ أصرت الدولة على الاستمرار فى عزل الأمة والوصاية عليها، ولذلك ضاعت الفرصة التاريخية لعملية إعادة البناء، وهو ما جرى أيضًا بعد 73، ففى هذه الأثناء أراد الرئيس السادات أن ينشئ انفتاحًا سياسيًّا، لكن نظامه لم يتحمله، لم يتحمل أن يرفض 15 نائبًا فى البرلمان معاهدة السلام مع إسرائيل، فقام بحل البرلمان، وتوالت الأحداث حتى وصلنا إلى اعتقالات سبتمبر سنة 81 .. باختصار النظام لم يتحمل الانفتاح السياسى، لم يتحمل أن يعيد للأمة حقها فى أن تختار حكامها وتراقبهم وتغيرهم وتحاسبهم، ولذلك لا تزال هذه الفجوة قائمة، بل زادت اتساعًا .

*** لماذا؟**

- لأنه مع عدم تحقيق انجاز، لجأ النظام إلى إجراء تضييقات أكثر، وإضافة قيود جديدة ، كما اتضح فى التعديلات الدستورية الأخيرة ، يعنى الاحتقان يزداد ولا يقل، لأن المرافق كلها أسوأ مما كانت عليه قبل 34 سنة، وطالما أنك تعزل الأمة ولا تقبل بسيادتها فإنها بدورها تعتزلك ، وبالتالى الدولة تغرق فى بحرها ولا شيء يتحقق على أرض الواقع .

*** لدينا هنا مفارقة .. الأمة كما أشرت خرجت خلف عبد الناصر ترفض الهزيمة وترفض التنحى برغم الانكسار، بل وتعيد ما أهدرته الدولة، لكن الأمة فى الحالة الثانية تعتزل الدولة، وتتركها تغرق .**

- لأنه فى 1967 الدولة هزمت واندحرت فى مواجهة عدو خارجى، لكن الدولة هنا هزمت فى مواجهة الأمة ؛ لأنها لم تعطها حقها ، وبالتالى لم تحصل على تأييدها أو مساندتها، يعنى مشروع الدولة للتنمية القائم على التخطيط فى المرحلة الناصرية قضى عليه بهزيمة يونيو 1967 ، والمشروع القائم على اقتصاديات السوق أيضًا لم يحقق أهدافه ..

هناك شعور عام بالفشل والإحباط، خصوصًا لدى الجيل الذى ولد بعد 1973، هذا الجيل هو ثمرة الجفوة بين الدولة والأمة، هذا الجيل لا يشعر بأن الدولة هى أداة الأمة فى تحقيق مصالحها وحمايتها، رغم أن الأمة هى التى أنقذت الدولة .. لم تحدث المصالحة وصار الوضع أكثر خطورة؛ لأننا نواجه قصورًا داخليًّا كبيرًا، هذا القصور هو الذى يقلل من قدرتك على مواجهة ضغوط الخارج، وهذا هو الموقف الأخطر ؛ لأنك كى تستطيع أن تحافظ على كيانك ووجودك فى عالم مضطرب وإقليم أكثر اضطرابًا، عليك أن تتحصن خارجيًّا، وأن تتعقل داخليًّا، وهذا لا يتحقق إلا

بتلاحم بين الأمة صاحبة الحق، والدولة التى تمثل أداة الأمة فى تحقيق مصالحها وحمايتها ..

هذه الجفوة بين الدولة والأمة فتحت الطريق لمجموعة من الأشباح ، تريد أن تستولى على الدولة، وهو ما يعنى أن السلام الاجتماعى كله معرض للخطر، وأصبح واضحًا الآن أن هناك عدم ملاءمة بين الهيكل السياسى وحقيقة المجتمع، كان المجتمع يقبل الطريقة الهرمية فى إدارته ؛ لأن الدولة كانت توفر له حاجاته الأساسية كلها ومسئولة عنه مسئولية كاملة، والوضع الآن مختلف، لم تعد الدولة تضمن شيئًا لأفراد المجتمع، ولم يعد بوسعها أن توفر لهم ما كانت توفره قبلاً، وزادت المساحات والتناقضات فى قاعدة الهرم التى تضيق بسرعة وبشكل مستمر ؛ مما يجبر النظام على الاعتماد على البيروقراطية وأجهزة الأمن، وهو ما يؤدى بدوره إلى اتساع الفجوة بين الدولة والأمة، ويقلل من قدرة الدولة على مواجهة المشكلات المتعلقة بالحياة اليومية للناس .

*** هل من وسيلة لتجسير هذه الفجوة؟**

- لابد أن تذهب هذه الدولة إلى الأمة، وتعتذر لها عن فشلها، وأن تطلب منها المعاونة وأن تقبل شروطها، وسوف تكون شروطًا عاقلة .

*** من التجريد إلى التحديد، من الذى ستتوجه إليه الدولة بخطاب اعتذارها؟**

- من تأتى بهم انتخابات حرة تجريها حكومة محايدة .. نحن نطالب بعقد اجتماعى جديد ، يتمثل فى دستور جديد تضعه جمعية تأسيسية منتخبة لهذا الغرض، يضع القواعد التى تستقر عليها الدولة الوطنية الديمقراطية الموحدة المستقلة .

*** ما الذى تعنيه «موحدة» فى هذا السياق؟**

- لا تنقسم إلى فيدراليات ، عرقية أو دينية أو إقليمية .. إلخ ، أما المستقلة فهى التى لا تندمج ولا تتنازل عن سيادتها، هذه الدولة هى التى ستحافظ على الوحدة

الوطنية بمفهومها المزدوج ؛ فالمواطنة هى مناط الحقوق والواجبات بصرف النظر عن الدين أو العرق، والوجه الآخر من الوحدة الوطنية هو العدالة الاجتماعية ؛ لأنك إذا همشت الفئات الأفقر والأضعف، تنفرط الوحدة الوطنية ..

ويجب أن نلاحظ أن شعار «الدين لله والوطن للجميع» يلخص ثوابت الوفد إلى حد كبير، فالقول بأن الوطن للجميع، لا يعنى فقط أنه للمسلمين والأقباط، وإنما المقصود أنه لجميع أبنائه ..

فعندما يقال إن فى مصر ما بين مليون و1.8 مليون طفل فى الشوارع، فإن الوطن الذى يطرد هذا العدد من أبنائه فى الشارع ليس وطنًا تستقيم فيه الوحدة الوطنية .. عندما أقول إن هناك فارقًا بين نصيب الفرد من الإنفاق العام فى الريف عن المدن، فإن هذا يمس الوحدة الوطنية ..

عندما أقول إن من يتعلم فى مدرسة حكومية فى منطقة عشوائية يتلقى تعليمًا أقل من نظيره الذى يتعلم فى مدرسة حكومية فى حى أرقى، فإن هذا يمس الوحدة الوطنية .. هذه آلات تهميش ..

وطالما أن المجتمع لم يتمكن بواسطة الدولة من استيعاب الفئات الأفقر والأضعف، ووقف آلة التهميش الهائلة تلك، فإنه يواجه مخاطر تفتت الوحدة الوطنية وستلاحظ أنه تزامنت فى مصر دائمًا قضيتا الاستقلال والدستور، كما تزامنت قضيتا الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وستجد أن الوفد كان حريصًا خلال فترات حكمه على أن يؤكد هذا البعد، مثلاً فى مسألة مجانية التعليم، الابتدائى، فالثانوى، تم تحديد عشر سنوات لتطبيق المجانية فى التعليم الجامعى، التى تحققت بالفعل فى 1961، والفكرة الأساسية هنا «منع التهميش» ..

ستلاحظ أيضًا اهتمامًا كبيرًا من الوفد بالعمال ؛ لأن هذه الفئة ضمن القوى الوطنية، ولأنها كذلك، لابد أن تأخذ حقوقها فى الحياة .. وبشكل عام ، فإن

الديمقراطية نجحت فى الدول التى نجحت بها، لأن فئات المجتمع الأضعف وجدت فى الانتخاب والترشيح وسيلة للحراك الاجتماعى والحصول على حقوقها .

هذا كله يعيدنا إلى نقطة البداية ..

أنا أعتقد أنه كان هناك مشروع وطنى متكامل لثورة 1919 ، يدور حول فكرة الوطنية والحرية بما يستأهله ذلك من بعد اجتماعى، أن تكون ممثلاً للأغلبية، وأن تكون هذه الأغلبية هى الأفقر والأضعف، وقد تحطم هذا المشروع بحريق القاهرة، ثم جاء مشروع 23 يوليو 52 ، الذى تحطم فى 5 يونيو 67 ..

ولذا .. فإننا ينبغى أن نطرح الآن مشروع المصالحة بين الدولة والأمة ؛ لأن التنمية لن تتحقق دون هذه المصالحة، ولن نتمكن من التغلب على قصور الداخل لنواجه ضغوط الخارج إلا بهذه المصالحة .

وأعتقد أن ما تطلبه الأمة سوف يكون أكثر مما يمكن أن تفى به الدولة ، ولا أعتقد أن الطرفين بشىء من العقل يصعب عليهما أن يصلا إلى هذه المصالحة، لكن لابد أولاً أن تتنازل الدولة وحكامها عن غرور القوة، وهى قوة مفترضة لم تختبر، ولا نريد ولا يريد أحد أن تختبر، لا ينبغى أن تصل الأمور إلى حد اختبار هذه القوة ..

وأرجو أن تلاحظ أننا عندما خرجنا فى مظاهرات 1968 ، كان بين هتافاتنا شعار يقول : «يا حرية فينك فينك .. عملوا حاجز بينى وبينك»، ويبدو أن هذا الشعار لايزال صالحًا حتى اليوم .

*** لو لم تتم هذه المصالحة، ما الذى تتوقعه، خصوصًا أن البعض يطرح سيناريو كارثيًّا عنوانه «الفوضى والتدمير وعنف الشوارع»؟**

– الشعوب تختلف فى طبائعها، ولا أعتقد أن من طبيعة الشعب المصرى أن يقتل بعضه بعضًا، هذا ليس مألوفًا، لكن ما يمكن أن يحدث هو انهيار عام، بمعنى أنه

فى لحظة من اللحظات تعجز الدولة بأجهزتها عن المحافظة على النظام بمعناه الواسع، يعنى عن تسيير المرافق والخدمات، وعندئذ تحدث فوضى، وتجد كل الإحباطات من يحركها، ويحدث تفكيك شديد، يصعب بعد ذلك أن تعيد ربطها من جديد، لكننى أتصور أن هذا الوضع من الصعب أن يصل إليه الشعب المصرى ؛ لأن لهذا الشعب قدرة أن يجد لنفسه مخرجًا عندما تصل الأمور إلى حد الأزمة .. وأنا متأكد أن الشعب المصرى سيجد مخرجًا فى وقت قريب .

* * *

طارق البشرى

الاستقلال الوطنى شرط أساسى لتحقيق النهضة

شغلت مسألة النهضة الفكر العربى منذ بدايات القرن التاسع عشر .. وأعيد طرحها من جديد فى أواسط القرن العشرين، ومع نهاية القرن .. اكتشفنا أنها كانت وهمًا .. أو حلمًا تبخر مثل أحلام كثيرة بزغت .. وسرعان ما خبت .. اكتشفنا ونحن نودع القرن العشرين .. أننا خرجنا منه أسوأ مما دخلناه .. وأن كل المشروعات النهضوية التى بدأناها .. وكل التجارب التى خضناها .. حرث فى البحر .. وأننا من جديد نعيد طرح أسئلة النهضة وإن كانت بصيغ وتعبيرات مختلفة ..

لماذا بقيت أسئلة النهضة تطرح إلى الآن؟ هل لأن النهضة لم يتحقق منها شىء، وذهبت جهود الرواد الأوائل سدى، أم لأن الشعوب والمجتمعات العربية بطبيعتها جامدة تتأبى على التغيير وتنفر من النهضة؟ أم أن السلطة السياسية كانت هى العقبة الكؤود فى هذا السبيل .. سؤال النهضة هو سؤال المستقبل الذى بحثنا عن إجابته عند المؤرخ المستشار طارق البشرى .

*** لماذا أخفقت النهضة العربية؟**

– قد أختلف معك فى أنها أخفقت، منظورًا للأمر من ناحية جدية المحاولات المصرية والعربية وصواب الطرق التى طرقتها، بالمعنى الاجتماعى والاقتصادى

فإن النهضة لم تحقق نتائجها، وانتكست كثيرًا بسبب العدوان الخارجي، إذا كنا نتكلم عن الفترة منذ محمد على حتى اليوم، فمشروع محمد على الذى مهد له من سنة 1815م ، حتى سنة 1820م ، وحققه من سنة 1820م ، حتى سنة 1840م ، انتكس بالفعل بعدوان خارجى عليه من الدول الأوروبية كما هو معروف تتابع الأحداث التى أدت إلى مؤتمر لندن سنة 1840م، وإجبار مصر على تخفيض جيشها من 360 ألف مقاتل فى بلد لا يزيد عدد سكانه على 7 ملايين نسمة إلى 18 ألف جندى، وكان الجيش هو القاطرة التى تقود التعليم الجامعى والمهنى المتخصص فى الهندسة والطب والعلوم وغيرها، وتدفع البعثات من أجل هذا التعليم، وكان هو القاطرة التى تحفز إنشاء المصانع من أول النسيج حتى الذخيرة، وقد ضرب كل هذا فى فترة تالية ..

وقد بدأ التسرب الأجنبى لمصر فى عهد سعيد، حيث تمت السيطرة عليها وإخضاعها للسوق العالمى، ثم احتلالها عسكريًا فى 1882م، وزالت الإرادة المصرية فى ذلك الوقت .

*** لكن بدايات القرن العشرين شهدت صحوة جديدة، ربما فاق تأثيرها خصوصًا على صعيد المطالبة بالاستقلال الوطنى ما جرى خلال العقود السابقة؟**

- هذا صحيح ؛ إذ ظهر بالفعل مشروع نهضة جديد مع بداية حركة الاستقلال السياسى، بدأ متلكئًا فى سنة 1910 - 1911 ، مع أحزاب الوطنى والأمة وتم وضع برنامج جديد للنهضة المصرية، بدا أنه قابل للتحقق مع ثورة سنة 1919 ، وفى إطار الموازين الدولية والسياسية الداخلية، كان يتحقق منه وينجح بقدر ما تتحرر الإرادة الوطنية المصرية، وتنجح فى تعبيرها عن الصالح العام، وفى قدرتها على تحقيق هذا الصالح الوطنى، من ناحية التعليم، الصناعة، ومناحى التطوير الثقافى عمومًا ..

ومع ثورة 23 يوليو 1952 ، وبقدر ما استطاعت أن تحقق مـن اسـتقلال لمـصر، كان مشروع النهضة على المستويات العلمية والثقافية والصناعية والتوسـع الزراعـى يجد صداه، وبدأت الانتكاسة مع انتكاسة هذا المشروع فى يونيو سنة 1967 .

فى ذهننا بطبيعة الحال كل الأمراض والأدواء التى صاحبت كل تجربة من هـذه التجارب، ولكننا عندما نضع الملامح العامة نجدها جميعها فى هذا الإطار، مع إدراك أن الملامح العامة فيها قدر من التعميم يتوقع منه الخطأ أحيانًا فى الحكم على الأشياء، ولهذا نجد فى الفترة الحالية أن مشروع النهضة المصرى لم ينتكس فقط ، وإنما تتقوض أسسه التى بنيت ليس من عام 1952م ، فقط وإنما مع بدايات القرن العشرين، أسسه فى الصناعة، وفى استرداد القدر المعقول من سد الحاجات الأساسية للشعب المصرى من داخل أرضه وبسواعد رجاله، وأسسه فى بناء نهضة تعليمية على المستوى العام فى المدارس وعلى مستوى التخصـصات العلميـة، وعـلى مـستوى النهـوض الجـامعى الرفيع المستوى .. كل هذا لم يضعف فقط ، وإنما بدأ التقوض فى أسس بنائـه خـلال ربع القرن الأخير ..

حدث ما قوض أسس هذا البنـاء، وأهـدر جهـود المـصريين قبلـه قرنًـا كـاملاً بالنسبة للتكوين المؤسسى وهياكله، التعليم بمـستوياته المختلفـة، الـصناعة، زيـادة الرقعة الزراعية، وبالنسبة للسياسات العربية والدولية التى ترعـى أسـس اسـتقلال الوطن، وتستهدف تحقيق رؤية استراتيجية للصالح الوطنى العام، وهـذا التقـويض الذى يحدث مرتبط ومتواكب مع الهيمنة الأجنبية على القرارات المصرية .

*** بعض التحليلات تذهب إلى أن الإخفاق المتكرر للمشروعات النهضوية جـرى فى الأساس بسبب ارتباط هذه المشروعات بالدولة، خصوصًا أن الدولة ، فى القـسم الأكبر من تاريخها ، لم تكن ديمقراطية بأى معنى من المعانى .**

- أتفق معك فى أن هذا سبب، لكنه ليس منفصلاً عن السبب الأول، والدولة عندنا لم تتشخصن، بمعنى أنها لم تكن خاضعة لإرادة شخص واحد لا تتحداه قوة أخرى ، بهذا القدر قط على مدى القرن الماضى ، مثلما هى فى ربع القرن الأخير .

وأتصور أن الداعم الأساسى للهيمنة الفردية فى مصر كان يقف وراءها الدعم الأجنبى، هكذا كانت السرايا، توفيق وغيره، فؤاد ثم فاروق، حكم عبد الناصر كان مستبدًّا وفرديًّا ، إنما كان يخضع لمشروع سياسى استقلالى ، وضُرِبَ استعماريًّا لا بسبب فردية أو ديكتاتورية عبد الناصر، وإنما بسبب استقلاليته السياسية .

*** تبدو المسألة هنا وكأن النظام السياسى برىء مما جرى، وأن الإخفاقات المتكررة للنهضة سببها فقط عدوان خارجى، يعنى استبداد النظم لا صلة له بالمسألة؟**

- فكرة الديمقراطية عندنا أخذناها من الغرب، لكننا لم ننتبه إلى أن النظم الديمقراطية الغربية وبناء المؤسسات لم يكن شخصانيًّا، والمفروض أننا نطبقها فى بلادنا لدعم مشروعات النهوض المستقل، مستفيدين من خبرة الآخرين فى تنظيمات الدولة وتنظيمات المجتمع . فلا نهوض بغير تبنى أسس مثل هذا التنظيم للدولة ولا المجتمع، هذا ما ترسخ فى أذهاننا .. لكن فى كثير من الأحيان ، فإن الدعاوى الديمقراطية التى يمكن أن ترد إلينا من الدول الغربية، وهى تأتى غالبًا باعتبارها دعاوى سياسية، إنما تأتى لإشاعة الخلل فى أسس النظام القائم إذا كان معاديًا لها ، أو لتوجيه نظم سياسية يرون أنها فقدت صلاحياتها وانتهى عمرها الافتراضى، أو للضغط على هذه القيادات المطيعة من أجل مزيد من الانصياع، وما يتعين أن نعرفه هو أن نميز بين هذين الأمرين ..

مجموعة أسباب تعوق النهضة ذات فعالية وخطورة أكثر من غيرها، ومنها العنصر الخارجى وضغوطه، ولكن هذا لا يمنع من الاهتمام بالعناصر الأقل أهمية لإزالتها ، وهو كما ذكرت الاستبداد الداخلى ..

وعمومًا يمكن أن أقول إنه دون الديمقراطية الداخلية ، لن نستطيع أن نحتفظ باستقلالنا السياسى، وهذا هو الدرس الذى نستفيده من تجربة المرحلة الناصرية ..

وأنه أيضًا دون المضمون الوطنى للنهوض ودون الاستقلالية السياسية ، لن يقوم عندنا نظام ديمقراطى، وهذا هو الدرس الذى نستفيده من ثورة سنة 1919 ؛ لأن هذه الثورة نجحت بقدر ما استطاعت أن تربط بين هدف الاستقلال الوطنى وتحرير الإرادة السياسية، وهدف البناء الديمقراطى، صحيح أن نجاحها لم يكن كاملاً، وإنما القدر المتيقن أنها بقدر ما استطاعت أن توحد بين هذين الهدفين نجحت، وأن نجاحها فى أيهما من حيث القدر كان مرتبطًا بنجاحها فى الجانب الآخر من حيث القدر أيضًا ..

أقصد هنا أن أشير إلى أن دعوة الديمقراطية التى نلتقى جميعًا حولها اليوم، لابد أن تكون ذات مضمون استقلالى، وأنها مرتبطة ارتباطًا لا ينفصم بتحرير الإرادة السياسية الرسمية من النفوذ الأجنبى عليها، وأنها قد تكون مرتبطة بالأسس التى يتحقق بها الأمن القومى للجماعة السياسية فى مصر .

*** تحدثنا عن الأبعاد السياسية والاقتصادية لإخفاقات النهضة، لكننا لم نتحدث بعد عن الأثر الثقافى؟**

- من ناحية الأثر الثقافى ، أظن أن هناك قدرًا من التراكم فى النهضة الثقافية مستمرًا، ولا أظن أنه حدث إخفاق، لكن وجوه الإخفاق الكثيرة ستجدها فى البنى المؤسسية، حيث حدث تشخيص وتفكك بشكل كبير جدًا وتدمير للبنية الإدارية.

من ناحية الصناعات، ننظر إلى التدمير الذى لحق بصناعات محمد على فى عهد عباس وسعيد ثم إسماعيل ، وأتصور أن النهضة الصناعية التى عرفناها منذ الخمسينيات حتى منتصف السبعينيات قد لحقها تدمير مشابه فى الربع قرن الأخير ..

التعليم ومؤسساته لحقها ما لحق غيرها من مؤسسات المجتمع من وهن وضعف .. ولكن من الناحية الثقافية العامة ، لا أظن أن النهضة الثقافية التى حدثت على مدى القرن العشرين وما قبله قد أخفقت أو دمرت .. هى باقية وصالحة لأن نستعيد بناءها بصورة أحسن مما كانت عليه فى الماضى والآن .

*** تحتاج هذه المسألة لشىء من التفصيل .**

- فى ربع القرن الأخير ، حدث إضعاف فى المستويات العلمية الخاصة بالعلوم الصناعية والطبيعية وغيرها ؛ بسبب الإضعاف الذى حدث فى الصناعات المختلفة، إنما بالنسبة للإنسانيات وعلومها، فلايزال فى المجتمع من يحملها ويحمل تراكمها القديم، ويستطيع بهذا التراكم أن يبنى المؤسسات من جديد ويعيد تركيبة المؤسسات بشكل أكفأ ..

على سبيل المثال ، كان فى الأزهر مدرسة الفكر المحافظ ومدرسة التجديد، وكانت المدرسة الأولى تتمسك بالفكر القديم ، وتدافع فى الوقت نفسه عن الاستقلالية العقيدية، وكانت مدرسة التجديد تؤكد مجالات التجديد فى الفكر الإسلامى، ولم تكن مهمته المحافظة على الاستقلالية العقيدية، ومع نهاية القرن العشرين أكاد أقول إن الاتجاهين توحّدَا، هذا كان تطورًا لصالح الفكر الإسلامى عمومًا ؛ إذ أصبح ثابت الجذور وقادرًا على التجدد الذاتى ..

من ناحية ثانية ، فإن الفكر الوافد كان يشكو شيئًا من الانبهار الشديد بتجارب الغرب وشطحاته الفكرية، ولا يرى كثيرًا الفروق بين التجربة التاريخية فى الغرب والتجربة عندنا، ولا الفروق بين السياق الفكرى عندنا أو فى الغرب ومع الوقت بدأ الاتجاه الغالب فيه ذوو التفكير الوافد يتعايشون مع مشاكل المجتمع أكثر مما كانوا ذى قبل .. ولأن هذا إيجابى، فإن جزءًا من الوافد تقوّض، وجزءًا من الموروث تجدد، وهذا تراكم إيجابى .

*** لكن هذا لا يقدم سوى جانب واحد من الصورة، فليس كل خلاف فكرى جرى عندنا حسم بهذه الطريقة، وبالذات فى العقود الثلاثة الأخيرة؟**

- هذا صحيح إلى حد كبير، فخلال العشرين سنة الماضية، أدير الصراع بما يؤكد الخلافات بين التيارات الفكرية المصرية وبعضها البعض، وأظن أن هذا كان مدبرًا لإلهائنا عن المشاكل الحقيقية التى تواجه بلادنا، انشغل المثقفون بخلافات فكرية داخلية، ولم ينتبهوا إلى أن المجتمع كله يسرق، والدولة كلها تسرق، وسياساتنا تؤول إلى القرار الأمريكى الذى سلمها للقرار الإسرائيلى .

*** ربما أن عملية التحديث تمت بشكل فوقى ؛ أى أن المجتمع لم يكن فى حالة نهضة، إنما كان هناك قرار «فوقى» بأن ثمة حاجة لنهضة، وبقى البون شاسعًا بين الجانبين، وبالتالى حين انتكست الدولة، انتكست النهضة .**

- الجانب الفوقى مشكلة تنظيمية أساسًا ، وهى تحتاج لمزيد من البحث فعلاً، فالملاحظ فعلاً أن الدولة المصرية بدأت تتشكل وفقًا لأسس الحداثة الغربية منذ القرن التاسع عشر، أما المجتمع الأهلى فلم يبدأ تشكيله وفقًا لأسس حداثية جديدة إلا بعد ذلك بجيلين، وهذا أدى إلى أن مصر الدولة فيها تقليدية قوية بحكم الجغرافيا السياسية، زاد على ذلك أنها حين أعيد بناؤها فى القرن التاسع عشر، فقد أعيد على أسس مستمدة من تنظيمات غربية، وهى طبعًا أكثر رشدًا وأكثر فاعلية وأكثر قدرة على استيعاب العمل الجماعى وتنظيمه، بجمع خبرات كثيرة وتقسيم للعمل بين هذه الخبرات .

*** يعنى لم يكن هناك توازن؟**

- بالتأكيد ، كانت هناك دولة مركزية تواجهها طرق صوفية وأوقاف ، تعتمد على إرادة فردية، ونقابات مهنية وحرفية تعتمد على قيادات فردية، ونظام للعمد

والمشايخ يعتمد على خبرات فردية، يعنى الدولة منذ القرن التاسع عشر استمر فيها المجتمع الأهلى « على قدمه » ، ولم يستطع أن يواجه قوة الدولة الحديثة ولا أن يوازنها..

ومع بدايات القرن العشرين، بدأت التنظيمات الحديثة فى القطاع الأهلى، النقابات العمالية، النقابات المهنية، واستكملت هذه التنظيمات هياكلها فى الأربعينيات من القرن العشرين، لكنها بقيت ضعيفة، أضعف كثيرًا مما وصلت إليه الدولة المركزية، وهذا الضعف مازال يلحقها للآن، وأظن أن غاية سعينا، هو أن نهتم بتقوية هذه التكوينات الأهلية، لكى تكون مجمعة لقواها الاجتماعية ومعبرة عنها ، وذات قرار مستقل يصدر عنها بعيدًا عن سيطرة الدولة ..

وأظن أن الأحزاب السياسية الموجودة لن تنجح فى تحقيق حراك شعبى حقيقى، إلا إذا استطاعت أن تساهم فى بناء هذه التكوينات ؛ لأنه يستحيل أن ينجح حزب فى جمع الناس أفرادًا، وإنما يجمعهم جماعات من خلال الجمعيات والنقابات وغير ذلك، وهذا نوع من أنواع النشاط على الأحزاب أن تقوم به سواء رضيت الدولة أو أبت، ومن الطبيعى أنها ستأبى ؛ لأنها تريد أن تؤكد انفرادها، لكن لن يتوازن مجتمعنا ويستقيم وضعه، إلا بالقيام بهذه المهمة الصعبة .

*** ألا يعطى الحراك السياسى والاجتماعى ، الذى شهدته مصر فى العامين الأخيرين مؤشرات على بدايات نهضة من نوع ما ؟**

- الحراك السياسى والاجتماعى يبشر بنجاح فعلاً ، متى ؟ لا أعرف، لكن لو قارنا بين حالة الحراك الحادثة الآن وما سبقها من جمود، سنجد أن هذا الحراك مهم جدًّا، وإذا استمر على هذا النحو، يمكن توقع أنه خلال سنتين أو ثلاث سيتغير المجتمع رغم كل القمع الذى يحدث ..

وعلينا أن ننتبه لأمر مهم، وهو أن جهاز إدارة الدولة المصرية رغم السلطات القاهرة التى تربطه من أعلى لأسفل بشكل هرمى، فإنه فى النهاية يتكون من عينة عشوائية من الشعب المصرى بريفه وحضره، بمسلميه ومسيحييه، المتعلمين منه من كافة الأنواع، وهو فى النهاية ينعكس فى داخله ما يسرى فى المجتمع المصرى من وجوه السخط والغضب وغير ذلك ..

وأنا هنا أفرق بين أجهزة إدارة الدولة، والأفراد القلائل المتربعين على مراكز اتخاذ القرار الرسمى فيها .

* * *

جمال الغيطانى

الدب هو المعادل الموضوعى لفكرة الفناء والعدم

ولد جمال الغيطانى فى «جهينة» بمحافظة سوهاج عام 1945 .. لكنه عاش سنوات الطفولة والتكوين الأولى فى حى الجمالية بالقاهرة .. حيث اضطر الأب وهو «ساعى» بسيط بمصلحة حكومية إلى النزوح للعاصمة .. وفى غرفة فوق سطوح .. عاشت الأسرة النازحة من صعيد مصر .

وفى جوار الأزهر وسيدنا الحسين ووسط حشود المصريين العائشين على سواعدهم .. تشكلت الذاكرة البصرية للطفل الذى قدر له فيما بعد أن يؤدى دورًا مهمًّا فى مسيرة الرواية المصرية والعربية المعاصرة .. وأن يشارك نفرًا من الموهوبين فى مثل سنه .. نطلق عليهم الآن جيل الستينيات الأدبى .. فى تحقيق قفزة مؤثرة فى هذا السياق .

حصل الغيطانى على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب .. وقبلها حاز جوائز أخرى عديدة عربية وأجنبية، من بينها جائزة سلطان العويس عام 1997 .. وسام الاستحقاق الفرنسى من طبقة فارس .. ويتولى الآن رئاسة تحرير جريدة «أخبار الأدب» .. الأسبوعية العربية الوحيدة المتخصصة فى الأدب .

أصدر الغيطانى عددًا كبيرًا من الروايات والمجموعات القصصية ، ربما كانت أشهرها «الزينى بركات» لكن إبداعاته تضم أيضًا «أوراق شاب عاش منذ ألف عام»، «سفر البنيان»، «التجليات»، «حكايات المؤسسة»، «رسالة فى الصبابة والوجد»، «رسالة البصائر والمصائر»، و«وقائع حارة الزعفرانى»، «شطح المدينة»، «متون الأهرام» وأعمال أخرى عديدة . فى هذا الحوار نتوقف عند محطات عديدة فى مسيرة الأديب الكبير : التكوين، القراءات والمؤثرات الأولى، السجن والاعتقال، العمل بالصحافة وخصوصًا كمراسل حربى على الجبهة المصرية، المواجهات الثقافية والأدبية وغيرها ؛ مما صاغ وعيه وحدد هيئته على الصورة التى نراها . وإلى تفاصيل الحوار :

*** من «جهينة» حيث ولدت إلى الجمالية .. سنوات الطفولة والصبا .. ما الذى تذكره عن هذه السنوات «الصعبة» وما الذى يتراءى فيها من صور؟**

- أحيانًا حين كنت أمر بلحظة تكريم ما، أسأل نفسى عن العلاقة بين الطفل الذى نشأ فى الجمالية وهذا الشخص الذى يتم تكريمه .. يعنى لو عدت للبداية وفحصت ما جرى خلال هذا المشوار الذى يبلغ الآن 62 سنة بالتأكيد ستجد معجزة لماذا؟ الوالد كان رجلاً فقيرًا بسيطًا ولأنه كان كذلك فكان دائمًا ما يردد على مسامعنا أنه لا يريد لنا أن نقاسى فى حياتنا ما قاساه هو فى حياته وكان الحل الوحيد الذى رآه كى نتجنب هذه المعاناة هو أن نتعلم، كانت ظروفنا بالغة الصعوبة، وكنا جميعًا نسكن فى غرفة واحدة فوق سطوح بدرب الطبلاوى ، وقد جعلنا هذا الضيق فى المكان شبه معزولين عن الجيران لسبب بسيط هو : أين سيجلس الضيوف إذا زارونا فى بيتنا ؟ قد تكون هذه العزلة إضافة إلى إصراره على تعليمنا ، ثم قدرته المبهرة على الحكى هى التى حببت إلىّ القراءة، كان حريصًا على قراءة جريدة «المصرى» ، وهى الجريدة الوفدية الأولى فى ذلك الزمن ، ولأنه

كان يقرأ بصعوبة فقد كان يمر على الحروف بإصبعه ومن خلال طريقته تلك، حفظت شكل الحروف قبل أن أدخل المدرسة ..

فى أحد أيام 1951م ، أذكر أنه اصطحبنى إلى مدرسة عبد الرحمن كتخدا ، وكانت مصاريفها خمسين قرشًا وهو مبلغ كان يمثل له آنذاك معاناة حقيقية دخلت المدرسة ، وبدأت رحلتى التعليمية .. كان هو مصرًّا على أن أستمر حتى أتخرج فى الجامعة لكننى بعد حصولى على الشهادة الإعدادية شعرت أن استمرارى سيجلب له مزيدًا من الإرهاق ؛ خصوصًا وأننا كنا أربعة أخوة بينهم واحد فقط متفوق أعفى أبى من مصروفات دراسته ؛ حيث كان يدرس بمدرسة المتفوقين .. المهم أننى شعرت بضرورة اختصار الطريق كى أخفف عنه عبء تعليمى حتى النهاية وأساعده فى الإنفاق وهو لم يرتح ، إلا بعد أن أقنعته بأننى سأقوم بعمل معادلة للشهادة المتوسطة بعد ذلك وأدخل الجامعة ، وبالفعل دخلت مدرسة الصنائع والفنون ، وكانت لدىّ رغبة أن أدخل قسم النسيج ولحسن الحظ أنهم بسبب مجموعى ألحقونى بقسم السجاد ، حيث درست فيه السجاد وصباغة الألوان وقد كانت هذه الدراسة أكثر من رائعة بالنسبة لى ؛ لأننا حين كنا ندرس نوعًا من السجاد يرتبط بمدينة معينة ، فقد كنا نتعرف على هذه المدينة من كافة الزوايا تاريخها وموقعها ونشاط ساكنيها .. إلخ . كنت الأول على الدبلوم ، والتحقت بكلية الفنون التطبيقية .

*** قبل أن نكمل مشوارك الجامعى ، نريد أن نستعيد فترة التكوين الأولى، يعنى بداية تعرفك على أغلفة الكتب والقراءات الأولى .**

- هذه الفترة بدأت مبكرًا .. كنت فى السادسة حين اكتشفت القراءة وأبى ، رغم أنه لم يكن قارئًا بالمعنى الذى نعرفه اليوم إلا أنه كان يحفظ سير الأبطال والملاحم الشعبية كان يحفظ الهلالية على سبيل المثال ، وكان لديه قدر من الحكمة وميراث

ثقافى تم تحصيله من الحياة وتجاربها جعلته مرجعًا لأهل بلدته فى كثير من الأمور ، وهو لم يكن فردًا فى هذه المسألة فكثيرون من المصريين البسطاء يملكون كنوزًا من الحكمة التى أتاحتها لهم تجربة الحياة . المهم أننى بدأت أكتشف القراءة فى هذه السن .. كانت معى عيدية العيد (5 قروش) وجدت كتابًا لدى بائع فى ميدان الحسين عنوانه «البؤساء» .. بهرنى وبدأ شغفى بالقراءة وبحثى عن مصادر الكتب؛ لأغذى هذا الشغف .. بدأت أتجه إلى «تجار الورق» الذين يبيعون الصحف القديمة وفى هذه المحلات وجدت نفائس ، يعنى وجدت مثلاً السنوات الخمس الأولى من جريدة «المؤيد» التى كان يصدرها الشيخ على يوسف ، وجدت فيها أعدادًا هائلة من مجلة «المصور» ، وكتبًا نادرة .. كان هؤلاء التجار ورصيف الأزهر هما مصدرى لاقتناء ما أريد من الكتب والدوريات وإشباع نهمى للقراءة، ويجب هنا أن أشير إلى أن القاهرة القديمة كانت حالة ثقافية بسبب الأزهر وبعض المكتبات القديمة مازالت موجودة حتى الآن هناك وكثيرًا ما وجدت نفائس الكتب على الرصيف وأحيانًا كنت «أؤجر» الكتب التى لا أستطيع شراءها كنت أتعامل مع بائع كتب اسمه الشيخ تهامى .. أعطيه «تعريفة» فيعطينى الكتاب ويوصينى بالحفاظ عليه ، ثم أرده له بعد أيام وأستعير منه كتابًا آخر وهكذا كانت القراءة هى البديل الرائع للواقع الصعب الذى كنت أعيشه ، وقد غذت الروايات خيالى بدرجة كبيرة جدًّا ، فكنت أحلم باكتشاف مدينة تحت الأرض وأحاكى فى أحلامى تلك العوالم السحرية لألف ليلة وليلة كما كنت أقرأها آنذاك، ثم أحكى لأمى هذه الخيالات باعتبارها عوالم حقيقية فكانت تتظاهر بتصديقى .

فى هذه المرحلة بهرت باللص الذكى «أرسين لوبين» ، وحين زرت باريس بعد ذلك ، اكتشفت أن المؤلف الأصلى لم يكتب سوى 5 روايات وكثير من الروايات التى صدرت تحكى عن أرسين لوبين هى فى الحقيقة من تأليف المترجمين ، وكانت قراءاتى لأرسين لوبين هى بداية علاقتى بالاشتراكية ، يعنى أنا من أسرة فقيرة وأرسين لوبين لص يأخذ من الأغنياء ويعطى للفقراء فكان تأثيره علىَّ كبيرًا جدًّا .

*** هل كان أرسين لوبين بداية لقراءات جديدة؟**

- أنا بدأت أقرأ في اتجاهين : اتجاه الروايات الحديثة وهنا أذكر بالفضل سلسلة روايات عالمية ، التي كانت تقدم ملخصات الروايات العالمية الكبرى .. ديستوفسكي، إميل زولا، تولستوى، قرأت هؤلاء في هذه الملخصات إضافة إلى روايات أخرى كانت تتناول سيرة نبلاء الثورة الفرنسية، ورغم فقرى فقد كنت متعاطفًا مع هؤلاء النبلاء، كان هذا هو العصر الذهبى للقراءة بالنسبة لى ، ومازلت أذكر كيف أننى بعد أن قرأت أحدب نوتردام كنت أمشى على طريقته لمدة ثلاثة أيام .

*** كما يبدو فإن القراءة فى هذه المرحلة كانت تلقائية بلا تنظيم أو منهج .**

- هذا صحيح وهذه التلقائية هى التى شكلت تكوينى الثقافى بشكل كبير .. كنت أقرأ بعين الأدب العالمى وبعين أخرى أقرأ التراث .. يعنى كنت أقرأ «الأغانى» للأصفهانى والعقد الفريد لابن عبدربه والبخلاء للجاحظ فى الوقت الذى كنت أقرأ فيه روائع الأدب العالمى ، ودون أن أدرى وضعت هذه القراءات بذور التكوين.

*** هذه مرحلة طفولة أضعتها فى القراءة على هذا النحو ..**

- أنا لم أعرف الطفولة بالمعنى الذى عرفه أقرانى فى هذه المرحلة حتى فى شبابى كان لدى شعور أننى أكبر سنًّا من زملائى ؛ بسبب انشغالى بالقراءة وبالهموم الكبرى يعنى منذ البداية كنت مشغولاً بما يحدث فى العالم وبكيفية تغييره ، واكتشفنا بعد مرور العمر أن العالم هو الذى غيَّرنا ولسنا نحن من غيره .. كنت أذهب إلى دار الكتب بصحبة موظف قريب لى ، وفى دار الكتب قرأت كتبًا لم أكن أجدها فى الأزهر، كما أننى لم أكن أستطيع شراءها بطبيعة الحال ، والمدهش أن دار الكتب فى ذلك الوقت كانت بها حيوية كبيرة جدًّا فى «التزويد» يعنى كان الكتاب يصدر

فى دمشق أو بيروت ، ونجده بعد أسبوع فى دار الكتب ، ومن خلال ما قرأته آنذاك تعلقت بديستوفسكى ونجيب محفوظ .

*** هل كان نجيب محفوظ هو أول من قرأت له من أدباء جيله؟**

- لا ، قرأت قبله أمين يوسف غراب ويوسف السباعى .. لكنهما لم يتركا فىَّ أثرًا ما ، ثم فوجئت بكاتب يكتب عن المنطقة التى أعيش فيها «قصر الشوق» ، فلما قرأتها وجدت كاتبًا على نفس مستوى الكتاب العالميين ، إضافة إلى أنه كان يجعلنى أرى المكان بعين أخرى .

*** فى هذه المرحلة كان نجم يوسف إدريس بدأ فى البزوغ بقوة وكثيرون وقعوا تحت تأثيره . ألم يحدث ذلك معك؟**

- أنا لم أقرأ يوسف إدريس إلا متأخرًا ولم أقع تحت سطوته أبدًا ؛ لأننى منذ البداية لم أكن أعد نفسى كاتبًا للقصة القصيرة بدأت بالرواية ، وإن كنت كتبت القصة القصيرة فيما بعد حتى أتمكن من النشر ؛ لأن الصحف لا تعطى مساحات لرواية .. لكنها يمكن أن تعطى مساحة لقصة قصيرة وعلاقتى بالقصة القصيرة غريبة بعض الشىء مثل النجار ، وهو يسوى الخشب ليصنع بابا أو شباكًا أو غيره تتبقى «نشارة» .. هذا ما يحدث معى حين أكتب رواية يتبقى بعد كتابة الرواية أفكار أحولها إلى قصص قصيرة أقول هذا برغم أن لى مجموعات قصصية أعتز بها واكتشفت بعد سنوات طويلة ، أن الروايات تبدأ عندى قصصًا قصيرة مثلاً «الزينى بركات» ستجد بذورها فى هداية أهل الورى لما جرى فى المقشرة وإتحاف الزمان ، وهذه هى البروفات التى مهدت لرواية «الزينى بركات» وكذلك «خطط الغيطانى» ستجدها فى «ذكر ما جرى» .. وقائع حارة الزعفرانى ستجدها فى قصة «وقائع حارة الطبلاوى» ، وهكذا ..

يعنى القصة القصيرة بالنسبة لى لم تأت من سكة الأدب العربى الحديث .. كنت دائمًا أسأل نفسى : لماذا لم يتم التأسيس فى الأدب العربى الحديث على الأشكال القديمة ؟! كان يشغلنى منذ البداية أننى أريد أن أكتب شيئًا لم يكتب أحد مثله ، وكنت أقرأ فى النقد أنه ينبغى ألاَّ يكون المؤلف موجودًا فى روايته ، وفى الوقت نفسه أقرأ الجاحظ فى البخلاء أو الحيوان ، فأجده حاضرًا بقوة فى النص فهو يوقف السرد ويورد شعرًا أو مثالاً أو يحكى حادثة جرت له هو .. هذه هى ذروة الحداثة يعنى الحداثة فى الغرب دعت إلى تجاوز الأشكال التقليدية للنص ، وهذا حادث فى الأدب العربى منذ وقت مبكر جدًّا ، وأنا لا أقول هذا بمنطق أننا عرفنا كل شىء قبل الآخرين . وإنما للتنبيه إلى أنه حدثت قطيعة فى الأدب العربى ، بسبب السعى للتأسيس على الأشكال الغربية . الوحيد الذى انتبه وأقام قنطرة مع هذا التراث البديع ، كان المويلحى فى «حديث عيسى بن هشام» .. برأيى هو الخطوة الصحيحة فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ؛ للانتقال من الأدب العربى القديم وتزاوجه بالحديث ..

لكن حين جاء الدكتور هيكل وكتب «زينب» ، ثم كتب الحكيم «عودة الروح» وجاء نجيب محفوظ وأسس على الغرب فاتخذت المسألة مسارًا مختلفًا .. هنا لابد أن أشير إلى أن الأستاذ نجيب محفوظ استفاد من تجربة جيل الستينيات كان عنده قدر كبير من الحيوية والتفاعل مع هذا الجيل .. تأمل مثلاً ما كتبه فى الحرافيش فى أوائل السبعينيات ، ثم رحلة ابن فطومة وغيرها وصولاً إلى أصداء السيرة الذاتية .. إذًا كان واضحًا أنه فى الثلاثين سنة الأخيرة بدأ ينتبه من خلال ما أنتجه جيل الستينيات سواء فى مصر أو فى بلدان عربية أخرى إلى فكرة التأسيس على القديم ، وهو نفسه يقول إنه حين كان يستعد لكتابة الثلاثية بدأ يفتش فى الآداب العالمية عن الشكل الذى يمكن أن يستوعب هذا النوع من الكتابة ، وكذلك فى الأدب العربى القديم..

مسألة القلق فى اتجاه وصل السرد الحديث بالقديم كانت عندى بشكل تلقائى أساسها هو البحث عن مساحة أكبر من حرية التعبير .. يعنى مازلت أذكر أننى حين بدأت كتابة القصة القصيرة فى 1958 ، ظهر كتاب فى مكتبة الأنجلو فذهبت لشرائه وهو كتاب «فن القصة القصيرة» للدكتور رشاد رشدى قرأته بدقة وتفحصت النماذج التطبيقية التى أوردها الكتاب ، والتى تحدد شكل كتابة القصة وهو الشكل الإدريسى فى مراحله الأولى : بداية ثم عقدة ، ثم لحظة تنوير وعرض نماذج من تشيكوف وموباسان وديجول ، والنتيجة التى خرجت بها بعد قراءة الكتاب هى أن أسوأ شيء يمكن أن يضر بالكاتب ضررًا بالغًا هو أن يقرأ كيف تكتب رواية .. كيف تكتب قصة .. كيف تكتب مسرحية إذا أردت أن تكتب رواية ، عليك أن تقرأ روايات .. هذه الكتابة النظرية تقرأ من باب الإحاطة بالشيء وكثيرًا مما كتبت فى هذه المرحلة لم أكن راضيًا عنه تمامًا فاضطررت أن أنحيه جانبًا إلى أن كتبت بعد هزيمة يونيو 67 «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» كنت كتبتها و لا أعرف ماذا أفعل بها .

*** كانت هذه هى البداية الفعلية .**

- بالضبط ، وحين أعطيتها للأديب عبد الفتاح الجمل فى جريدة «المساء» ، وقف على مكتبه يرقص وبدأ يمتدح فى القصة بطريقة أشعرتنى أنها فتح جديد فى عالم القصة .. بعد ذلك كتبت «المقشرة» وقرأتها ليوسف القعيد وإسماعيل العادلى - رحمه الله - فإذا بهما يبديان إعجابهما الشديد بها باعتبارها اتجاهًا جديدًا فى كتابة القصة .. وكنت أتصور أنهما يجاملانى كصديقين حتى خرجت «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» ، وأحدثت ما يشبه الانفجار فى الحياة الأدبية ، ووقتها كانت الحياة الأدبية تفرز الجيد من الرديء وتحتفى بالموهبة إلى أقصى حد ، وهو الأمر الذى جرى مع يوسف إدريس مثلاً حين نشر مجموعته «أرخص ليالى» وعُمِّدَ

كاتبًا كبيرًا .. منذ اللحظة الأولى . كتب عنه طه حسين ، كان هناك ضمير أدبى وأسماء لها مصداقية كبيرة لا يمكن التشكيك فيها . ومن حسن حظى أننى لحقت هذا المناخ الذى كان سائدًا فى الحياة الثقافية المصرية ، وكنت سعيدًا بردود الأفعال على مجموعتى تلك .. يعنى أصحو من النوم ، فأجد مقالاً للطيفة الزيات فى الأهرام يشيد بها ويوم آخر أجد الدكتور على الراعى يكتب دراسة نقدية عنها ، ومازلت أذكر يوم أن قرأ صديقى علاء الديب المجموعة واحتفاءه الشديد بها .. أذكر أيضًا أن الأستاذ محمود أمين العالم كتب فى يومياته بالأخبار عنى ، ومما قاله إننى اكتشفت شكلاً جديدًا للقصة ، وطلبت مقابلته فعرض علىَّ أن أعمل بمؤسسة «أخبار اليوم» .

*** ماذا كنت تعمل وقتها ؟**

- كنت أعمل سكرتيرًا للجمعية التعاونية لصناع خان الخليلى ، وهذه فترة خصبة جدًّا فى حياتى لم تظهر فى أى عمل أدبى .. لكننى فى هذه الفترة عاصرت انهيار الخان فى 1957 ، ولعبت دورًا فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه منه ..

*** ما الذى تركته فيك هذه الفترة من أثر ؟**

- لعلك تعرف أن خان الخليلى عبارة عن مجمع فنانين .. هو الآن تحدث فيه تغيرات كبيرة بسبب غزو البضاعة الصينية والبضاعة المقلدة من بلاد أخرى .. أنا عشت هذه الفترة وسط مبدعين ، نحن نسميهم «صنايعية» وهنا أريد أن أنبه إلى مسألة مهمة حين تم إنشاء مدرسة روض الفرج العظيمة فى عصر محمد على ، كانوا يسمونها مدرسة الفنون والصنائع ، وارتبطت كلمة «الصنائع» عند العامة بلفظ «صنايعى» ، فلم يعد هؤلاء فنانين وإنما صنايعية ، وأنا كنت أعرف واحدًا من هؤلاء .. نقاش نحاس اسمه عم مصطفى ، لم يكن أمامه أبدًا نقش مسبق يحاكيه.. كان يذهب إلى مسجد السلطان حسن أو برقوق وينام على ظهره ناظرًا للسقف

ويتشبع بالأشكال ، وحين يعود إلى ورشته يحاول أن يخرج ما تشبع بـه .. وللعلـم إن عم مصطفى ظل يمارس النقش على النحاس حتـى راح بـصره .. كـان هنـاك أيضًا الحاج سعيد ، كان يختفى فترة ، ثم حين أسأله عـن سـبب اختفائـه يقـول لى «بَخَلَّقْ» يعنى يقوم بعمل أشكال جديدة ، وكثيرًا ما كنت أراه ماشـيًا وقـد «خبـأ شيئًا» ما بين طيات ملابسه فأعرف أنه يخبئ شكلاً جديدًا سيقوم بتنفيـذه ، لكنـه يستره عن عيون الصنايعية المنافسين ..

هذه النماذج كانت موجودة فى النقش على الخـشب، فى الفـضة، فى الـذهب ... إلخ . المتبقى من هؤلاء الآن ليس سوى اثنين أو ثلاثة .. هذه الفترة كانت غنية جدًّا بالنسبة لى ، ورأيت بعينى فنانين عظماء فى هذا الخان ، ورأيت كيف يعيشون حيـاتهم ببساطة وأريحية كان شعارهم «اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب» ، وأذكر مـن هؤلاء واحدًا اسمه محمود كايرو كان يصنع شنط جلد جاءتـه طلبيـة ، كـسب منهـا مائة جنيه وهو مبلغ كبير بمعايير هذه الفـترة ، ومـا إن وضـع المبلـغ فى جيبـه حتـى «عزم» جمهور سينما أوبرا كله على مشروبات باردة وأنفق المائة جنيه عن آخرها .

*** هذه الشخصيات وإن لم تظهر فى أعمالك إلا أنها بالتأكيد تركت آثارًا ، وأضـافت خبرات عريضة .**

- هذه الشخصيات التى عايشتها سواء فى خان الخليلى أو فى الجماليـة كانـت مليئـة بالثقافة والحكمة والإبداع .. الأمر الثانى أننى منـذ البدايـة كنـت أطـرح سـؤال الزمن، وشغلتنى أيضًا الأماكن ، وكان لابد أن يمضـى وقت طويل حتى أعـرف أن المكان هو الوجـه الآخـر للزمان ، هذا الاهتمام بالزمـان كاد يصيبنى فى فـترة من الفترات بـ «العصابية»، أنا أزعم أننى الآن فى حالة من الـسلام مـع نفـسى .. ربما يكون مصدرها هذه الفكرة التقليدية عن أن الإنسان حينما يتقـدم فى العمـر ، فإنه يهيئ نفسه للنهاية، لكن فكرة الزمن لفـترة طويلـة - مازالـت - هـى شـغلى

الشاغل ، وفى لحظة ما تتساءل كيف أفلت كل هذا العمر مثل الماء من بين أصابعك ؟!

الكتابة قد لا تجيب عن السؤال .. لكنها تحقق المعادل الموضوعى له ؛ لأن الكتابة ضد الفناء مثل الذى يبنى أو ينقش أو ينحت، أنا دائمًا أقول إن الإبداع فعل ضد العدم، ولم أكن مشغولاً فقط بحكى ما يجرى من أحداث ، وإنما كنت مشغولاً بأسئلة كبرى .. ولعلك تلاحظ أننى فى الفترة الأخيرة أكتب نصوصًا تنطوى على قدر كبير من التأمل مثلاً «سفر البنيان»، «متون الأهرام»، «المسافرخانة» هذه الفكرة .. فكرة الزمن ؛ إضافة إلى فكرة العدالة الاجتماعية والحلم بوطن أجمل كان أكثر ما شغلنى ، إضافة إلى أننى من جيل كان همه الخاص هو الهم العام ، يعنى هموم الوطن كانت تؤرقنا أكثر مما تؤرقنا همومنا الشخصية بعكس ما يجرى الآن .

*** مررنا سريعًا على فترة المعتقل ، وأتصور أن تجربة السجن مثل تجارب الحب والحرب لا يمكن أن تكتب عنها صادقًا ، ما لم تكن عايشتها . كيف دخلت المعتقل؟**

- يبدو لى الآن أن جيل الستينيات كله أعتقل مرة واحدة ، يعنى حين تتأمل الأسماء التى اعتقلت فى 4 أكتوبر 64 ستجد فيها الأبنودى وصلاح عيسى وسيد حجاب وصبرى حافظ ويحيى الطاهر عبدالله وغالب هلسا وآخرين، كنا متهمين بالانتماء إلى تنظيم صغير اسمه «و ش» ، أى وحدة الشيوعيين، هذا التنظيم كان الأب الروحى له الناقد إبراهيم فتحى وكان تنظيمًا على يسار التنظيمات الشيوعية الكبرى .. تم التحقيق معنا فى القلعة ، وفى هذا الوقت كان الحزب الشيوعى المصرى وحركة «حدتو» حلاّ نفسيهما ودخل أفرادهما الاتحاد الاشتراكى ، بعد مفاوضات طويلة بين الوحدات الرئيسية فى الحركة الشيوعية المصرية والرئيس عبد الناصر، وحين اعتقلنا نحن اعتقل بالتوازى معنا تنظيم كان يسمى

«القوميون العرب» ويمثله شخص اسمه سمير حمزة ، كان أمين الشباب والاتحاد الاشتراكى ، وصورت المسألة على أنه كانت هناك محاولة لقلب نظام الحكم .. مجموعة المثقفين الذين أشرت إليهم فى تنظيمنا هؤلاء لا يمكنهم حتى أن يقلبوا درب الطبلاوى وليس نظام الحكم .

*** لكنكم كنتم مؤمنين بالثورة وتوجهاتها ؛ خصوصًا ما يتعلق بمسألة العدالة الاجتماعية !**

- علاقتنا بالثورة كانت معقدة .. وحتى الآن لم يعترف أحدنا بحكاية التنظيم وقد عُذبنا وأهنا ، وأنا فى الحقيقة لا أحب أن أتكلم عن هذه المرحلة ؛ لأنه بعد وفاة عبد الناصر حدثت متاجرة بمسألة الاعتقالات والتعذيب ، وكان الهدف الرئيسى هو انتزاع اعترافات بانتمائنا إلى هذا التنظيم ، وللتاريخ لابد أن أقول أن بيننا ثلاثة كانوا هم الأكثر تعرضًا للتعذيب لدرجة أن أحدهم كان يتم تعليقه لأيام ثلاثة متتالية مثل (الخروف) هم محمد عبد الرسول وهو شخص غير معروف على نطاق واسع ، وكان زميلاً لصلاح عيسى فى مدرسة الخدمة الاجتماعية ، وأحمد العزبى وكان صحفيًا بالجمهورية - رحمه الله - وصلاح عيسى نفسه .

*** مكثتم بالسجن 10 شهور ..**

- خرجنا فى مارس 1965 يعنى 6 شهور تقريبًا، خرجنا فى اللحظة التى لمست فيها قدما جان بول سارتر مطار القاهرة وأريد أن أقول هنا أمرًا قد يبدو غريبًا لكن هذا ما حدث معى على الأقل، أكثر ما يؤلم هو أن تسمع صراخ شخص يتم تعذيبه ، لكن حين يتم تعذيبك أنت فإنك تستسلم لما يجرى ، فليس هناك أسوأ من ذلك .. وفى لحظة معينة قد يتخذ الإنسان قرارًا بأنه سيموت ، وبالتالى لا يشعر بالتعذيب لكن من أكثر الأشياء التى أثرت فى نفسى وبقى أثرها حتى الآن هى أن الضابط الذى كان يحقق معى سبَّ أمى، كانت الوسيلة أن تجلس على

كرسى خشب وخلفك عدد من المخبرين يمسكون «شوم» فيضربوك إذا أشار لهم فى أى لحظة ، وحين شتم أمى شعرت بقهر شديد واغرورقت عيناى بالدموع، وحتى هذه اللحظة لم أغفر لهذا الشخص إهانته ، وظللت أتتبعه فى المناصب التى تولاها وهو ضابط فى أمن الدولة، أخرجوه منها بعد مظاهرات 18 و 19 يناير 1977 وتولى شرطة المسطحات المائية ، وكنت أرسل له شتائم مع أى أحد يعرفه ولو رأيته سأشتمه ؛ لأن هذا ثأرٌ بينى وبينه.

*** وهل كانت لك علاقة فعلاً بهذا التنظيم ؟ وهل كنتم تخططون لشىء ما؟**

- وقت أن اعتقلونى ، لم تكن لى أى علاقة بالتنظيم .. كنا قبلها بعام تقريبًا قد تفرقنا وتركت هذا التنظيم ؛ لأننى اكتشفت أنه لا يوجد تنظيم ولا شىء .. لم يكن شيئًا حقيقيًّا وكذلك جميع زملائى .

*** كيف إذًا تم الزج بكم فى هذه القصة؟**

- كان هناك أديب يكتب قصة بالعامية ، وكان يمت بصلة قرابة للواء حسن طلعت داود ، مدير المباحث العامة فى ذلك الوقت، أحب فتاة واحتاج إلى 150 جنيهًا ليتزوجها فقال له حسن طلعت ، بعد أن عرف بأزمته : أنا أعرف إنك على علاقة بمجموعة مثقفين يعملون ضد النظام، أعطنى أسماءهم وسأعطيك المائة وخمسين جنيهًا ، وهذا ما حدث بالفعل وهكذا دخلنا المعتقل .

*** هل تتذكر اسمه؟**

- ربنا يرحمه ويغفر له .. لكن من المفارقات الغريبة أن كل واحد من المعتقلين هؤلاء صدر له قرار جمهورى موقع من الرئيس عبد الناصر بالفصل من العمل ، وكان أشد من عانى منا هو الكاتب الكبير صلاح عيسى ، وهو واحد ممن أثروا فى مسيرتى جدًّا ، وكان صاحب فضل علىَّ لا يمكن إنكاره ، وأنا أحترمه كثيرًا حتى وإن اختلفت معه فى بعض المواقف .

*** قلت إن موقفكم من عبد الناصر كان معقدًا .**

- أنا أشبه خلافنا مع عبد الناصر بالخلاف مع فتوة ، يريد أن يقيم العدل فى الحارة بالقوة ، وأنت ترى أن ما يقيمه من عدل ليس كافيًا .. هكذا كنا نرى أن الاشتراكية لم تكن كافية .. كنا نريد اشتراكية أكثر .

*** ألم يأت فى ذهنك بعد الاعتقال أن ثمة جناحًا آخر لتستوى الأمور هو الحريات السياسية؟**

- أنا رأيى أن ما حققه عبد الناصر على صعيد العدل الاجتماعى كان جيدًا ، لكن ما جرى خلال الستينيات من اعتقالات وكبت وقمع للآراء لا يمكن تبريره، لكن حين جاء السادات بعد ذلك بدا لنا ما جرى فى أيام عبد الناصر وكأنه يوتوبيا ؛ لأن السادات أطاح بفكرة العدالة الاجتماعية نهائيًا وفتح باب الفساد على مصراعيه ، فأصبح لزامًا علىَّ أن أدافع عن الفكرة الإيجابية التى تبناها عبد الناصر ودافع عنها .

*** لا يبدو من فترة التكوين أنه كان هناك برنامج من أى نوع ، سوى أنك تقرأ ما تحب .**

- هذا صحيح، فقد قررت فيما يتعلق بتكوينى الثقافى أن أتبع هواى، وساعدنى على هذا أننى بعد أن حصلت على الدبلوم، وبدأت فى الثامنة عشرة أعمل موظفًا بالتعاون الإنتاجى حيث صرت رسامًا متخصصًا فى السجاد، فوجدت أنى مستريح لهذه الوظيفة التى تتيح لى أن أكون نفسى بطريقة حرة ، أقرأ ما أريد وقتما أريد دون برنامج صارم، وبدأت أثقف نفسى فى السينما والفنون التشكيلية والموسيقى ، التى تمثل بالنسبة لى عشقًا دائمًا، وقد جربت أن أستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية لكنها لم «تخربش» داخلى، إلى أن وجّهنى القاص الراحل محمود البدوى إلى سماع إذاعة «اسطمبول» فارتبطت بالموسيقى التركية وعشقتها إلى أن

أتيح لى أن أتعرف على كبار الموسيقيين الأتراك والإيرانيين ، وقامت بيننا صداقات عميقة، فهم يرسلون لى إنتاجهم باستمرار .. والغريب أنك فى قاهرة الستينيات ، كان بوسعك أن تحصل على أى أسطوانة لأى موسيقى سواء أكانت حديثة أم قديمة، اليوم لا توجد فى القاهرة كلها مكتبة واحدة متخصصة فى الموسيقى، والمتاح فى بعض المكتبات أسطوانات تلبى حاجة السوق، بعكس ما تراه فى نيويورك أو باريس مثلاً، حيث يوجد بكل مكتبة قسم كبير متخصص لموسيقى العالم، تخيل أننى مثلاً كنت أبحث عن أغنية لمطرب اسمه محمد أمين ، عنوانها «نور العيون ياشاغلنى»، لم أجدها فى مصر وفوجئت بها فى نيويورك، تم طبعها فى اليونان وتصديرها إلى نيويورك .. للأسف نحن بلاد تهدر تراثها ، ولا تربى الأجيال الجديدة على التواصل مع القديم .

*** أريد أن نتحدث عن مرحلة ما بعد خروجك من المعتقل، حيث جرت هزيمة يونيو 1967 ، هل كنت تعتقد أن مصر يمكن أن تهزم فى مواجهة مع إسرائيل ؟**

– رغم كل الدعاية التى كانت تحاصرنا آنذاك، كنت أشعر أن هناك خللاً ما كنت أرجعه إلى نقص الحريات وغياب الديمقراطية، وقد كان وقع الهزيمة علينا مروعًا، وفى ظنى أن ما يجرى فى حياتنا الآن تعود آثاره إلى هزيمة 1967 وما لم نع ذلك فلن يكون بمقدورنا تجاوزه ..

حدثت بارقة فى 1973م ، لكنها لم تستمر، وبرأيى فإن ملحمة أكتوبر 73 لم تصل للأجيال الجديدة كما جرت أو حتى بصورة قريبة مما جرى ، رغم كل الأفلام التى أنتجت ورغم التغطيات الإعلامية التى جرت ؛ لأنه كانت هناك رغبة سريعة فى استثمار هذا الانتصار، ورغم اللهاث نحو إنهاء الصراع وإغلاق هذا الملف نهائيًا، لدرجة أنه فى إحدى السنوات ، وفى إطار الاحتفال بانتصار أكتوبر تمت التعمية على العلم الإسرائيلى وكأننا كنا نحارب خيال مآتة، فى الوقت الذى نواجه فيه دولة قائمة على الذاكرة ..

الشاهد أننا كنا فى 67 نشعر بخلل فى البنية، لكن كانت هناك مؤسسة واحدة لم نكن نعلم عنها شيئًا، فقط نراها فى استعراضات، وهذه المؤسسة كانت فى حالة غير جيدة ..

قبل الهزيمة ، كانت مصر تعيش حالة من الحماس والثقة المفرطة، وأذكر أننا تواعدنا صلاح عيسى وصبرى حافظ وزملاء آخرون أن نلتقى فى تل أبيب بعد أسبوع أو اثنين . كانت هناك ثقة شديدة جدًّا، وكان الإعلام يقوم بعملية شحن مستمرة، وحين أعلن البيان الأول متضمنًا إسقاط 86 طائرة، أخذتنى نوبة من الحماس وجريت على أمين عز الدين ، وهو واحد ممن أدُّوا دورًا مهمًّا فى حياتى ، وكان مستشارًا عماليًّا لمصر، ذهبت إليه أسأله عما يمكننى عمله، فقال لى يمكن أن تكتب لافتات لإثارة حماس الناس، وكتبت بالفعل عددًا كبيرًا من اللافتات ..

وحين عدت إلى الخان ، وكنت وقتها أعمل فى الجمعية التعاونية لصناع خان الخليلى ، لم أسمع فى الإذاعة أى خبر عن تقدم القوات المصرية ..

فى الساعة الثالثة ، كنت عائدًا للبيت فى درب الطبلاوى، فسمعت «أزيز» طائرة فوق مسجد سيدى مرزوق فإذا بى أرى طائرة ميراج إسرائيلية على ارتفاع منخفض، فاندهشت ما الذى جاء بهذه الطائرة إلى هنا فى قلب القاهرة، خصوصًا وأنه كان هناك إحساس لدى القاهريين أن الحرب بعيدة عنهم، فسيناء بعيدة، ثم أن جيشنا عظيم وقوى ولن يسمح لطائرات إسرائيلية بعبور الأجواء .. فكيف نفذت هذه الطائرة إلى هنا ..

بدأت أبحث فى الإذاعات، لا شيء عن الهزيمة، وإذاعة الـ B.B.C تتعرض لتشويش مستمر .. إلى أن سمعت بعد ثلاثة أيام من بدء الحرب أغنية «أم كلثوم» «مصر التى فى خاطرى» ، وحتى الآن فإن هذه الأغنية ترتبط عندى بهذه اللحظات العصيبة من الهزيمة والانكسار ..

وحتى حين أعلن أن الرئيس عبد الناصر سيلقى بيانًا مهمًّا، كنت أتوقع أنه سيعلن عن مفاجأة عسكرية تؤكد انتصارنا، فلم يكن أحد يتوقع أن عبد الناصر يمكن أن ينهزم، ومازلت أذكر حين خطب عبد الناصر من فوق منبر الأزهر عقب عدوان 56 ، كنت أجلس أمامه بصحبة أبى ، وكان عمرى وقتها 11 عامًا، كان بينى وبينه أقل من مترين وصوته يدوى فى أذنى : سنقاتل سنقاتل ..

وحين ألقى عبد الناصر خطاب التنحى ، لم نكن نملك تليفزيون، كانت العمارة كلها تشاهد الخطاب عند إحدى الجارات، كانت هى الوحيدة التى تملك تليفزيون، وحين رأيت عبد الناصر على الشاشة بهيئته تلك ، حدث لى انهيار ، كان وجهه ينطق بأن هناك مصيبة ..

وبمجرد أن أنهى خطابه، نزلت النساء إلى الشارع .. كان رد الفعل تلقائيًّا ولم ينظمه الاتحاد الاشتراكى ، الذى اعتبره كذبة كبيرة مثل الاتحاد القومى وصولاً إلى الحزب الوطنى، هذه مستنسخات لشئ واحد .. الحزب القادم من فوق .. يمكن الحزب الوطنى فى الفترة الأخيرة بدأ يعبر عن مصالح، ولكن بشكل عام هى فكرة الحزب السلطة، الذى هو أقرب إلى هيئة إدارية منه إلى حزب ..

منذ أعلن عبد الناصر خطاب التنحى لم نغادر الشارع، وبعد أن أعلن أنه عائد اجتمعنا فى بيت الأبنودى ، وكان سؤالنا هو ماذا نفعل الآن؟، كان معنا شاب فلسطينى اسمه مازن أبو غزالة، كان عائدًا للتو من مظاهرة انفعل بشدة وقال : ما فيش فايدة، لازم كلنا نروح الجبهة، بعد شهرين قرأت خبر استشهاده ضمن مجموعة من الفدائيين فى الأراضى المحتلة، وكان أحد الأمور الإيجابية التى جرت فى أعقاب النكسة هى انطلاق الفدائيين فى مواجهة الاحتلال، وللأسف صار الفلسطينيون الآن عنوانًا للهزيمة ، وليس للمقاومة بعد الكارثة التى جرت فى غزة ..

ومنذ هذا التاريخ ، بدأت المعاناة الحقيقية لجيل الستينيات ، وحين أقول إن جيل الستينيات حمل الهزيمة على كاهله، فإننى لا أتحدث عنى أو عن مجموعة

الكتاب الذين ينتمون إلى هذه المرحلة .. أنا أتحدث عن أناس دخلوا الجيش فى 67 ، وخرجوا منه بعد حرب أكتوبر 1973 .. هذا الجيل هو الذى دفع الثمن .

*** إحدى المحطات المهمة فى مسيرتك الصحفية هى عملك مراسلاً حربيًّا ، وهى مهمة تبدى لها فى كثير مما تكتب تقديرًا كبيرًا، كيف جاء اختيارك للعمل مراسلاً حربيًّا ؟**

- حين بدأت العمل فى جريدة الأخبار، ألحقنى الأستاذ محمود أمين العالم بمركز المعلومات، وحين جاء الأستاذ موسى صبرى استدعانى، وقال : إنت مكانك فى قسم التحقيقات، تخوفت من هذه المسألة ؛ لأن الفكرة الراسخة فى ذهنى هى أن الصحافة ضد الأدب، ذهبتُ للأستاذ محمد عودة أسأله رأيه، فقال لى : موسى صبرى حِرَفى ممتاز، وإذا كان اختارك للعمل فى التحقيقات فلا تتردد، وبدأت بالفعل العمل فى قسم التحقيقات وعلمت بعد فترة أن هناك وفدًا مسافرًا للجبهة، فطلبت أن أنضم إليه ، فوافق موسى صبرى ولكنه لم يقل لى ماذا علىَّ أن أفعل، ما هى مهمتى بالضبط ؟

ذهبنا إلى الكيلو 10 ، وهو الجزء الذى لم يحتل من سيناء، وحين عدت كتبت ما رأيته فإذا بموسى صبرى ينشره على صفحة كاملة برسوم لمصطفى حسين ..

ولعلها مناسبة أن أقول لك من هو موسى صبرى، هذا واحد من أشرف وأنزه من قابلتُ صحفيًّا وإنسانيًّا، بعض من جلسوا فى موقعه أثروا وحققوا ملايين، أما هو فمازلت أذكر كيف استعان بالدكتور ميلاد حنا «لتقفيل» بلكونة لاستخدامها غرفة لابنته .. المهم أنه اتخذ قرارًا بأن أكون مراسلاً حربيًّا .

*** ما الذى دفع موسى صبرى إلى اتخاذ قرار من هذا النوع وبهذه السرعة ؟**

- الرئيس عبد الناصر قرأ التحقيق الذى كتبته فى الأخبار ، وقال لمن حوله : هذه هى الكتابة التى نحتاجها فى هذه المرحلة، كنت أكتب عن تجارب إنسانية لبعض

العسكريين والمدنيين ، تقترب من الإعجاز والإيمان المطلق بفكرة البطولة، يعني لفت نظرى ضابط اسمه عبد العزيز تعلب، وهو صعيدى ومازال على قيد الحياة، قابلته على الجبهة ولم يكن قد حصل على إجازة منذ 6 شهور .. هزنى إصراره فقد اتخذ قرارًا بأنه لن يحصل على إجازة قبل أن يخرج الصهاينة، ووزع مرتبه مكافآت على الجنود ، الذين يتمكنون من تحقيق إصابات بجيش العدو .

*** هل كانت هذه القصة واقعية تمامًا أم فيها شيء من خيال الأديب عندك ؟**

- ما رأيته فى الواقع فى تلك الفترة ، يعجز خيالى تمامًا عن تصويره ، مثلاً حين كتبت عن الشهيد عبد العاطى الذى عرف بعد ذلك بصائد الدبابات ، لم يكن التقرير الخاص به قد وصل بعد إلى قياداته ، وحين وصل التقرير إلى موسى صبرى وضع مانشيت الأخبار فوق صورة كبيرة التقطها مكرم جاد الكريم عن عبد العاطى ، الذى صار بعد ذلك رمزًا ..

وأتصور أن عملى فى الجبهة هو ذروة عملى المهنى ، وليس «الكارثة» التى أتولاها اليوم كرئيس لتحرير أخبار الأدب .

*** لماذا ؟**

- أولاً : أضافت إلى خبرتى الحياتية إضافات هائلة، ثانيًا : رأيت الشعب المصرى الذى تقرأ عنه فى ابن إياس والجبرتى على الطبيعة، رأيت مثلاً أمًّا وبناتها الثلاث رفضن التهجير ؛ لأنها تزرع نصف فدان تأكل من إنتاجه، حفرت خندقًا وعاشت فيه هي وبناتها فى وسط العساكر، شخص كل ما لديه شجرة برقوق يقلعها ليواجه بها دبابة، بعض هذا كتبته فى حكايات الغريب .. لكن التجربة على بعضها لم تخرج للنور حتى الآن .

*** لهذا صدمت فى النتائج السياسية للانتصار العسكرى !!**

- أكيد ، خصوصًا من ناحية التغيرات الاجتماعية التى جرت فى حقبة الانفتاح ، والتى مازالت آثارها باقية حتى اليوم، لكن بشكل عام أتاحت لى تجربة العمل بالجبهة أن أعرف بشرًا من أنبل ما أنجب هذا البلد ، وسخرت قلمى للكتابة عنهم.

*** أنت تعرضت للفصل من العمل قبيل الحرب .**

- كنت ضمن 104 كُتَّاب تم فصلهم عن طريق لجنة النظام، بينهم نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم، وكان وقتها الدكتور أحمد كمال أبو المجد وزيرًا للإعلام، فقال للرئيس السادات إن نشر هذين الاسمين سيلحق فضيحة بالنظام فتم حجبهما، لكنهما ظلا ممنوعين فى وسائل الإعلام، لا تنشر عنهما أخبار ولا يأتى ذكرهما أبدًا؛ لأنهما وقعا على بيان تأييد لمظاهرات الطلبة فى عام 1972 ، وقد أعادنا السادات قبل حرب أكتوبر بخمسة عشر يومًا .. وحين أذيعت البيانات الأولى للحرب ، طلبت فورًا أن أسافر للجبهة، وقد تقاعدت عن العمل كمراسل حربى فى أعقاب محادثات الكيلو 101، ولم أكن مستعدًّا نفسيًّا لقبول هذا الوضع، فتقدمت بطلب إلى موسى صبرى لإعفائى من العمل كمراسل حربى ، فوافق ونقلنى إلى قسم الدراسات وهو فى الحقيقة « ثلاجة » كبيرة تضم المغضوب عليهم وقتها .. كان بها مصطفى طيبة وعادل حسين وجمال بدوى وجمال الشرقاوى وآخرون، وكان يرأسه الأستاذ جمال بدوى، مكثت فى هذا القسم من 1974م ، حتى 1982م ، حتى أعادنى سعيد سنبل من جديد إلى عالم الصحافة، والحقيقة أننى بعد 73 ، لم أكتب إلا عن شهداء الحرب المصريين، وكان دافعى هو ألا ننسى هؤلاء الأبطال : إبراهيم الرفاعى .. أحمد حمدى .. إبراهيم عبد التواب .. ملحمة كبريت ..

ولم أكن أكتب عن هذه الملاحم فقط فى الأخبار، فقد كتبت عن قصة حصار كبريت فى مجلة الطليعة، تجولت فى مدن مصر وقراها أبحث عن الذين كانوا محاصرين فى هذا الموقع، وفى رأيى فإن هذه القصة من الصمود تنطوى على دراما غير عادية بوسعها أن تكون مادة لفيلم عالمى ..

كما شاركت بالكتابة فى عددين أصدرهما رجاء النقاش، حين كان رئيسًا لتحرير الهلال عن حرب أكتوبر ، وهما عددان تاريخيان ، أطالب من خلالك بأن يعاد إصدارهما فى مكتبة الأسرة، وفى هذين العددين كتبت عن ملحمة إبراهيم الرفاعى، وبرأيى فإن هذين العددين ملحمة فى الوطنية ، يمكن تقريرهما على طلاب المدارس ..

كما اقترحت على الدكتور سمير سرحان ، رحمه الله ، أن ننشر إبداعات الحرب فى الهيئة المصرية العامة للكتاب، واتفقنا على نشرها فى سلسلة أدب الحرب ، دون أن أتقاضى عنها مليمًا واحدًا، تمامًا كما فعلت فى سلسلة «الذخائر» كنت أتقاضى عن إشرافى على السلسلة مائة نسخة ، أوزعها على الأصدقاء . المهم أننا نشرنا فى أدب الحرب أكثر من 40 كتابًا، مؤلفوها ليسوا أدباء أو كتابًا محترفين، إنما جنود ومقاتلون أطلب منهم أن يكتبوا تجاربهم بالطريقة التى يرون ؛ لأن الحرب مثل الحب لا يمكن أن تكتب عنها ما لم تعشها ، وأكدت لى هذه المرحلة أن الشعب المصرى تحويجة عجيبة يظهر أجمل ما فيه فى أوقات المحن ، وهو ما شهدته بالفعل فى الفترة من 67 حتى 73 ؛ أى طوال حرب الاستنزاف .

*** بعيدًا عن الحرب وعودة إلى الأدب .. جيل الستينيات الأدبى الذى تنتمى إليه يمثل علامة فارقة فى الأدب المصرى والعربى المعاصر . كيف ترى إنجاز هذا الجيل؟**

- أنا أفضل أن أسميه ظاهرة الستينيات ، وهى الآن فى طور النهاية، لكننى أراها مازالت فاعلة حتى الآن، وحين تنظر إلى أدباء هذه المرحلة ستجد أنهم قادمون من أصول اجتماعية مختلفة عن جيل الرواد الكبار، يعنى حين تنظر إلى جيل الرواد ستجد أن أقلهم اجتماعيًا هو ابن طبقة متوسطة، إنما جيل الستينيات هو الابن الشرعى لثورة يوليو ، والذى كان فيما يتعلق بالحريات والديمقراطية ضدها، كان جيلاً بداخله تناقضات كبيرة جدًا، جيل كل واحد من أبنائه قادم من المجهول ، يبحث عن الثقافة والمعرفة ، ويحاول أن يشق له طريقًا فى الواقع الأدبى والاجتماعى، وقد أتيح لنا أن نلتقى ببعضنا البعض من خلال ندوات ثقافية ، كانت نشطة جدًا فى ذلك الوقت، أهمها على الإطلاق كانت ندوة نجيب محفوظ، وفيها قابلت أمل دنقل وإبراهيم أصلان ويوسف القعيد وكثيرين من أبناء هذه المرحلة، طبعًا كان فيه مناسبات مهمة فى هذه المرحلة ، مثلاً فى سنة واحدة طلعت مجموعتى «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» وديوان أمل دنقل «البكاء بين يدى زرقاء اليمامة» «وبحيرة المساء» لإبراهيم أصلان، و«الحداد» ليوسف القعيد، وكان يحيى الطاهر عبدالله يثير انتباه الحياة الثقافية حتى صدرت مجموعته «ثلاث أشجار تثمر برتقالا» وقبلها كانت رواية صنع الله إبراهيم «تلك الرائحة» قد أثارت صخبًا هائلاً .. أيضًا كان هناك شاعر كبير اسمه عبد الرحمن الأبنودى ، وبعد 1967 كانت ظاهرة إمام نجم ..

يعنى كان هناك مناخ عام أبطاله مجموعة متقاربة ، رغم أن كل فرد فيها قادم من طريق مختلف، فحملوا إلى الإبداع رؤى جديدة ، وكل واحد منهم يمكن أن تعتبره «سكة بمفرده»، كان هناك تنويع على أشكال الحكى طبقا للرؤى والتجارب الغربية ، وجئت أنا ممثلاً لتيار التأسيس على القديم ..

تجمع بين أعمال هذا الجيل عمومًا فكرة إدانة القهر، يعنى الفكرة الأساسية فى «الزينى بركات» هى إدانة القهر، هذا المعنى كان متكررًا فى عديد من الروايات التى

صدرت فى تلك الفترة حتى فى قصائد شاعر كبير مثل عبد الرحمن الأبنودى ، الـذى أعتبره أكبر شاعر مصرى الآن ستجد فيها هذا المعنى .

*** ما الذى كان يشغلكم ، هل كنتم تعتقدون أنكم أصحاب رسالة كبرى ، تنجزونها على طريقتكم، كل فى مجاله ؟**

– كنا نشعر أننا سنغير العالم ، ولأننـا جميعًـا كنـا فى أحـضان الـيسار بكـل تفريعاتـه وتناقضاته .. فقد كان هذا الشعور قويًّا للغاية بداخلنا إلى أن داهمتنـا الـسبعينيات بعواصفها ، فأصبحنا فرادى وصار لكل منا مشروعه، وانتهى الخيط الحميم الذى كان يربط بين الجماعة ، وصار كل منا فى اتجاه، هنـاك مـن تغـير كليًّـا وهنـاك مـن مازال مستمسكًا برؤيته ، حتى وإن وصفتها بالجمود، وهناك من اختفى .

*** من تراه بينكم الأخلص لما مثلته تجربتكم فى سنوات الستينيات ؟**

– معظم أدباء ظاهرة الـستينيات مـازالوا مخلـصين لمبـادئهم الأولى ؛ لأنـه لم تحـدث انقلابات حـادة بـين أبنـاء هـذا الجيـل، الانقلابـات محـدودة للغايـة وأصـحابها معروفون، بالعكس بعضهم صار أكثر حدة وصرامة فى مواقفه عما كان عليـه مـن قبل كما هو الحال بالنسبة لروائى كبير ، مثل صنع الله إبراهيم ، أو فيما نطالعه مـن مقالات ليوسف القعيد فى الشأن العام، وكـذلك مـا يكتبـه بهـاء طـاهر أيـضًا فى الشأن العام ، وكذلك الحال بالنسبة لكتابات إبراهيم أصلان ، والمواقف الـشريفة الأصيلة لمبدع رائع مثل محمد البساطى ..

هناك أناس فى جيل الستينيات مثلوا بالنسبة لى شـيئًا أشـبه «برمانـة الميـزان» فى الحياة منهم جميل عطية إبراهيم الأديب المصرى المقـيم فى سويـسرا، إنـسان غايـة فى النقاء والضمير اليقظ، وكثيرًا ما أستمع لما يقوله فى الشأن-العـام ، وأعتـبره نموذجًـا أحتذيه، هؤلاء هم من أتعكز عليهم الآن وعلى تجاربهم، أما مسألة التحول فأنا الآن

قادر على تفهمها أكثر من ذى قبل ، فهذه طبيعة الحياة والشىء المهم هو هل هناك خيانة لمواقفى المبدئية تجاه الناس الذين أنتمى إليهم أم لا .

*** نصل الآن إلى محطة مهمة جدًّا فى مسيرتك الأدبية والمهنية، وهى جريدة أخبار الأدب التى مضى عليها الآن أربعة عشر عامًا ..**

- أربعة عشر عاما فى مسيرة جريدة تعنى بالأدب مسألة ليست هينة فى زمن صعب ، يعنى فى الأربعينيات والخمسينيات والستينيات كان هناك مناخ يمكن أن يساهم فى نجاح المجلات ، ولذلك ليس صدفة أن السادات بعد 15 مايو 1971 أول شىء عمله هو إغلاق مجلات وزارة الثقافة، هل يعقل أن تفرط بلد فى مجلة مثل «المجلة» التى تعاقَبَ على رئاستها حسين فوزى وعلى الراعى ويحيى حقى، والمسألة ليست فقط إصدار مجلة ناجحة ، وإنما ما أرساه هؤلاء الأساتذة من مبادئ وقيم مهنية وإنسانية .. أذكر مثلاً أن أحد الأشخاص جاء إليه ، وقد كتب مقالا عنه «أى عن يحيى حقى» فقال له هذا المقال ليس مكانه هنا ؛ لأننى المسئول عن هذا المنبر، وهو نفس ما حرصت عليه حين توليت رئاسة تحرير أخبار الأدب، طوال أربعة عشر عامًا لم ينشر عنى سوى مقال واحد للكاتب اللبنانى الكبير محمد دكروب، فيما عدا ذلك لا وجود لى فى أخبار الأدب، حتى حين أكتب قصة أنشرها فى جريدة أو مجلة عربية، وأخجل أن أستحوذ على مساحة قد يكون كاتبًا من الأقاليم أولى بها ..

أما حكاية نشأة أخبار الأدب ، فهى أن رئيس تحرير الأخبار آنذاك سعيد سنبل عرض علىَّ أن أكون مسئولا عن الصفحة الأدبية فى أخبار الأدب 1985 ، وكان لدى المرحوم الأستاذ عبد الفتاح البارودى قائمة بالممنوع أن تنشر أسماؤهم مرتبين أبجديًّا من إدوار الخراط حتى يوسف أبو رية ، وأتحدى أن تجد لكل الأسماء التى ذكرناها من جيل الستينيات ذكرًا فى أخبار الأدب فى السبعينيات حتى أوائل

الثمانينات، حتى أنا نفسى وأنا ابن أخبار اليوم ، كان محظورًا الكتابة عنى، يصدر لى كتاب فلا ينشر خبر عنه ..

قلت لسعيد سنبل : أنا طرف فى الحياة الثقافية ولا يمكن أن تأتينى أخبار أو كتب لا أنشر عن أصحابها ، فقال لى : أنا أثق بك ، وعليك أن تعمل التوازن الذى تراه أول ما فعلته هو إزالة الغبار عن هذا الجيل، وأظن أن الصفحة لعبت دورًا فى الحياة الثقافية ، وامتازت بالبعد العربى، وكانت عمليًّا هى «ماكيت أخبار الأدب»..

فى عام 1992 تقدمت باقتراح لإنشاء أخبار الأدب ، وكانت مؤسسة أخبار اليوم قد أصدرت أخبار الرياضة، وبدأ الحديث يتردد عن أخبار الحوادث وأخبار النجوم، وبالفعل تم إصدار أخبار الأدب فى يونيو 1993 ، وواجهنا صعوبات فنية ومادية كبيرة، فهذه التجربة لم تكن مسبوقة، فقد تفحصت بعناية كل المجلات الثقافية السابقة : الرسالة، المقتطف، الهلال، الثقافة، العصور .. هذه المجلات كانت تعتمد على المقالات بشكل أساسى والجزء الصحفى فيها محدود جدًّا ..

وضعت تصورًا وبدأنا نعمل فى إطاره، لكننا حسبنا هذا التصور من خلال العمل وتلقى ردود الأفعال، كما يجرى مثلا فى المسرح المرتجل، وكانت الفكرة التى تؤرقنا هى كيفية الموازنة بين الجانب الصحفى والنصوص، وألا تكون الجريدة مصرية فقط .. لابد أن نتعامل مع الثقافة العربية فى عمومها ؛ لأنك فى الحقيقة حين تتكلم عن الدور المصرى فى الوقت الحالى، فلابد أن تعترف أن مصر لم يعد لها سوى دور ثقافى، هذا هو الدور الأهم والأعمق تأثيرًا .. هل ننسى أن رجاء النقاش هو الذى قدم للقراء العرب الطيب صالح ومحمود درويش وغيرهما من الأدباء والشعراء العرب ، الذين صاروا علامات مهمة فى الأدب العربى فيما بعد!! فى مجلة الرسالة مثلاً والأربعينيات ستجد مقالاً للشيخ على الطنطاوى من دمشق، تجاورها مقالة للشيخ عبد الله زنون من المغرب بلا تحيز أو حتى ادعاء ..

أما نحن الآن، وبسبب الإنترنت ووسائل الاتصال الحديثة ، صرنا طرفًا فى القضايا الأدبية والثقافية المطروحة فى كل البلاد العربية، وبالتالى أوجدنا ما يمكن أن تسميه مجتمع الأدباء العرب، وصار الأدباء فى العالم العربى يعتمدون على أخبار الأدب فى نشر نصوصهم وحتى أخبارهم ، وهذا ليس أمرًا هينًا، فنحن فى زمن يفرض تقطيع الأوصال نحن نقوم بالتجميع، وعبر الإنترنت نتخاطب يوميًا مع كل الأدباء العرب فى كل مكان فى العالم .

*** فى كلمات بسيطة ما أهم إنجاز حققته «أخبار الأدب» ؟**

- التواجد المصرى الثقافى فى الخارج، ومن حسن الحظ أن الدولة المصرية ما تزال بخير وفيها من يقدر ذلك الدور .

*** خاضت «أخبار الأدب» فى السنوات الأخيرة معارك عديدة، ربما كان أشهرها وأطولها معركتك مع وزير الثقافة فاروق حسنى .**

- أنا معركتى ليست مع الوزير فى شخصه ، وإنما اعتراضًا على السياسات الثقافية المطروحة، وهذا حقى تمامًا وأنا مصر على الاستمرار فيه للنهاية ..

هل يعقل أن مصر بكل ثقلها الثقافى والحضارى لا تصدر عنها مجلة ثقافية ينتظرها العالم العربى والمبدعون العرب، وبدلاً من هذا تنفق ملايين على مجلة اسمها «المحيط الثقافى» تنقل من المطابع إلى المخازن، فى وقت تصدر دول صغيرة مجلات ثقافية مهمة، ولابد أن ننبه أن الخليج الآن به إنجاز ثقافى، منه مثلاً المجمع الثقافى والسبق فى الإنتاج الرقمى، لكن المشكلة أن الفخامة والفلوس فقط لا يحققان ثقافة، الثقافة تأتى بالتراكم، وهذا التراكم لا توفره سوى دولة مثل مصر، وهذه المجلات «اللميع» لا يمكن أن تعول عليها فى نشر الثقافة، الثقافة ليست واجهة، إنما هى دور ومسئولية ..

وحتى فى مسألة الجوائز، هناك جوائز محترمة وموضوعية، ولكن ذلك لا ينفى وجود جوائز مشبوهة ومغرضة ..

وما يعنينى هو ما الذى نقوم نحن بعمله هنا فى مصر، هنا الخلاف .. فما أنفق على الثقافة فى مصر خلال العشرين عامًا الأخيرة، يتجاوز كل ما أنفق على الثقافة المصرية فى تاريخ وزارات الثقافة، لكن اعتمدت ثقافة الاستعراض، وهذا هو البند رقم واحد فى الخلاف بينى وبين الوزير .

*** لكن مشروعًا مهمًا مثل المشروع القومى للترجمة، لا أظنه يدخل فى هذا الإطار؟**

- طيب إيه رأيك أن هذا المشروع لاقى من الصعوبات ومن التضييق ما كان يهدد استمراره، بل ووجوده من الأساس، وقد ساندنا هذا المشروع بقوة كى يتخطى هذه العثرات .

*** لكن البعض يرى أن الخلاف بينك وبين الوزير، لا بينك وبين سياساته !!**

- بالعكس ، أنا أعتقد أن الوزير على المستوى الشخصى صديق جيد و«جدع»، وأظن أن إخلاصه لبعض أصدقائه الذين أذوه بعد ذلك يثبت صحة هذا الكلام، وفى العمل العام لابد أن نختلف، وقد وقعنا مرات مع الوزير فى حملات رأينا أنها ظالمة، لكننى بعد ذلك وجدت أن بعض سياساته لا تسير فى الطريق الصحيح، فكان لابد أن نواجهه وأن نختلف معه، وقد بدأ الخلاف حين ألغى استقلالية الهيئة العامة للآثار وحولها إلى هذا المجلس الذى يرأسه الآن، لكن الوزير تعامل مع الخلاف باعتباره خلافًا شخصيًا، حتى أنهم بدأوا يستبعدوننى من لقاءات رئيس الجمهورية، والأمر طبعًا لا يخصنى وحدى، وبدلاً من أن يجلس رئيس الجمهورية مع مفكرين حقيقيين من أمثال طارق البشرى وعبد الوهاب المسيرى، صار يدعى إلى هذه اللقاءات صحفيون من أصدقاء الوزير ، هل هذا يجوز؟

لقد تحولت المسألة من عمل جاد حقيقى إلى استعراضية ، أضرت كثيرًا بالثقافة المصرية .. مثلاً ينفق 55 مليون جنيه لترميم قصر محمد على، ويهمل قصور الثقافة التى احترق فى أحدها ما يزيد على 40 مبدعًا من خيرة عقول البلد، صدقنى لو أنفق على قصور الثقافة وطورها كما ينبغى، لكان ممكنًا له أن يتصدى للفكر المتطرف والإرهاب، وينشر الثقافة فى ربوع مصر كلها ..

على مدى العشرين سنة الأخيرة، لا أجد إنجازًا ثقافيًا حقيقيًا سوى مكتبة الإسكندرية والمشروع القومى للترجمة، طبعًا هناك مشروع القراءة للجميع، لكن ذلك لا صلة له بوزارة الثقافة ..

ما الذى يتبقى من المسرح التجريبى الذى ينفق عليه سنويًا 16 مليون جنيه؟ لماذا لا تهتم أساسًا بإصلاح أحوال المسرح والعاملين فيه، ولا مانع بعد ذلك من أن تنفق على المسرح التجريبى ..

انظر مثلاً إلى ما جرى فى متحف الفن الإسلامى ، الذى تم تدميره وتقطيع أوصاله بحجة إنشاء عدد من المتاحف النوعية .. متحف الفن الإسلامى برأيى جزء من منظومة تضم ثلاثة متاحف رئيسية .. من يزرها يعرف مصر : المتحف المصرى، المتحف القبطى، متحف الفن الإسلامى، هذا المتحف الآن مغلق منذ عدة سنوات، وهناك إصرار على تدميره ، ماذا جرى للمجموعات النادرة التى كانت بداخله؟ لا أحد يعرف !!

هذه السنوات التى مرت كلها اعتبرها سنوات إهدار فى الثقافة المصرية، وليس فى كل ما ذكرته أى شىء شخصى ..

فى مقابل ذلك انظر إلى ما تقوم به ساقية الصاوى من جهد ثقافى حقيقى، وكيف يتسابق الشباب لمتابعة أنشطتها، انظر لهذا العمل الثقافى الضخم الذى تقوم به ورشة الزيتون، وهى مكان فقير محدود، لكنه يعمل بإصرار ودأب غير عادى، ورأيى أن هذه الورشة التى يشرف على أنشطتها الشاعر شعبان يوسف تستحق

جائزة الإنجاز الثقافى بأبى ظبى، على مدار سنوات طويلة ناقشت هذه الورشة عشرات الكتب والروايات والدواوين الشعرية، وأقامت عشرات الندوات ، واكتشفت مبدعين جيدين فى كل مجال .. ماذا لو كان ذلك قد جرى فى كل قصر ثقافة؟!

*** أريد أن أختتم حوارنا بتجربة المرض، والتى لا شك تركت أثرًا كبيرًا فيك إبداعيًّا وإنسانيًّا؟**

- أنا تعرضت لكارثتين صحيتين : الأولى كانت الأشد فى 1996 ، وعولجت فيها على حساب الدولة، وكان الفضل فى ذلك لرئيس تحرير الأخبار السابق جلال دويدار ورئيس وكالة أنباء الشرق الأوسط السابق، أيضًا محفوظ الأنصارى، وكانت عملية معقدة تتضمن تغيير شرايين وصمامات معًا، والحقيقة أننى واجهت الموت مرات كثيرة أثناء عملى مراسلاً حربيًّا، لكن هناك فرقًا كبيرًا بين الموت الذى يأتى من الخارج، والموت الذى يأتيك من الداخل ..

ومنذ البداية كانت فكرة الموت أحد محاور اهتمامى، بوصفها امتدادًا طبيعيًّا لاهتمامى بفكرة الزمن ؛ لأنك حين تهتم بالزمن لابد أن تتساءل عن ماهية الحياة والموت، وحين حدثت أزمتى الصحية الأولى عام 1996 ، كنت فى حالة سلام مع نفسى مذهلة فيما يتعلق بالمصير، وأثناء إقلاع الطائرة نظرت إلى الأرض ، باعتبار أن هذه هى المرة الأخيرة التى سأرى فيها الأرض، كنت مقتنعًا تمامًا أن تذكرة السفر هى اتجاه واحد، ذهاب بلا عودة . وكتبت فعلاً رسالة لزوجتى (الكاتبة الصحفية ماجدة الجندى) التى كانت ترافقنى فى الرحلة، أشرح لها فيها كيف تتصرف لو مت أثناء العملية، لكن ربنا سلم، والحقيقة أن إحساسًا من اثنين يلازمك ، بعد أن تنجو من الموت إثر عملية من هذا النوع، إما أنك تعود منطويًا على نفسك وتعتزل الناس والحياة، أو أن تشارك فى الحياة العامة بقوة، وما جرى معى هو الخيار الثانى ..

الاقتراب من الموت يجعلك تعيد اكتشاف الأشياء والتعرف عليها بشكل مختلف، ومازلت أذكر اللحظة التى فتحت فيها عينى بعد العملية، كان عندى دهشة تشبه دهشة الأطفال الصغار الذين يرون العالم للمرة الأولى .. بالفعل هى رؤية أولى للعالم، ولكن بشكل مختلف .

* * *

عبد الرحمن الأبنودى

هذه هى حكايتى مع ثورة يوليو

- ارتبط اسم شاعرنا الكبير عبد الرحمن الأبنودى بيوليو 1952 أكثر من أى حدث آخر، لم يكن هو «شاعر الثورة» كما كان صلاح جاهين مثلاً، لكنه مع صوت عبد الحليم حافظ حفرا مسيرتها عبر إنجازاتها وانكساراتها، حتى أنه حين حدثت هزيمة يونيه 1967 فإن الأبنودى وحليم اعتبرا من أسبابها لدى البعض !!

مع أمل دنقل عاش الأبنودى إرهاصات يوليو الأولى .. توجسًا من ضباطها مثل كل الفلاحين فى بادئ الأمر، لكنهما فيما بعد صدقا، وانخرطا فى صفوف المدافعين عنها، لكنهما بسرعة، وبحس ثقافى وإنسانى عال، أدركا أن النظام العسكرى يلفظهما، وأنه ينطوى على فساد وإفساد عظيمين، وكانت قصيدة الأبنودى «عدَّى النهار» التى غناها عبد الحليم حافظ، هى أول اعتراف «فنى» بالهزيمة ..

كثيرون ممن آمنوا بتوجهات يوليو ودافعوا عن شعاراتها، قتلتهم لحظة الانكشاف، فالنظام الذى ارتعدت فرائص الناس لقوته المزعومة وسطوته الغاشمة، ما لبث أن تكشف لهم وللعالم أكذوبة كبرى وخرافات فوق ذاكرة من وهم وهو ما لم يحدث مع الأبنودى الذى قال لنا إن 5 يونيه لم تكسره .. لكنها كسرت شوكة النظام العسكرى ..

مع شاعر «الغلابة» كما أحب أن أسميه، نسترجع الأيام الأولى ليوليو وعلاقته بها، وكيف رآها فى تحولاتها التى واكبت تحولاته أيضًا : من شاب فقير يقطن قرية بائسة فى عمق الصعيد .. إلى شاعر كبير تظلله الجماهير العربية بحب كبير أينما حل، فهو صوتها الهادر فى سعير الغضب، المجلجل فى نشوة الفرح، وأظن أنه يستحق حبها .

*** خمسون عامًا مرت على يوليو 1952 ، أنت واحد ممن تفتح وعيهم عليها، انخرطت فيها شاعرًا وعبرت عن كثير من مواقفها، ما الذى يمكن أن تقوله اليوم؟**

- المناخ الذى خلفته يوليو أسهم إلى حد كبير فى أن يدفع بنا للبحث عن دور أدبى أولاً، ثم أدبى سياسى فيما بعد، وبنظرة إلى مسيرتى خلال يوليو بتضاريسها، سوف تجدنى أشق طريقًا خاصًا ليس فيه ذلك النوع من الارتماء فى أحضان الفترات السياسية أو من يديرونها ..

وربما لم ألتقط أنفاسى بصورة أحاول أن أوهم أنها طبيعية إلا فى هذه الفترة الأخيرة، فنظام عبد الناصر اعتقلنى لمدة ستة شهور أنا وخيرة شباب جيل الستينيات، من شعراء وروائيين وفنانين وصحفيين، ونظام السادات قدمنى لأحاكم أمام المدعى الاشتراكى بمقتضى قانون العيب، وإن كنت لا أتنصل من كونى واحدًا من أبناء هذه الثورة، اختلفت معها كثيرًا فيما يراه البعض تجاوزات، وكنت أراه بصفتى من طبقة فقراء الفلاحين نكوصًا وقلة ثورية .

*** هل ثمة صلة بين انتمائك الطبقى والمكانى وموقفك من يوليو؟**

- أنت تعلم أننى من قرية فقيرة فى عمق غياهب الصعيد، يحدها الجبلان من الجانبين، ويضغطان على ضلوع النيل ولا يخلفان إلا شريطين من الخضرة لو قورنا بعدد البشر هناك لصار الأمر مهزلة، وهو ما كان يدفع أهالينا إلى الاحتفاظ بثلث الأبناء فقط و«طرد» الثلثين إلى مناجم البحر الأحمر وسيناء أو مدن قناة السويس، يستصلحون رملها وجبسها وملحها ويهبونها الحياة ..

إذًا فلم يكن لدينا إقطاع ولا إقطاعيات، وحين ثارت هذه القضية بعد الثـورة، ظللت كثيرًا أحاول استيعابها، فلقد كان الظلم والكرباج فى قريتنا تمسك بـه أيـدى الفقر وقلة الموارد فقط، ولم يكن هناك ذلك الإقطاعى البدين الذى يمسك بالكرباج يلهب به ظهور أعمامى أو أبناء عمومتى ..

لقد كانت الملكية الزراعية هناك ومازالت منتشرة بشكل مزرٍ، حتى أن مـيراث عائلة كبيرة يمكنك أن تقطعه فى قفزة واحدة، ولـذلك فـإن أهالينـا لجـأوا فى ضـوء ملكياتهم المحدودة تلك، إلى زراعة نباتات طبية ونادرة وتحتاج إلى شـديد تخـصص، كالكمون والكسبرة والكراوية، وكل تلك النباتات التى تدخل فى صناعة الـدواء فى المدينة، ولو كانوا اتجهوا نحو الزراعات التقليدية لكانوا انقرضوا منذ وقت مبكر ..

ولذا فحين علقت صورة مجلس قيادة الثورة على دكان الحاج خليفـة الطَّـوَّاب، كانت نظرتنا إليها نظرة عامة، وأنت تعـرف أن فلاحينـا هنـاك لم يتخلـوا يومًـا عـن قناعهم التاريخى المتوارث منذ أيام الفراعنة، فهو يخفى وجههـم الأصـلى دائـمًا عـن الحكام، ويوهمهم أنه يحبهم بل يعـشقهم، وهـو يـستريب فى جـنس الأفنـدى، فهـو يذكره بالوالى والجابى وكل من أذاقه الأمرين فى فترات العسف والظلم .

*** هل يعنى هذا أنكم تعاملتم مع ضباط يوليو بوصفهم أفندية .. أم كنـتم صـابرين تجاهها فى انتظار أن تفصح عن نفسها؟**

- لم تتحرك قريتى للإحساس بما سمى بحكومة الثورة إلا حين بدئ فى بناء الوحـدة المجمعة فيها، ليصبح لدينا لأول مرة مستشفى ومدرسة ووحـدة اجتماعيـة، كـان هذا المبنى الملقى خارج القرية، أول ما لفت النظر إلى أن نظامًا ما جديدًا قدم عـلى حكم مصر، وأن عينه وقعت على واقع الفلاحين الفقراء ..

إذا أضفنا إلى هذا صيحة عبد الناصر «ارفع رأسك يا أخـى ، فقـد مـضى عهـد الاستعباد»، وأن شيئًا ما فى صوت الرجل صدقه الفلاحون ربما على عكس المثقفـين

الذين لم تكن تهمهم قضايا الديمقراطية ومعارك الفئات المتنازعة بين أعضاء مجلس قيادة الثورة ..

لقد أشاروا إلى وجه محمد نجيب الطيب وغليونه ، الذى يشبه جوزة المعسل التى يدخنونها وأحسوا بقرب الرجل منهم، ولكنهم سرعان ما استبدلوا بوجه محمد نجيب صوت عبد الناصر، الذى وثقوا به وظلوا ينتظرونه فى الراديو الوحيد الذى تملكه القرية، ونسوا تمامًا وجه محمد نجيب الأسمر الذى يشبه وجوههم ، والطيبة المرتسمة على ملامحه ليندفعوا نحو صوت القائد الجديد .

*** هذا عن عموم فلاحى الصعيد فى قريتك، فماذا عنك شخصيًّا ، وقد كنت فى بواكير الصبا، وفى مرحلة يتفتح فيها وعيك الإنسانى والأدبى على أفق جديد، ونحن نعرف أنك وأمل دنقل عاصرتما اللحظة معًا ، وتفاعلتما معها شعريًّا وإنسانيًّا ربما بالاستجابة ذاتها؟**

- بالنسبة لى ولشباب الصعيد، وقد كنا أمل دنقل وأنا لا نفترق فإن علاقتنا بالثورة وحين أقول الثورة لا أقول عبد الناصر أو غيره، ولكنى أعنى ذلك النظام الذى هزم الملكية وأعطانا مساحة من الضوءِ وسهمًا للتقدم إلى الأمام بدأت مع حرب 1956 «العدوان الثلاثى»، يومها أحسسنا أننا مطالبون من ذوات أنفسنا ، وليس بتوجيه من أحد أن ندافع عن هذا الوطن ضد تلك الهجمة الرهيبة .. لقد عرفنا الإنجليز منفردين، وعرفنا إسرائيل منفردة، ولكن هذا الحلف الشرير القوى الذى انضمت إليه فرنسا استفزنا، ونبهنا إلى أن القيادة المصرية قيادة جديرة بالثقة، طالما أن هؤلاء الأشرار يعادونها، واندلع الفنانون يرسمون صور المقاومة الشعبية فى بورسعيد واصطياد المظليين بالبنادق ومقاومة النساء بالحلل والطوب، وسواء أكان هذا صحيحًا أم غير صحيح، فإننا اندفعنا واندلعنا بحماس جارف، وربما كانت تلك التصاوير الساذجة هى التى جعلت من أشعارنا ، فيما بعد ، شيئًا مرتبطًا بالوطن، وسوف يظل ذلك إلى الأبد ..

سارعنا أمل وأنا إلى التطوع فى المقاومة الشعبية، لبسنا الكاكى وتدربنا على السلاح تدريبًا جيدًا، شأننا شأن معظم شباب مصر فى هذا الوقت، لكنهم ماطلوا وسوفوا فى إرسالنا للجبهة، وبدأنا ندرك أنهم لن يستعينوا بنا وأصبنا بإحباط شديد، فى المساء حين التقينا أمل وأنا كان بنا شيء مرتبك، وكل منا يريد أن يبلغ الآخر شيئًا، لكن الحرج أغلق أفواهنا، وفض أمل دائرة التردد وسأل عن الأمر ، فقلت إننى كتبت قصيدة .. تعجب فقد كان كتب قصيدة فى اليوم نفسه ، وهكذا كانت بداياتنا حين نزعوا سلاحنا وأملنا فى المشاركة العسكرية، لجأنا إلى الشعر كسلاح جديد نملكه ولا يستطيع أحد أن ينتزعه من أيدينا .. منذها صرت شاعر نفسى، على علاقة شديدة الخصوصية بالوطن، واكتشفت أنه لا يجب الاعتماد على الحكومات ، فيما يخص قضية علاقتك ببلدك أو وطنك .

*** هل تغيرت نظرتك وعلاقتك بيوليو مع انتقالك بصحبة أمل دنقل إلى القاهرة فى أواخر الخمسينيات؟**

- جئت أنا وأمل إلى القاهرة بعدما حصلت على الثانوية العامة فى عام 1958 وفى هذا العام أقمنا أول أمسية شعرية لنا فى مركز الفنون الشعبية، ولم نفلح فى الجامعة ؛ إذ كانت مصر عامرة بالأندية الثقافية ومجالات الأنشطة الأدبية، فنسينا أننا جئنا للدراسة وانخرطنا فى هذا العالم الساحر، وتعرفت إلى الكثيرين من المثقفين والأدباء والمبدعين، ثم اشتريت بمصاريف الجامعة وثمن تأثيث غرفة، معظم كتب سور الأزبكية وشحنتها فى صندوق كبير فى القطار إلى قريتى ورحلت خلفها، لتصير هذه هى المكتبة العامة الوحيدة التى تقدم فكرًا طازجًا لهم، وهى مسئولة عن أى شاب من هناك التحق بالثقافة فى ذلك الوقت، وسرعان ما عاد أمل دنقل أيضًا لنعمل معًا فى محكمة قنا ..

كان هو محضرًا وكنت سكرتير جلسة ؛ أى الرجل الذى يجلس إلى جوار القاضى يسجل الأحكام والتحقيقات، وبعد مضى فترة، زهدنا العمل، فقد كنا أسوأ

أنواع الموظفين، وكنا نلتقى آخر النهار مع بعض من مثقفى قنا، واعتدنا إقامة أمسية شعرية كل خميس تضم القديم والجديد، وتعبر عن الوحدة مع سوريا أو الانفصال عنها ؛ أى أننا انخرطنا جميعًا فى التعبير عما نراه إيجابيًّا فى إنجازات الثورة ..

كنا كما قلت موظفين سيئين من وجهة نظر زملائنا ورؤسائنا .. كان أمل دنقل يعود من القرى مشبعًا باللعنات حين يحجز على أشياء الفقراء الصغيرة ، فينظرون إليه على أنه هو الدولة، وينهالون عليه بالشتائم ويشيعونه بكل الألفاظ السوداء، أما أنا فكنت قد ارتطمت بأحد القضاة وقررت الاستقالة، وكذلك فعل أمل دنقل .. فى هذا الوقت كانت أشعارى تنشر فى مجلة صباح الخير وجريدة المساء، وكنت قد تعرفت إلى الشاعر صلاح جاهين، فرحلت أنا وأمل من جديد إلى القاهرة، وحين نزلتها سألت عن كل من عرفت فى الأمسية الشعرية التى أقمناها من قبل فى مركز الفنون الشعبية، وعلمت أنهم اعتقلوا جميعًا فى 1/ 1/ 1959 ؛ لأنهم شيوعيون، وبدأت أعرف تفاصيل قصص القبض عليهم وتعذيبهم، وبدأت أسمع أشياء عن سجن الواحات الرهيب، وتعجبت كيف لنظام يدعى أنه يدافع عن الفلاحين والعمال أن يعتقل هؤلاء الذين ينادون بحكم العمال والفلاحين !!

لكننى دائمًا كنت أرى أننى مختلف عن جميع مثقفى وسط المدينة، الذين يأكلون الكتب ولا يكفون عن الكلام ولا يمارسون عملاً آخر، لذلك كانت فرصة رائعة حين حزمت حقيبتى وذهبت للإقامة مع عمال السد العالى، بعد أن ماطل موظفو وزارة السد العالى وقتها فى إرسالنا سيد حجاب وسيد خميس وأنا إلى هناك لرؤية التجربة، فذهبت منفردًا وعدت لأكتب ديوانى الأشهر : «جوابات حراجى الجط (القط) العامل فى السد العالى إلى زوجته فاطمة أحمد عبدالغفار فى جبلاية الفار» ..

وهنا ترى أن الشعر الوطنى عندى لا صلة له بنظام سياسى، وإنما هو تمجيد لفقراء أهلى الذين عشت بينهم «حراجى» ، الذى كان صديقى الحميم فى الغربة، فى المرعى والحصاد وجنى القطن .

*** واجهت تجربة اعتقال لمدة ستة شهور بتهمة الشيوعية، كيف تعاملت مع التجربة وما الذى أضافته أو أخذته من قناعاتك؟**

- حين سجن من حكيت لك عنهم بتهمة الشيوعية، وجدت نفسى منخرطًا فى قراءة الماركسية كى أفهم الموضوع، وانضممت إلى أحد تنظيماتها الصغيرة، وألقى القبض على أفراد هذا التنظيم لنمضى ستة شهور فى الاعتقال، وقد لا تصدق إذا قلت لك إنها من أسعد تجارب حياتى ؛ ذلك لأن جدار السجن هو آخر جدار فى الدنيا، وإذا ما أسندت ظهرك إليه وفكرت قليلاً، فستعرف تمامًا إمكاناتك الثورية والأدبية والإنسانية والنفسية، فإما أن تنهار وإما أن تقوى على مواصلة قول الحق للأبد ..

فى الاعتقال عرفت أيضًا الأخوة الوفديين الذين اعتقلوا بعد هتافهم فى وداع النحاس باشا، ياسين سراج الدين وحافظ شيحا ومصطفى ناجى وغيرهم، وكانت فرصة طيبة للتنقل بين الشيوعيين والوفديين والإخوان المسلمين، ومن هنا تأتى «غلاوة» هذه التجربة ؛ لأنى تنقلت بين كل الفكر المطروح على الساحة السياسية المصرية، بالإضافة إلى هؤلاء المغامرين الذين كان يطلق عليهم «النشاط المعادى» .. فى السجن تنقلنا بين الحبس الانفرادى والجماعى فى القلعة وطرة، وذقنا الإهانات وسقطت الهالات، وأصبحنا نحن ونظام الثورة الذى يحرسه ضباطه، والذى لا نرى منه سوى هؤلاء الضباط فى إشكالية ومفارقة بين تأييدنا لمناطق كاملة من سلوك عبد الناصر وإحساسنا طوال الوقت بأننا موصومون مراقبون، وكأن وجودنا على أرض مصر ليس شرعيًا ..

وخلال ذلك كله، كان صوتى يملأ الراديو وقصائدى تنشر فى الجرائد، وحتى حين غادرنا المعتقل، كنت فى الليلة التالية أقدم سهرة كاملة فى الراديو ..

لم يكن السجن وصمة كما حدث فى الفترة التى تلت عبد الناصر، وإنما كان خلافًا له طعم المرارة، ويبدو أن حرص الثورة على نظامها، كان يجعلها لا ترى الصديق من العدو ..

خرجت من المعتقل فى عام 1967م ، وعدت مباشرة إلى قريتى فى الصعيد، وبدأت أجمع سيرة بنى هلال وغناوى البشر هناك، اعتقادًا منى أن السد العالى سيغير أدوات الإنتاج، فلا يصبح ثمة شادوف أو ساقية أو نورج، وأن كل هذه الأغنيات سوف تنقرض اشترى لى عبد الحليم حافظ جهاز تسجيل كبير ، جاء به من اليمن حين ذهب ليغنى للجنود هناك ، وأعطانى كمال الطويل مجموعة من الأشرطة لأسجل عليها السيرة الهلالية، فقد كنت فقيرًا جدًّا فى ذلك الوقت، وبدأت تسجيل هذه الملحمة العظيمة، إلى أن هاتفنى عبد الحليم صارخًا أن مصر ستدخل الحرب، وكنت أشك فى أن مصر بوسعها أن تقاتل أصلاً ؛ لأن الأحوال لم تكن تسر، لكنه أصر على أننا على شفا حرب وأننى يجب أن أعود للقاهرة، وبالفعل عدت وكتبت كثيرًا من أغنيات الحرب التى أنهيت بعضها فى القطار فى الطريق إلى القاهرة، ومنها أغنيات «اضرب» و«أحلف بسماها وبترابها» و«ابنك يقول لك يا بطل» و«بركان الغضب» و«يا استعمار» و«راية العرب»، وربما كنت من أوائل من عرفوا بالنكسة، فقد كنت مقيمًا فى الإذاعة طوال الوقت .

*** هزيمة يونيه 1967 أثرت سلبيًّا على عديد من المبدعين، بل قتلت بعضهم ببطء، معك يبدو أن الأمر جرى على نحو مختلف؟**

- أنا أعتبر أن مبدعين كبيرين مثل يوسف إدريس وصلاح جاهين شهيدان مباشران لما جرى فى يونيه 1967 ، فصلاح كما تعلم هو الذى كتب أغنيات الثورة، وراهن

على عبد الناصر رهانًا ليس منه مرد، ولـذلك حـين تحطمـت التجربـة فى يونيـه 1967، أحس صلاح ويوسف إدريس أنهما يتقوضان معها ..

أما عنى، فدعنى أقول لك إن بدايتى الحقيقية كشاعر وكرجـل لـه دور وطنـى بين الجماهير بدأت مع النكسة، فعلى الرغم من أننى كتبت أغنياتها، حتى إن الـبعض اعتبرنى أنا وعبد الحلـيم حـافظ مـن أسـبابها ؛ لأننـا هيجنـا الجماهـير وأعـددناهم للانتصار، وكأنه كان يجب علىّ أن أعدهم للهزيمـة، فـإننى كتبـت فى ذلـك الوقـت «موال النهار» وهذه هـى الأغنيـة الوحيـدة التـى اعترفـت بالهزيمـة، وقـد أعـاقوا ظهورها بشدة، لكن بعد إذاعتها، كان عبد الناصر يطلبها بنفسه ..

أما أنا فقد اتجهت إلى شاطئ قناة السويس حيث الجبهة ، وحيـث بعـض أهـلى الذين يعيشون هناك، وأقمت بينهم وكنت أرقب عمليًّا، عملية إعـادة بنـاء الجـيش المصرى، وعاصرت حرب الاستنزاف، ودرت فى جميع أقاليم مصر ، أقـيم أمـسياتى الشعرية، وربما لم أكن أقيم ليلتين متتاليتين فى بيتى، فقد كنت كـل يـوم فى بلـد أقـرأ أشعارى لمثقفيه وعماله وفلاحيه .

*** كنت مؤمنًا بالنصر وأن الهزيمة لا تليق بمصر .**

- كنت أرى النصر رأى العين، كان النظام العسكرى قد كسرت شـوكته وارتفعـت أصوات النقد، ووجدتها فرصة أن أصدح بكـل مـا أحبـسه فى ضـميرى وقلبـى، ورغم المطاردات التى تعرضت لها، إلا أننى كنــت مـصرًّا عـلى المواصـلة، لـذلك كتبت أغنيات «بيوت السويس» و«بيت من بور توفيق» وقصيدتى عن عبد المنعم رياض الذى احتفيت به كثيرًا كأول رجل من السلطة يموت فى موقع عمله وبـين جمـاهيره ؛ إذ لم نعـرف مـن قبـل إلا هـؤلاء الـذين يموتـون عـلى سررهـم أو فى قصورهم .

عايشت هناك الجنود والفلاحين، وعرفت عن الشعب المصرى ما لم يمكن معرفته من الكتب أو من أفكار المثقفين القادمة أيضًا من الكتب، كانت التجربة دائمًا تشدنى، ووجدت أننى يجب أن أكون حيث تكون مصر، فى أسوان السد العالى أو فى سويس الاستنزاف .. إلخ .

وكنت آنذاك أقدم أشعارى بصورة يومية من الراديو للجنود على الجبهة ؛ مما دعا البعض إلى القول بأنى على علاقة حميمة مع السلطة، لكن الحقيقة أنه كان فى هذه الأجهزة بعض المؤمنين بى مثل الأساتذة محمد عروق والسيد الغضبان وفاروق شوشة، وكانوا فى مواقع تسمح لهم بتمرير النصوص ..

ما أريد قوله هو أننى لم أهزم مع الهزيمة، كنت أرى أن النظام العسكرى هو الذى هزم، وأن هذه فرصة للناس كى يرتفع صوتها وتبدى آراءها، وأظننى لم أقصر فى استغلال الانفراجة الديمقراطية التى حدثت رغمًا عن أنف الدولة ..

ملخص القول إننى عشت قضية الأدب والفن كما يعيش الفلاح زرعته ، يحرث ويرمى البذر ويتتبعه إلى أن يصبح سنبلة، ولا يمنعه عن ذلك أى ظرف سواء قسوة الطبيعة أو ضيق ذات اليد أو الظروف القاسية ..

كنت أؤمن ومازلت أننى ذلك الفلاح الذى يجب أن يزرع وأن يحصد وأن يقدم للناس رغيفًا، وحتى الآن لا أفهم، كيف يأكل المبدع من عرق الناس ويكتب لهم نظير ذلك ألغازًا ولوغاريتمات، لا يستفيد منها الواقع ولا تسهم فى دفعه إلى الأمام، لذا اعتبر نفسى خادمًا من خدام هذا الوطن، لذلك لا تجدنى أعادى أيًّا من الاتجاهات السياسية الأخرى، بل أحاول أن أتبين ما فيها، وأقف مع كل من أرى بينى وبينهم مسافة للتواصل وتطابق الرؤى .

*** فى أوساط المثقفين بالقاهرة، كان عليك أن تختبر صداقات حقيقية وأخرى وهمية، فضلاً عن خيانات وتحالفات ومؤامرات لم تسلم منها حتى اليوم .**

- كانت هناك دائمًا مسافة بينى وبين المثقفين، وقد كان متعهدو العمل الثقافى مختلفين معى تمامًا ؛ خاصة بعد التجربة الفاشلة التى خضتها معهم فى المنظمة اليسارية الصغيرة التى كنت منضمًّا إليها، وأريد هنا أن أشير إلى أننى تركت هذه المنظمة قبل أن أسجن بكثير، لكننى تعاملت مع الأمر وكأننى بالفعل مازلت عضوًا فيها، ولم أكن وحدى الذى استقلت من هذه المنظمة، بل ربما كان عدد المعتقلين من المستقيلين أكثر من العاملين فيها، ورغم ذلك فإننى لم أسلم يومًا من تلك الاتهامات، بل إن البعض اتهمنى بالبوليسية صراحة، فهم حين يرونك شجاعًا تمارس فعلاً ما فى مواجهة الدولة لا يمكن أن يتخيلوا فى ضوء تجاربهم إلا أنك متفق مع الدولة على هذا السلوك ..

لقد ظهرت مع شعراوى جمعة وزير داخلية مصر الأسبق فى برنامج شريط تسجيل بعد استشهاد الفريق عبد المنعم رياض، وكان عبد الناصر قد استمع إلى قصيدتى عن عبد المنعم رياض ، وقال إننى من أنضج الأصوات التى استمع إليها منذ النكسة، ولم أكن قد التقيته قبل ذلك ولم تكن لى صلة به، فخجل السيد شعراوى جمعة أن يقول إننى خارج من الاعتقال منذ شهرين، فسارع إلى استضافتى فى هذا البرنامج ، الذى كانت تقدمه الراحلة سلوى حجازى وكان معى نجيب محفوظ وأحمد بهجت وآخرون ..

فى ذلك اليوم قلت للرجل كلامًا عن الحرية وعن ذلك المخبر الذى يحاولون زرعه بين ضمائرنا وأقلامنا، وهوما أفزع الكثيرين من مدعى الثقافة والمنهارين بالسليقة، فبدأوا يدورون على المقاهى ، ويرددون أن الأبنودى اتفق مع شعراوى جمعة على ما قال، ولم أكن قد التقيت شعراوى جمعة قبل ذلك سوى مرة واحدة حين ثارت ضجة فى الخارج على اعتقالى وطلب أن يرانى، وأصرّرت على أن يصطحبنى فى هذا اللقاء مجموعة من الأصدقاء منهم سيد حجاب ومحمد عبدالرسول، ومن

حينها لم أر الرجل إلا فى جنازة الدكتور إبراهيم الشريف وكان عضوًا فى لجنة العمال والفلاحين ..

هذه هى اللقاءات التى قابلت فيها شعراوى جمعة ، الذى يطيب لبعض التافهين من الشعراء المحبطين أن يحاولوا الإيهام بأن ثمة علاقة «سياسية» أو شخصية ربطت بينى وبينه ..

إذًا فالمثقفون لأنه ليس لهم عمل محدد، أو قاعدة اقتصادية حقيقية وليس ثمة رابطة بينهم وبين الواقع سوى تنظيمات الغرف وجلسات المقاهى، وهم فى الحقيقة لا يعرفون الواقع المصرى، ولا يجهدون أنفسهم لمعرفة أهاليهم .. نحن لا نعادى الكتب لأنها هى التى أضاءت لنا وأعادت اكتشاف واقعنا القديم، ولكن يجب أن نتخذها وسيلة للارتباط الأكبر بقرانا ومدننا وأهلنا ومعايشنا وظروفنا ..

وأنت ترى الآن أننى أعود فى كتاباتى وأنا فى هذه السن إلى قضايا الأهل وواقعهم ومحاولة القبض على جوهر وعيهم بالحياة . أما أن تنفلت كأنك كنت فى سجن، فيجب أن تتأكد أنك لن تعلم أحدًا، لذلك فإن هذه الموضات والخزعبلات التى أصابت شباب المبدعين، والتى باعدت بيننا وبين الشعر تحت دعاوى الحداثة وما بعد الحداثة وغيرها، والتى أفقدت الأمة أحد أهم أسلحتها فى المواجهة مع العدو فى ظروف بالغة الخطورة، وقطعت الأوصال بين المثقف وجذوره القديمة، وإذا كانت أشعار الحداثيين لا تقرأ الآن ولا يحفل بها أحد، فيجب أن يعرفوا أنه فى المستقبل أيضًا لن يقرأ الناس إلا ما يختص بأحوالهم وحياتهم وعقولهم ..

إن أحدًا لن يضيع الأوقات فى حل ألغاز أفيونية عنكبوتية ، لا تحمل أية مضامين حقيقية تخدم هذه الأمة .

إن ما يسمى بقصيدة النثر سواء فى الفصحى أو فى العامية، هى أشياء قليلة القيمة ولا تملك عنصرًا واحدًا من عناصر الاستمرار ، مهما جَيَّشوا لها الجيوش

ودعموها بالميليشيات وقذفونا بسمومهم وسهامهم الكاذبة .. أنا أؤمن بالمثقف «الفواعلى» الذى لا يخاطب العالم الخارجى ، ولا يخاطب الحكومة قدر ما يعيد تربية شعبه سياسيًّا ..

إن فوران مصر فى النصف الأول من القرن العشرين واندلاعها خلف قيادات مثل سعد زغلول ومصطفى النحاس، يثبت أن هذه القيادات انغرست فى هذه الأمة، بزغت الطليعة وربطت نفسها بجيوش البشر البسطاء، وكانت كلمة الزعيم تترجم إلى عمل ثورى فى ساعات قلائل، وتحضرنى هنا صورة النحاس باشا ، وهو نائم على الكنبة فى محطة قنا، صورة يجب أن تعلق فى كل بيت، وهى تذكرنى بنومة عمر بن الخطاب تحت الشجرة أما الآن فإن الثورة نفسها بمبادئها القديمة لم يعد منها شىء ولم يعد منها أحد، فقد ضربت الثورة ضربة قاصمة أسهمنا جميعًا فيها، وسلمنا الأمر لآخرين، ربما كانت مبادئهم وتوجهاتهم ، بعيدة كل البعد عن الضرورات التى أدت إلى قيام ثورة 1952 ..

أحيانًا أقول لنفسى إن الثورة حدثت لأسباب أقل بكثير مما يجرى الآن، وأننا تسلمنا مصر بصورة أفضل مما سنتركها عليها لأولادنا من بعدنا ؛ فحجم التطور لا يقاس بعدد العمارات أو الكبارى أو المدن الشاطئية أو حتى المدن الصناعية، وإنما يقاس بدرجة العلم واختفاء البطالة وقوة الانتماء للوطن، وكلها أشياء كما ترى فى غير حاجة لأن أوضحها لك .

*** من يتابع أمسياتك الشعرية فى أقاليم مصر المختلفة، يدهشه استقبال الناس لك وتفاعلهم معك بوصفك بطلاً قوميًّا لا شاعرًا يقول كلمته ثم يمضى .**

– الشعوب تعرف رجالها، لاحظ أن عمرى الآن يتجاوز الستين عامًا، وأننى نزلت إلى القاهرة فى عام 1962 ، و 40 عامًا من السلوك الشخصى والسياسى كفيلة

بالمراقبة وبإنجاحك أو إسقاطك فى الاختبار الجماعى لجماهير الأمة العربية وليس المصرية فقط ، وأخشى أن أقول إن جمهورى فى البلدان العربية يفوق جمهورى فى مصر ..

لقد مرت على مصر وعلى الأمة العربية عشرات المآزق وقفت فيها صامدًا، وإذا فتشت فى أعمالى فلن تجدنى أحتفى كثيرًا بالانتصارات النادرة، ولكن كتفى دائمًا مستعد ليرفع الحمل فى الظروف المناسبة ..

هذا إلى جانب أننى لم أخن طفولتى الفقيرة أو أهلى الفقراء ، على الرغم من تغيير واقعى الاجتماعى، وإنما هم أمانى التى أحملها دائمًا، ولم أفقد «الجميل» الذى زرعوه فى داخلى بتلك الطفولة التى يعتبرها البعض شقية وقاسية ..

بالإضافة إلى أننى لم أعتمد على موهبتى فقط، وإنما أنا رجل جاد فيما يهم أمور الثقافة والعلم، فأنت حين تستمع إلى لا ترى فى أحاديثى إلمامًا حميمًا بقضايا الاقتصاد والفلسفة والتاريخ، ولكننى أخفى هذه الصلة الحميمة التى لولاها لفقد شعرى شيئًا فشيئًا الكثير من لياقته عبر المسيرة، والكثير من نضارة وجهه ، التى هى دائمًا ضخ ثقافى من عروقى إلى جانب التمسك بأصالة الموضوع ..

قبل ذلك وبعد ذلك أنا رجل بسيط، داخلى مثل خارجى، أقول ما أؤمن به فقط مهما كان الحصار ومهما كانت المقاومة، وإذا كنت تعتقد أن الدولة سعيدة بى فإنك مخطئ، وإذا ما أعطونى جائزة الدولة التقديرية فى العام الماضى ؛ فذلك لأن الأمر بات شديد الإحراج على جائزة الدولة، فقد أعطتنى جماهير الأمة أفضل جوائزها، وحملتنى على أكتافها وفى أحضانها أينما ذهبت، ولولا وجود كوادر مهمة فى وزارة الثقافة تنتبه إلى رموز الثقافة المصرية من أمثال د. فوزى فهمى ود. جابر عصفور ود. سمير سرحان وغيرهم، لما كان من الممكن أن تعطى الجائزة لشاعر

عامية، ولكنى أقول إن الأربعين مثقفًا وفيهم علماء لغة ومفكرون قدامى وتراثيون وأساتذة معظمهم معاد للعامية، ولكنهم بالإجماع لم يتوقفوا لحظة واحدة أو يترددوا أمام إعطائى الجائزة ..

وإذا كان بعض الشعراء يفسرون حصولى على الجائزة بأننى على صلة بالدولة، فيجب أن أنبه إلى أننى لم ألتفت يومًا للذين عملهم تشويه القيم والرموز فى مصر، وإلا لما أنجزت عملاً واحدًا ..

إن مهمتهم كانت ومازالت هى تلويث الواقع الأدبى والثقافى .. سيموت هؤلاء ويلقى بهم فى مزابل التاريخ دون أن يتركوا خلفهم ورقة واحدة، فهم أصوات سيبتلعها الهواء، فهم يظنون أن لهم قيمة ، وأعتبرهم أنا من ألد أعداء الفكر والتقدم فى أمتنا .

*** ما الذى يسعد الأبنودى فى سنواته الأخيرة إلى جانب تلبية مطالب «آية» و«نور» طبعًا؟**

- يسعدنى أننى لم أضيّع وقتًا، فبعد أيام سوف تصدر لى خمسة كتب : السيرة الهلالية فى كتاب واحد، إلى جانب كتابى «أيامى الحلوة» الذى أقصص من خلاله واقع قريتى فى الجنوب ..

أنا إنسان قادر على إعادة صياغة حياتى كلما ضاقت من حولها القيود، ولذلك أعتبر أن أفضل ما صنعته فى العشرين عامًا الأخيرة، أننى حطمت إطار حياتى القديمة وتحررت، ثم ارتبطت بزوجتى نهال كمال مذيعة التليفزيون التى منحتنى جوًّا من الهدوء، ومسحت عنى تلك العصبية التي كانت قد أصابتنى وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من سلوكى، ثم إنها وهبتنى طفلتى آية ونور، اللتين هما نور العين الآن، واللتين أعادتا أيضًا صياغتى من جديد، حيث لم أكن أعرف ما هى الأبوة ولا ما هى الطفولة بصورة حقيقية ..

ربما هذا هو ما يجعلنى أتمتع دون كثيرين بهذا الرضا والامتنان للحياة، إنها فى آخر الأيام أحاطتنى بكل ذلك الحب من الخارج، وكل ذلك الحب داخل أسرتى الصغيرة .

*** تحدثت عن الدور الذى ينبغى على الشاعر والمثقف أن يلعبه فى بلد يموج بتحولات كبرى مثل مصر .. هل أديت دورك كما ينبغى؟ وهل أدى المثقفون دورهم كما ينبغى؟**

- بالتأكيد لا، المهمة التى أراها للشعراء من أمثالى ، الذين يعشقون الوطن هو تمهيد الطريق أمام السياسيين ليقوموا بالأعمال الحاسمة، ولكن هذا لم يحدث، فبمجرد موت الزعيم جمال عبد الناصر واعتلاء العرش زعيم آخر، قفزت إلى العلن الفكرة الفرعونية الأساسية، وهى نسيان السابق والصلاة للاحق، وراح الكهان يطلقون بخورهم وأدعيتهم، ويكشطون صور الراحل ليضعوا صور القادم، وينسبون إليه أعماله ، فهل تعرف أن اللوحة ، التى تحمل صورة الزعيم جمال عبد الناصر على بناء السد العالى تم رفعها ، ووضعت بدلاً منها لوحة تحمل صورة السادات كبانٍ للسد العالى، تمامًا مثلما اختفى اسم السادات الآن من حرب أكتوبر ..

نحن بلد يجيد هذه اللعبة، ولن يوقفه إلا تفكير جديد وقوى جديدة، تحول بين الزعيم الشريف وبين تشويه صورته وتواصل مسيرته وأحلامه التى لم يتمها، لهذا ظلت أدوارنا دائمًا أدوارًا كتابية، ولم نفلح فى تلك التنظيمات التحتية الخفية التى كانت تتجاهل عقلية وتفكير الإنسان المصرى، وظلت تلك التنظيمات مجرد أعداد قليلة ، تجتمع فى الغرف المظلمة لتردد ما حملته كتب لم تعرف مصر، ولم تلامس شيئًا من واقعها الحقيقى ..

ولهذا فأنا أفرح كثيرًا وأبتهج باندفاعة الشباب لتأييد مطالب القضاة، أو للمطالبة بتجربة الكتابة الصحفية دون تهديد بسجنه أو غرامات مبالغ فيها، ولكننى أؤمن بأن الدولة سوف تمارس ألاعيبها لتبطل هذه النداءات وتطفئ هذه الغضبة، دون تنازل حقيقى أو جوهرى عن أهدافها؛ إذ ليس ثمة جماهير تحمى مطالب الصحفيين سوى الثائرين منهم ومعظمهم من الشباب، ومهما زاد عددهم .. فإن الدولة التى تتربص بهم والتى لديها كهنة محترفون يجيدون التلاعب والالتفاف على الحقائق، تعلم أنها تستطيع دائمًا أن تنفذ ما تراه، حيث إنه لا غطاء جماهيرى صاحب يبث روحه فى شرايين هتافهم؛ أى أن تصبح القضية ليست قضية صحفيين ولكن قضية الحرية فى مصر، وأن يعى الناس معنى أن تكون هناك حرية، ولن يعرفوا ذلك إلا بربطها بمصالحهم، ولذا سعيت إلى التعبير عن آرائى فى المقالات التى كتبتها فى «الوفد» والتى تصديت فيها لكل ألوان الفساد الذى تعج به دولتنا، والذى لا يخفى عداء لنا وللجماهير المنهوبة التى سلبت حقوقها فى الوقت نفسه وبيعت مؤسساتها ومصانعها وأبنيتها التى شيدتها على الأكتاف طوبة طوبة، ونهبت ثرواتها وهربت إلى خارج البلاد، فكأننا فى عصر المماليك، أو كأننا شاه ذبحت تتناهشها الغربان السود.

*** تحدثنا طويلاً عن يوليو .. ما الذى بقى منها؟**

- على مستوى الدولة، أظن أن يوليو رحلت منذ وقت طويل، من بعد بدايات حكم السادات، وبعد حرب أكتوبر التى كانت فى ذهن يوليو، والتى دربت جيوشها استعدادًا وأعيد بناء الجيش واستطاع السادات بحنكة أن يحقق ذلك الانتصار الذى لم نهنأ به طويلاً؛ إذ مدت موائد المفاوضات ودم إخواننا لم يكن قد جف بعد على رمال سيناء، وكانت هذه بداية الاستعداد لزيارة القدس وكامب ديفيد، وإعلان أن حرب أكتوبر هى آخر الحروب ..

بعد ذلك، دخلنا فى مرحلة جديدة استبدلت فيها الأهداف بأهداف والقيم بقيم، وبدأت رويدًا رويدًا تتفكك وحدة الجماهير ، وتبدو على استحياء فوارق الطبقات، وخرج من الجحور من كانوا قد لبدوا بأموالهم وتوجهاتهم كل تلك السنوات، ومن عملوا فى الخليج وغير الخليج، وكونوا تلك الثروات، وبدأ النخر والنحر فى ذلك البنيان الاقتصادى العظيم الذى أفنى آباؤنا الأعمار فى بنائه ليباع بزهيد الأثمان، ويتجه عائده إلى حيث لا ندرى، وكأنهم هم أصحاب هذه المصانع والمؤسسات الضخمة، وكأننا لم نجع سنوات طويلة ولم نحرم من كل المتع التى تسعدهم الآن ؛ من أجل أن تعتمد مصر على نفسها، ومن أجل أن يبنى السد العالى وأن نأكل من إنتاجنا .. كل ذلك ذهب أدراج الرياح، وعاد الفقراء للعوز والحاجة والحياة غير الإنسانية، وتسربت مقدرات الشعب إلى السادة، وهربت أموال البنوك والثروات المهولة إلى خارج البدن الاقتصادى المصرى، ولم يعد أحد يهتم بمصر إلا بقدر فائدته شخصيًّا، وصرنا نحن نتأسى على ما يحدث من خلال المقالات والقصائد التى انشغل عنها الناس بالبحث عن اللقمة، وعلى المستوى العربى بدأ التفكك بعد موت مصر إكلينيكيًّا فى سيناء، وعدم خشية عدونا منا، صار يعربد كما ترى فى كافة أنحاء الأمة .. لقد تمزق العراق، وها هو الجزء الباقى من فلسطين يستباح بقسوة، كما ترى ذلك الهجوم الضارى والاستباحة الرهيبة وحرب الإبادة للشعب اللبنانى ولفكرة المقاومة فى لبنان أو فلسطين أو العراق ..

ورأيى أن هذا العداء هدفه تركيع الأمة العربية ، وإذا كانت الشعوب العربية لا تملك الآن سوى التحسر والتأسى على ما يحدث فى لبنان وغزة، إلا أنها ترى أيضًا أن أمريكا غرقت فى العراق غرقًا لا يمكن إنكاره، وأن النضال فى النهاية لابد أن يقود إلى أوضاع غير ما تراه العين ذات النظرة العجلى .

*** عودة إلى الشعر .. كيف اختلفت القصيدة بين الستينيات والآن؟ وكيف ترى دورها؟**

- التجربة الشعرية الكبيرة تزداد قيمة بالتراكم، وبتكدس التجارب التى نمر بها عبر الزمن، وهنا يتساقط أصحاب الأصوات الفجة والكذابون والمهرجون ، الذين يلعبون أدوار الثوريين فى سلوكيات مضحكة ..

الشعر ليس مجموعة قصائد أو أغنيات يلقيها الشاعر بانتهازية لجمع كم من الجماهير حوله ينفرط بمجرد أن يستدير، والشعر الذى تحتفى به مجموعات ثقافية متملقة ومحدودة لا يقارن بشعر يهز وجدان الأمة .. لقد كان أملنا دائمًا أن نطاول قامة بابلو نيرودا ولوركا وناظم حكمت وأراجون وإيلوار، وإن كانت التجارب وطبائع الشعوب تختلف، ولكننا أخذنا الشعر على مأخذ الجد، وقبلنا تلك المغامرة الكاشفة، بأن تقبل لقب شاعر، وأن تعتبر حياتك دفاعًا عن هذا اللقب، وأن تعتبر الشعر وطنًا، وأن الوطن شعر، وإن الوجود كله قادر على المروق من خلال القصيدة للبشر ..

وإذا كنا فى الفترة الناصرية لجأنا أحيانًا للمباشرة فى أغنياتنا وبعض أشعارنا، فإن تلك المباشرة كانت ضرورية وحتمية فى فترة ، كانت مضطربة وترتفع فيها أصوات الحروب والمعارك فى الداخل والخارج، وحتى بيننا وبين السلطة، وها نحن نعود إلى تلك الأغنيات كفاكهة من جنة ، فقدنا الطريق إليها مرة أخرى ..

وحتى حين كنا نكتب هذه الأغنيات المباشرة، فقد كنا نضع عجينة من شعر حقيقى معجون بمشاعر صادقة وعرة، لذلك عاشت الأغنيات حتى الآن، ورغم ذلك فقد تواترت الدواوين تحمل تجاربنا الشعرية الخالصة، والتى أحدثت تطويرًا فى

شعر العامية، وإلى جانب شعراء الفصحى الكبار، واستطعنا أن نخلق مكانة للشعر، وصار من الصعب محو أسمائنا من على صفحة الذاكرة الجماعية ..

أما الآن، فإن القصائد رغم أنها لم تتنازل عن أهدافها وطموحها ، إلا أن غلالة من حزن شفيف تغلفها وتقربها أكثر إلى قلوبنا وذواتنا، وإن كنا لا ننسى قضايانا وقضايا الأمة ..

* * *

فضفضة

كتّاب ومفكرين

سيظل فن الحوار الصحفى البوابة الملكية لعبور عالم الصحافة الواسع؛ والكاتب إذ يعترف بأن ثمة أسئلة مؤرقة كان يبحث لها عن إجابات وأن ميوله نحو هذه النوعية من الحوارات أنقذته من الرتابة والملل والنمطية وألا يكون مأمورًا بسياسات أو محددًا بأطر معينة أو توجهات ثابتة .. إنما يؤكد ضرورة أن يكون الصحفى على دراية تامة بموضوع حواره وطبيعة من يحاور .. وتبلغ هذه الضرورة ذروتها، عندما يكون بين كوكبة المحاورين نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وسيد عويس، وغالى شكرى، وفؤاد زكريا، ومحمود أمين العالم، وأحمد صدقى الدجاى، ورجاء النقاش، وخلدون النقيب، وسميح القاسم .. وغيرهم كثيرون .. ممن تغدو" الفضفضة" معهم أمتع حوار يمكن بين طرفين.

الرسم و التصميم : محمد حجي

الدار المصرية اللبنانية



